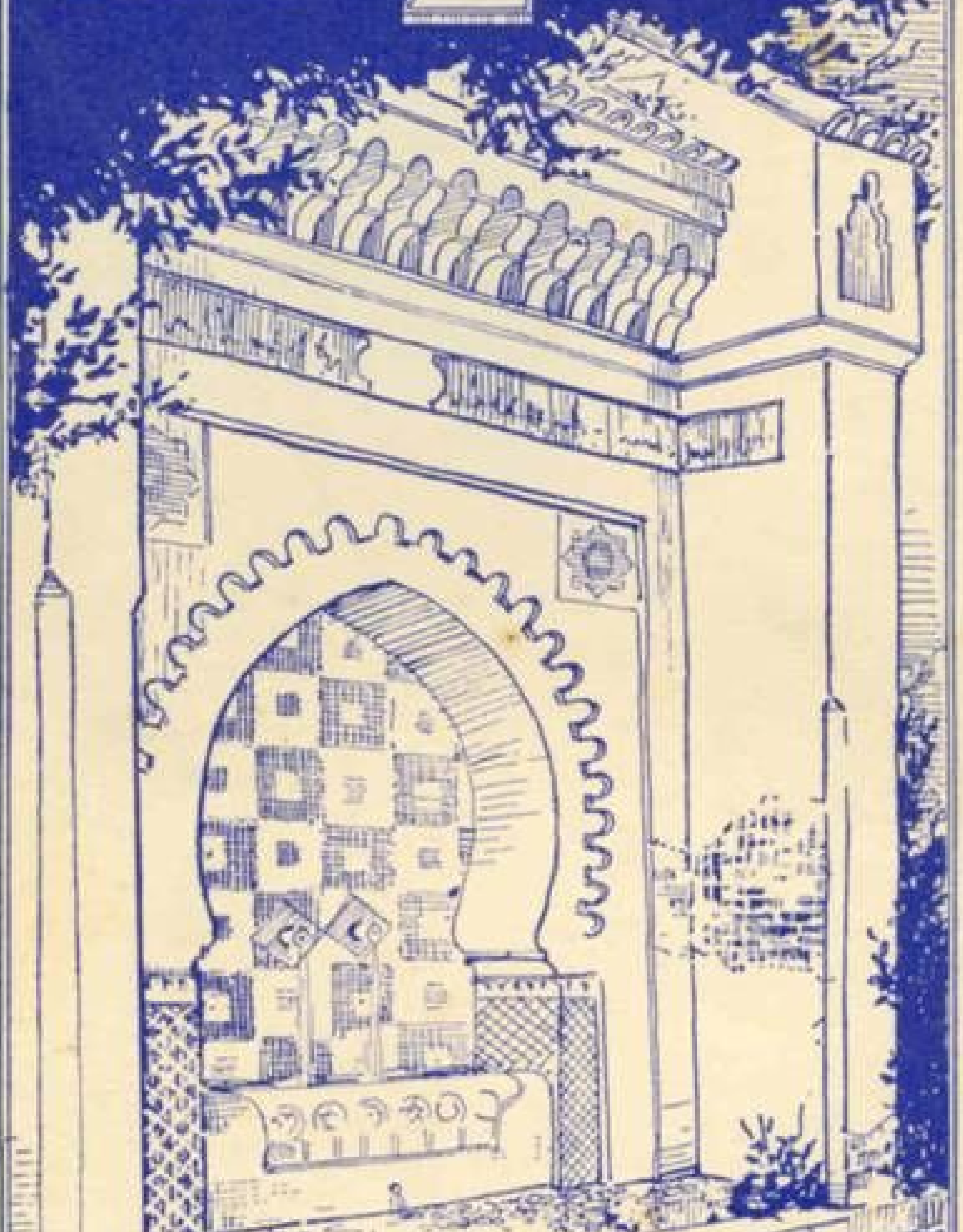
ولا غالب الا الله

تطوان



المملكـة المغـربيـة

وزارة التـربيـة الـوطنيـة

« تـطـوان »

مجلـة للابحـاث المـغـربيـة الانـدلسيـة

ثمـن النسخـة :

المغـرب، اسبـانيـا وفـرنسـا : سنـة واحـدة .... 12،50 درهـم

فـى بـاقى البـلاد : سنـة واحـدة .... 4 دولارات

تـطـوان

مجلة للأبحـاث المغربيـة الأندلسية

تـطـوان

مجلة للأبحــاث المغربيــة الأندلسية

منشورات الجامعة المغربية

كلية الآداب

معهد مولاي الحسن

للابحاث المغربية الأندلسية

تطوان

مجلة للأبحاث المغربية الأندلسية

العدد التاسع السنة 1964

محمد الفاسي

الاداب الشعبي المغربي

الملحون (1)

الحمد لله   والصلاة والسلام على رسول الله

سيداتي سادتي :

ان الاهتمام بالآداب الشعبية بصورة علمية ودراسة طبائع الشعوب ومميزاتها استنادا على الانتاجات الادبية والمظاهر الفنية التلقائية التي لا تتعلم في مدرسة ولا تؤخذ من كتاب من العلوم التي استحدثت في هذه المدنية الحديثة . وقد اطلق عليها في القرن الماضي لفظة «فولكلور» اي دراسة الشعب ، وليس معنى هذا ان هذه الانتاجات الادبية لم تكن موجودة او لم يكن يؤبه لها وانما لم تتجه العناية اليها بكيفية منظمة ولم يهتم بها علماء الاجتماع الا بعد تشعب العلوم واتساع آفاق المعرفة في العصور الحديثة .

ولاهتمامي انا شخصيا بهذه الناحية من مظاهر حياتنا الشعبية قصة طريفة لا بدان احكيها لكم في مستهل هذا الحديث الذي هو اول حديث من هذا النوع القيه بالعربية في المغرب لانني وان كان اتصالي بالادب الشعبي يرجع لايام الطفولة وانا تلميذ بالادريسية بفاس وان كنت كتبت فيه الكثير بالفرنسية وحاضرت فيه بالفرنسية كذلك مرارا فانني لم اكتب فيه بالعربية الا مرة واحدة عندما كنت طالبا بباريس في السنين الاولى من سني الدراسة حيث كنا نجتمع نحن طلبة المغرب السبعة في بيت احدنا مرة في الاسبوع

(1) نص المحاضرة التي القاها الاستاذ الفاسي بمدرسة النهضة السلاوية في السنة الفارطة

لنستمع الى حديث ثقافي لصاحب البيت . فكان من نصيبي ان حدثت اخواني اذذاك عن الادب الشعبي ، ثم القيت في هذا الموضوع كذلك منذ سنتين ثلاثة احاديث للاذاعة البريطانية .

والسر في هذا يرجع اولا لعدم اهتمام جمهور الادباء والمثقفين عندنا بهذه الانتاجات الشعبية ، وثانيا لاننا كنا ايام الحماية نحرص على نشر العربية الفصحى ونعارض في كل نزعة ترمي الى اضعافها وكنت لا اريد ان يفهم من الاهتمام بالادب الشعبي باللغة العامية ، انني اناصر نزعة من تلك النزعات التي كان لها روجان خصوصا بالشرق وعند بعض المستشرقين من اصحاب الفكرة الاستعمارية .

اما الآن فاننا والحمد لله لم نبق نخشى على لغة القرآن من منازع ولا منافس وانا من المومنين بان اللغة العربية الفصحى سائرة في طريقها سيرا حثيثا نحو مكانتها كلغة حية تساير التقدم في كل الميادين وانا مطمئن على مستقبلها اطمئنانا كاملا ، ومن جهة اخرى فان انتشار العلم وتقدم الثقافة العامة جعلا المثقفين يهتمون بكل مظاهر الادب والفن وصاروا يتذوقون الانتاجات الادبية كيفما كان ماتاها ، وتعين الآن ان انشر نتيجة هذه الابحاث التي استغرقت السنين الطوال وبذلت في سبيلها جهودا كبيرة بالبحث والتنقيب عن شعراء الملحون وعن الحفاظ وعن الخزانة وعن الكنانيش ، وسافرت الى اهم مراكز الملحون في المغرب واستقدمت عندي كل من له معرفة به وذاكرتهم الايام الكثيرة والليالي الطويلة حتى تجمع لدي من هذا التراث الفني البديع الشيء الكثير .

والآن قبل الشروع في بحث الموضوع نفسه احكي لكم كيف كانت الصدفة هي السبب في اقبالي على هذه الدراسات .

كنت تلميذا بالمدرسة الادريسية بفاس ايام حرب الريف في سنة 1925 بالضبط اذ حضر الى فاس عدد كبير من الصحفيين من فرانسا ومن غيرها من البلاد ، وكان من بينهم رئيس التحرير لجريدة « L'Information » الباريسية وكانت تصدر مرتين في اليوم ، وكانت له رسالة تقديم من الاستاذ ماسينيون الى مدير التسجيل بفاس وكان من الادباء الفرنسيين وكان يعمل عنده احد اصدقائي من قدماء التلاميذ السيد العربي قصارة رحمه الله فعرفني به واستدعاه الى منزله واستدعاني كذلك فلازمت ذلك الصحفي لما وجدته فيه من الاستعدادات الطيبة لتفهم الوضع المغربي ، وقد كنا بدانا

حـركتنا الوطنية المباركـة وكانت اذاك تتجه نحو محـاربـة البدع والطرقيين والاشـادة بالفكـرة السلفية فكـان يوجـه مراسلات لجريدته في هذا الموضوع وكـانت تلك المكاتبات من الحملات الوطنية الاولى في صحف فرنسا ، وتمتنت علائقي بالسيد اميـل دير منكيـم وقـد كان اذاك لا يعلم شيئا عـن العـرب ولا عـن المغـرب العـربي ولا عن الاسلام وكان اديبـا يـؤلف الـروايـات وينشر كتابـات حـول تاريخ الحركات السريـة مثل الماسونية ونحـوهـا ، ووقـع ان اصيب في فاس بمرض ولازم الفـراش فكنت أعوده قبل دخولي للمدرسـة وبعـد خروجي في الصباح والعشية واتيت له بالطبيب وكنت اؤنسه لما دخل في طور النقـه فرأيت ان احكي له حكايات وكنت قريب عهـد بالاستماع الى الخـرافات التي كانت تحكيها لي جدتي رحمها الله فصرت اتـرجـم لـه تلك الحكايات فاعجب بها غاية الاعجـاب وقال لي هذه ذخيرة ادبيـة لو نشرت لوقع عليهـا اقبـال كبـير وقال لي انها لا تقل جمالا وروعة عن حكـايـات بـيرو Perrault الفـرنسي ولا عـن حكـايـات هوفمـان الالمـاني فـاقبلت اذاك على كتابة كل ماكنت اعـرفه من حكايات ثـم اخذت استمـع من افراد العـائلـة الى كل مـن له حكاية حتى تجمع لدى الشيء الكثـير ورجـع دير منكيـم الى فرنسا ثـم وجـه لي كتبا كثيرة في موضوع علم الفولكلور وخصوصـا ماكتب عـن الحكايات وما استنتجه العلمـاء منها من وحـدة التفكـير البشري ورجـع في السنة بعدهـا عندما اشتدت ازمـة الحـرب الريفية التي انتهت تلك السنة بالقـاء القبض على ابن عبد الكريـم ، واخذنا في وضع كتاب الحكايات الفاسية Les Contes Fasis وكـان مـن اثـر وجـود السيد ديـر منكيـم بفـاس وكـان يسكن عندي في منزلي ان اقنع عائلتي بوجوب توجيهي الى فرانسا لتحضـير البكالوريـا لان المدارس المغربيـة لـم تكـن تحضر اذاك الا شهادة ديلوم نهايـة الدروس الثانـويـة الاسلامية ورغـم مستواها العالي لم تكن لها المعادلـة مع البكالوريـا ، وهكذا كنت اول تلميذ مغربي حضر البكالوريا الفرنسيـة فـي باريس وفي نفس تلك السنة ظهرت الحكايـات الفاسية بالفرنسيـة ووقـع عليها اقبال كبـير وتكلمت عليها صحف العالم اجمع مما حـدا بالناشر ان طلب منـا ان نضع جـزاء ثانيـا فلما رجعت للمغـرب للعطلة الصيفية جمعت كميـة اخرى من الحكـايات وترجمتها ونشرت تحت اسم «الحكايات الفاسية الجديدة» Nouveaux Contes Fasis .

وهكذا اقبلت على جمـع كل الانتاجات الادبية الشعبية من أحجيات وامثال واغـان وعـروبيـات ومواويـل وسرابات وقصائد وذكـرات ، وترجمت منها الكثيـر ونشرتـه في عـدة مجلات ادبيـة فرنسيـة .

وانني اخصص هذا الحديث اليوم بالكلام على الملحون ولا اتعرض للانواع الادبية الشعبية الاخرى .

واولا ، ماهو الملحون ولماذا يسمى بهذا الاسم ؟ اول ما يتبادر للذهن انه شعر بلغة لا اعراب فيها فكانه كلام فيه لحن ، وهذا الاشتقاق باطل من وجوه لاننا لانقابل الكلام الفصيح بالكلام الملحون ولم يرد هذا التعبير عند احد من الكتاب القدماء لا بالمشرق ولا بالمغرب .

والذي اراه انهم اشتقوا هذا اللفظ من التلحين بمعنى التنغيم لان الاصل في هذا الشعر الملحون ان ينظم ليتغنى به قبل كل شيء ونجد مايؤيد هذا النظر من قول ابن خلدون في المقدمة في الفصل الخمسين في اشعار العرب واهل الامصار لهذا العهد بعد ان تكلم عن الشعر باللغة العامية فقال : «وربما يلحنون فيه الحانا بسيطة لا على طريقة الصناعة الموسيقية (1)» ومعنى هذا انهم لا يدخلون اشعارهم في ميازين الموسيقى المعروفة من بسيط وبطايحي ونحوهما ، وانما يجعلون لها الحانا خاصة سنتعرض لها في هذا الحديث بالنسبة للملحون المغربي الذي يعنينا هنا . ومن اسماء هذا الشعر عندهم علم الموهوب وهذه العبارة تدل دلالة واضحة على انهم يعتبرون الشعر كهبة من الله وليس هو مجرد نظم وانما هو ايحاء والهام وكانه يجري على لسان الشاعر عفوا لذلك يسمونه ايضا السجية ويميزون بين الاشياخ الذين يقولون الشعر والذين يحفظونه ويغنونه بقولهم شيخ السجية للشاعر وشيخ القريحة للمغني .

ويطلقون عليه كذلك لفظة «الكلام» كان الشعر هو الكلام الحقيقي الذي يستحق ان يحمل هذا الاسم وغيره كانه لغو وكل هذه العبارات تدل على تقدير الشعب لهذا الشعر ونظره اليه بعين الاكبار والاجلال .

وفي الحقيقة دراستنا للملحون من بين الانتاجات الادبية الشعبية فيه تجوز ، اذ اخص مميزات الادب الشعبي انه لا يعرف قائله وهذا هو الشأن في الحكايات وفي الامثال وفي العروبيات التي تغنيها النساء وفي نحو هذه الانواع الادبية الشعبية حقا ، اما الملحون فلا يربطه بالناحية الشعبية الا كون قائليه في الغالب من عامة الشعب وليسوا كذلك في الغالب من المثقفين بل كثير منهم كانوا اميين ، واما من حيث اللغة فانها وان كانت اللغة العامية فانها ليست لغة طبقة شعبية منحطة بل هي لغة ارقى من

(1) المقدمة ص. 582 .

اللغة التي يتكلم بها حتى المتعلمون لان شعراء الملحون يدخلون في كلامهم كثيرا من الكلمات الفصيحة بعد اجرائها على الاسلوب العامي ، ثم ان من بين شعراء الملحون من لو ترجم انتاجهم للغة حية لعدوا من اكابر شعراء الدنيا فينطبق عليهم من هذه الناحية قول ابن خلدون في المقدمة في الفصل المشار اليه آنفا : اعلم ان الشعر لا يختص باللسان العربي فقط بل هو موجود في كل لغة سواء كانت عربية او عجمية .. الى ان يقول لما كان الشعر موجودا بالطبع في أهل كل لسان لان الموازين على نسبة واحدة في اعداد المتحركات والسواكن وتقابلها وهي موجودة في طباع البشر فلم يهجر الشعر بفقدان لغة واحدة وهي لغة مضر ... اما العرب اهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الاعاريض ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر واغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء» ثم قال في تقدير هذا الشعر بعد ان ذكر ان الكثير من المنتحلين للعلوم مستنكرون لهذه الفنون «وهذا انما اتى من فقدان الملكة في لغتهم فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها ان كان سليما من الآفات في فطرته ونظره» .

وهذه الملاحظة العميقة للفيلسوف العظيم ابن خلدون مانا زلنا نشاهد آثارها الى يومنا حيث ان الكثير لايقدرون الشعر الملحون لا لشيء الا لعدم معرفتهم لطرقه واساليبه بل للغته بمعنى انهم لم تحصل لهم الملكة التي يشير اليها ابن خلدون وكل من حصلت له يتذوقه ويعجب به ويقبل عليه .

هذا وان نظم الشعر باللغة العربية العامية وجد في كل عصر وكل قطر الا ان اهل الاندلس والمغرب فاقوا غيرهم في هذه الناحية وذلك انهم بعد ان اهتدوا الى التحرر من اوزان العروض القديم الضيقة واخترعوا الموشح الذي وان كانت له قيوده وشروطه الثابتة فانه يفتح الباب لكل شاعر ان يخترع مايشاء من الاوزان والبحور اخذوا بعد ذلك ينظمون في اوزان تشبه الموشح ولكن بلغتهم العامية وهو ما يسمى بالزجل وقد عقد ابن خلدون في مقدمته فصلا للكلام على هذه الازجال عند اعراب المغرب وعند اهل حواضر الاندلس والمغرب ، واتى بأمثلة من ذلك يظهر منها ان شعر الاعراب وان كان بلغة عامية فهو لا يزال قريبا من الاساليب العروضية الخليلية كالتزام قافية واحدة في القصيدة وشطرين في البيت اما زجل الامصار فابتعد شيئا ما عن هذه الاساليب ، وذكر كيف احدث اهل الامصار بالمغرب فنا آخر من الشعر في اعاريض مزدوجة كالموشح نظموا فيه بلغتهم الحضرية

ايضا وسموه عروض البلد ، وذكران اهل فاس اقبلوا على هذه الطريقة وكانت له هنا عبارة يراها البعض كانها تنقيص من اهل المغرب حيث قال : «وتركوا الاعراب الذي ليس من شانهم» وليس معنى هذا انهم لا علاقة لهم بالاعراب وانما مقصوده ان النظم في هذه الطريقة لاشان فيه للاعراب والا فهو يعلم ان شيوخه الذين اخذ عنهم وهو شاب بتونس قبل قدومه على فاس هم العلماء الذين صحبوا السلطان ابا الحسن المريني الى تونس وهم الذين شوقوه الى التوجه الى فاس للاخذ عن علمائها وهو يعلم ان شان هؤلاء مع الاعراب شأن واي شان ، فلا ملامة عليه في تلك العبارة .

ثم ذكر ان هذا الشعر المستحدث باللغة الحضرية الفاسية «استفحل فيه كثير من اهل فاس ونوعوه اصنافا الى المزدوج والكاري والملعبة والغزل» وانتشر في كل البلاد المغربية وقد اورد امثلة منه لشعراء من اهل تازا ومن اهل زرهون وقال بعد هذا : «واما اهل تونس فاستحدثوا في الملعبة ايضا على لغتهم الحضرية الا ان اكثره ردئ» ولم يعلق بمحفوظي منه شيء لردائته» . وان حافظة الاشياخ والكنانيش القديمة لم تحافظ لنا على شيء من هذه الانتاجات الاولى للملحون بالمغرب واظن ان ذلك راجع الى التطور العظيم الذي طرأ عليه في اوزانه ومواضيعه حتى اهملت القصائد القديمة لاقبال الاجيال بعد ذلك على ما استحسنوه من الاساليب الجديدة .

لذلك كانت اقدم قصيدة بلغتنا عن طريق الحفظ والكنانيش القديمة هي قصيدة «الحربي» للشاعر ابن عبود وهو من اهل فاس كان ايام الوطاسيين وكان مع سيدي عمرو الوطاسي قائد الجيوش الوطاسية في وقعة تادلة بين احمد الاعرج السعدي واحمد الوطاسي وهي التي اسفرت عن اعتراف الوطاسيين بسيادة السعديين على الجنوب ، وهذه القصيدة في وصف هذه المعركة وتاريخها سنة 943 هـ (الموافقة لسنة 1536 م) وقد ظهر في هذه القصيدة التطور الذي أشرت اليه آنفا فهي تحتوي على عروبيات ونواعير ولكل قسم قوافيه الخاصة ، وقد اشار صاحب الاستقصاء لهذه الوقعة وقال قد انشدت فيها قصائد الملحون .

وقد اجيز ابن عبود على هذه القصيدة بتلبية طلبه في جعل محل بفاس رهن اشارته لانشاد قصائده به يوم المولد النبوي وهذا المحل هو مايسمى مسيد سيدي فرج بسوق الحناء بفاس وقد خلفه فيه الشاعر الكبير سيدي عبد العزيز المغراوي وما زال شعراء الملحون الى يومنا يجتمعون فيه يوم عيد المولد وينشدون كلام سيدي عبد العزيز المغراوي وكلام النابغين منهم ومن

ادرك ان ينشد شعره في ذلك الحفل الجليل فقد بلغ المنتهى في تقدير زملائه له .

وقبل ان اعطيكم نظرة وجيزة عن تاريخ الشعر الملحون من عهد ابن عبود الى العصور الحديثة اشرح لكم الآن من اي شيء تتركب القصيدة وانواع النظم في الملحون فقد توصلت في هذا الباب بعد استقصاء البحث وجمع اكثر ما يمكن من القصائد الى وضع قواعد عروض الملحون وانتم تعلمون ان الشاعر هو في نفس الوقت «موسيقار» اي يلحن شعره بنفسه فاما ان ينظمه في بحر معروف واما ان يخترع بحرا جديدا بكيفية مخصوصة واذا وقع الاقبال على هذا البحر نظم فيه الشعراء وكثرت القصائد فيه، والا فيمكن ان لا يقلده احد وتبقى القصيدة فريدة ويطلقون على هذا النوع من القصائد لفظة غريزة وشعراء الملحون لهم اصطلاحات كثيرة وهم في هذا كشعراء العرب قبل الاسلام وقبل ان يكتشف الخليل بن احمد قوانين عروضهم اذ كانوا يقولون القافية ويسمون بعض البحور كالرجز ونحوه وكان لهم غير ذلك من الاصطلاحات .

والقصيدة في الملحون تنقسم دائما الى عدة اقسام وتتركب من اربعة اقسام الى عشرة واكثر الا ان القصائد الموضوعة في القصص وفي ما يسمى بالغزوات وهو النوع الايبوبي فانها تتركب من عدد كبير من الاقسام يبلغ احيانا الخمسين قسما واكثر ، والقسم يتركب من بيتين الى عشرة واكثر الا ان عدد الابيات لا يتعدى عادة الخمسة او الستة غير ما كان من القسم الاخير فانه احيانا يكون طويلا خصوصا اذا اشتمل على الهجاء ويسمى عندهم الشحط او الدق ، ويسمى القسم الاخير اذا اشتمل على الشحط الزرب تشبيها له بالاشواك التي تحاط بها البساتين والحظائر لئلا يستطيع احد ان يقربها والا اصابه شوكها .

ثم ان بحور الملحون انواع خمسة في حين ان البحور الخليلية الستة عشر نوع واحد اي كلها عبارة عن ابيات تتركب من شطرين وتختلف من بحر لآخر بتفاعيلها ووضعها في ما بينها ، وهذه الانواع الخمسة هي اولا ما يسمى المبيت وهو اكثرها استعمالا ويسمى كذلك لان القسم يتركب من عدة ابيات تتكرر في كل قسم ولا تتغير فيها الا القوافي ، وهذا النوع اشبه شيء ببحور الشعر الفصيح الا ان شعراء الملحون لا يلتزمون تركيب البيت من شطرين فعندهم قصائد بأبيات ذات شطرين وثلاثة واربعة وخمسة ومثال القصيدة التي أبياتها ذات الشطرين حربة العود للسي التهامي المدغري رحمه الله .

سـال عـودي عـن وعـدى نبات نرثي ويظل مع اللجام مسكين يقدد

ومثال الاشطار الثلاثة حربة الداوى للشيخ الجلالي مثيرد رحمه الله :

الـداوى مالك ذاوى بـالوصال جراحي داو ولابرى جرح بغير دوا

ومثـال الاشطـار الاربعـة حـربة قصيـدة صارم الطعن للشاوى رحمه الله وهى فى الهجـاء :

آش را مـن لاجـرد صـارم الطعن وركبت صفن الحـروب وعيط داني
هـا حـنـا هـنـا ويـكـون ذراعـه بحـال لسـانـه

ومثـال الاشطـار الخمسـة حـربـة قصيـدة طـاهـرة لسيـدى قـدور العلمـى رحمـه الله :

كف المـلام سلم يامن لام فى الغـرام لوريت صابـغ النتام تاج الريام
ميـلا في الغـزال طـاهـرة

وحيث ان عدد التقاطيع فى كل شطر يختلف من قصيدة لاخرى واساس عروض الملحون هو عدد التقاطيع فمن هنا تدركون ان عدد البحور التى يمكن ان ينظم فيها الشعـراء فى هذا النوع الاول المسمى المبيت عـدد كبير وقـد احصيت البحور التى استعملت فى القصائد العديدة التى وقفت عليها وحققت تركيب كل بحـر وعـدد تقاطيـع اشطاره فى المثنى والمثلث والمـربع والمخمس فوجدت انهـا تفوق الثلاثـين والمـائـة .

ولكـل قصيدة من اى نوع كانت حربـة اى لازمـة تكـرر بعد كـل قسم وينشدهـا كل العازفـين وربمـا الحاضرون كـذلك وتختم بهـا القصيـدة ، وبالحـربة تعـرف القصائد عندهم وتميـز عن غـيرهـا اذا كـانت فى نفس الموضوع ، ثـم ان بحور المبيت يستعمل معها تارة بـين الاقسام قطـع صغـيرة تسمى عـروبيـا وهى غير العروبى الذى تنشده النساء فى النزهات وهـن يطشن فى اغصان الاشجـار وانمـا سمى عـروبيـا وهو مقلوب ربوعى اى ربـاعى لانـه فى الاصل يتركب من اربعة اشطار ـ ويستعمل مع بعض البحور كذلك قطـع صغيـرة على شكل اقسام المبيت الا ان ابياتها اصغر من ابيـات الاقسام وتسمى التـواعيـر .

والان يعزف لكم الجوق (1) امثلة من هذه الانواع ، فاولا تسمعون قصيدة

---

(1) عند القاء هـذه المحاضرة بمدرسة النهضة بسلا كان جوق الملحـون من اشياخ الملحون يعطى الامثلة العمليـة عن كل نوع وسانشر بعد هذا ان شاء الله مجمـوعة مـن القصائد كنماذج لشعـر الملحـون .

للشيخ الجلالي مثيرد رحمه الله وهي ذات اقسام اربعة على قاعدة الشيخ الجلالي في عدم تطويل قصائده ، وحيث ان العادة القديمة ان يبتدىء الاشياخ بسرابة وهي نوع من القطع الشعرية لها ترتيبها الخاص وتكون اصغر من القصيدة ولا تقسم في الغالب ، فان الجوق يعزف اولا سرابة

ياقلبي كن عن وصابك صبار، يردفها بقصيدة البحر ونغمتها من الانغام الموسيقية رمل الماية .

واليكم الان مثالا من قصيدة مبيتة ولكنها تحتوى على عروبي وهي قصيدة الربيعية الاولى للسى التهامي المدغرى ولا يعزف الجوق الا القسم الاول ، والعروبي الاول ونغمتها من انغام الموسيقى رمل الماية كذلك .

والان تسمعونمثالا من قصيدة مبيتة ولكنها تحتوى على نواعير وهي قصيدة الجار للحاج ادريس الحنش وهو والد العلامة سيدى الراضي الحنش المدعو السناني نزيل مدينة ازمور الآن ، ونغمتها من الانغام الموسيقية الحجاز الكبير .

اما النوع الثاني فيسمى مكسور الجناح وهو عبارة عن قصائد تتركب من عدة اقسام الا ان كل قسم يكون وحدة عروضية مستقلة كأنه بيت واحد له عدة اشطار ، ولا يختلف قسم عن قسم الا في القوافي ، واما في ترتيب الاشطار وعددها فهو لا يتغير ، ويفتتح كل بحر من هذا النوع بشطر واحد يسمى الدخول ، وهذا وجه تسميته ، فكأن جناحه مكسور ويتركب هذا الشطر عادة من عشرة تقاطيع تتلوه مجموعات اشطار صغيرة تسمى الكراسي او المطيلعات ويختم بشطرين او ثلاثة تكون اقرب شيء للحربة ، مثال هذا النوع وقد احصيت منه نحو الثلاثين بحرا : «الخادم والحرة» للغرابلي ويمتاز بان الشسطر الاول يتركب من اثنى عشر تقطيعا ، ويعزف الآن الجوق هذه القصيدة ويكون عادة القسم الاخير في مكسور الجناح طويلا ويسمى اذاك السارحة ويتركب من ابيات على غرار الحربة فيكون اذا قسما مبيتا .

وتوجد قصائد من هذا النوع فيها عروبيات ، من ذلك قصيدة الذهبية أي غروب الشمس للشاعر أنجار وتمتاز بكون القسم الاول منها من نوع المبيت ويتركب من ثلاثة ابيات ذات شطرين وعلى غرارها الحربة ، ويتلو هذا القسم الاول ثمانية اقسام كلها مكسورة الجناح ، والآن يعزفها لكم الجوق .

والنوع الثالث يسمى المشتب وهو من احلى هذه الانواع تلحينا وطريقته ان يبتدىء الشاعر القسم كأنه يريد ان ينظمه في المبيت ولكنه بعد الشطر الاول ياتي بكراسي كما هو الشأن في مكسور الجناح وبعدها يكمل البيت فهو يملأ داخل البيت باشياء زائدة كما يجعل ما يسمى الشتب عندنا داخل اشياء مثل الصوف في المضربات وبحور هذا النوع قليلة جدا بالنسبة للانواع الاخرى فهي لا تتعدى الثمانية خمسة منها هي التى نظم فيها الشعراء كثيرا منها قصيدة التوبة لابن سليمان وهى التى يعزفها لكم الآن الجوق كمثال للمشتب .

اما النوع الرابع فهو المسمى السوسى ، وكأنه من الشعر الحراذ طريقته ان يبتدىء الشاعر القسم ببيت واحد ذى شطرين فى كل واحد منها سبعة تماطيع ثم ينتقل لكلام مرسل عليه طبعا مسحة شعرية باختيار الالفاظ والوقفات والحرص لا على التقفية ولكن على تشابه مخارج الحروف واذا جاءت القافية عفوا لا يردها ، ثم يختم القسم ببيتين او ثلاثة بميزان وقواف ، وعلى غرارها تكون الحربة وقد استنبطوا هذا النوع للمواضيع التمثيلية اى التى فيها حوار كالقصائد المسماة الحراز وهى التى يصور فيها الشاعر الوسائل التى يستعملها للوصول لمحبوبته وتكون عادة محروسة لا تخرج ولا يصلها احد لغيرة بعلها وخوفه عليها فيحتال العاشق فى الوصول اليها بشتى الحيل بان ياتى الى من يمنعها ويحرزها وهو الحراز فى صفات مختلفة علّه يتوصل الى الدخول لمنزله ومشاهدة حبيبته ، ثم الاتصال بها . والمحاورات التى تجرى بين العاشق والحراز تحتاج الى حرية فى النظم لذلك عمدوا الى هذا النوع ، ويستعمل كذلك فى قصائد الخصام والتفاضل ونحوها مما يتطلب الحوار وكمثال لهذا النوع تسمعون الان الحراز للامغارى .

اما النوع الخامس فانه لا يمتاز بعروضه وانما بموضوعه وبكيفية انشاده وهو مايسمى بالذكر وبحوره مثل بحور المبيت بل منها ما يطابقه تماما ، الا انه عند الالقاء ينشد بكيفية خاصة وهو يستعمل بالخصوص عند الطائفة العيسوية وتبلغ بحوره خمسة وعشرين بحرا وهو من الانواع الحديثة واشهر من نظم فيه الحاج ادريس الحنش رحمه الله .

وينبغى الان بعد ان شرحنا الناحية العروضية التى لها اتصال بالناحية الموسيقية ان نلقى نظرة على المواضيع التى يطرقها شعراء الملحون ، ويمكن

ان نقول من اول وهلة ان سائر النواحي التي نعتادها في الشعر العربي الفصيح نجد لها مقابلا في الملحون ، فقد نظموا في الشعر الغنائي بسائر انواعه من وصف للطبيعة في قصائد تسمى الربيعيات او تحمل اسماء مختلفة كالعرصة وكالرياض وكالصبوحي وكالديجور اي الليل وكالفجر وكالذهبية اي غروب الشمس ونحو ذلك ، ونظموا في وصف مجالس الانس والمرح مع التعرض لذكر محاسن الفاتنات في قصائد تحمل مثل هذه الاسماء النزاهة والزهو وشعبانة والغزال والمزيان وجمهور البنات والفصادة والحجام وتسمى بهذين الاسمين الاخيرين القصائد التي يكون موضوعها وصف الحفلات التي كانت تقام بمناسبة الفصد . وكثير من قصائد هذا النوع التي موضوعها وصف الجمال تعرف باسم من اسماء النساء كزينب او فاطمة حتى انك لاتكاد تجد اسم امرأة لا توجد قصيدة او عدة قصائد منظومة فيه . على ان عددا كبيرا من القصائد التي تعرف باسم امرأة هي من باب النوع الغرامي الذي يعبر فيه الشاعر عن عواطف صادقة ولا يكون وصف الجمال الا عرضا وليس هو المقصود بالذات ، والقصائد الغرامية تحمل اسماء كثيرة مثل المحبوب والمعشوق والجار والمرسول والجافي والهاجر واللايم والمرسم اي الحي او المكان الذي يسكنه المحبوب والشمعة حيث يشبه احتراقها وذوبانها وصفرتها بصفات العاشق الولهان الذي لا تنقطع دموعه ويحترق فؤاده وتذبل سحنته ، وقد انفرد كثير من الشعراء باسماء خاصة للقصائد التي عبروا فيها عن هيامهم بمحبوبتهم مما لا يمكن استيعابه .

ونظم شعراء الملحون الخمريات والقصائد في ذلك تسمى الدالية والكاس والخمرية والساقي والساحي والخمارة ، وقد برع في هذا النوع الادبي جل كبار الشعراء كالشيخ الجلالي والسي التهامي المدغري وسيدي قدور العلمي والكندوز والحاج ادريس الحنش وغيرهم واكثر الشعراء ينظمون في هذا الموضوع لاظهار براعتهم حتى انني احصيت نحو الستين ساقيا لثلاثة وثلاثين من الشعراء .

ونظم شعراء الملحون في المواضيع الدينية واكثروا من القصائد المسماة تصليات والقصائد في مدح الاولياء والصالحين كالادريسيات والعيسويات والجلانيات والتجانيات وسبعة رجال وجمهور الاولياء والحسن والحسين ولالة فاطمة الزهراء وغيرها والقصائد التي يطلق عليها لفظ التوسل والاغاثة والخلوق اي مولد النبي عليه السلام والوفاة والمعراج ومكة وطيبة، ويوجد الجيد الكثير في هذا الانتاج الضخم .

ونظموا فى الحكم وكثير من القصائد فى هذا الموضوع تسمى الوصاية والتوبة والقلب والموعظة والنفسية والطبايع ومنها مايسمى بحرف القافية كالتائية لسيدي قدور العلمى وغيرها كثير .

ونظموا فى المدح الا ان انتاجهم فيه لايقبل ولا يحفظ وحيث ان هذه الاداب شفاهية بمعنى انها لا تحفظ فى الغالب الا فى ذاكرة الرواة فان اكثر مانظم فى هذا الباب قد ضاع ، وهذا مايدلنا على ان الشعب يفهم معنى الشعر الحقيقى فهولا يرى فائدة فى شعر لم يقل عن سجية واخلاص والشاعر المداح يحتقر عندهم ولا يحفظ شعره حتى فى غير المدح ، نعم اذا كان المدح مقترنا بعاطفة دينية او وطنية فانه يقع عليه الاقبال ويحفظ .

اما الهجاء فقد برعوا فيه وتفوقوا ويسمونه الشحط وهو الدق عند اهل مراكش واذا كان شعر المدح لم يحفظ لان فائدته مقصورة على المادح والممدوح فان الهجاء لهم به ولوع ويرون فيه الشعر الصادق فانه غالبا ما يصدر عن غضب وتاثر وذلك انه كثيرا ما تقوم نزاعات بين اشياخ الملحون حول قضايا ترجع لفنهم وتؤدى الى مساجلات ومناقضات مما يدفعهم الى الهجاء وقد حفظت قصائد كثيرة ممتازة فى هذا النوع الادبى وهى تحمل اسماء مختلفة منها الداعي اى الذى يدعى المعرفة والتفوق وهو دون ذلك ومنها المطموس ومنها ما يحمل اسم القافية كالضادية والواوية مثلا ومن اشهر القصائد الهجائية قصر العنان للشاوى وقد ابتكر الغرابلى وبريسول فى مساجلاتهما معانى جديدة مقتبسة من الحروب البرية والبحرية فسموا قصائدهم المهراز (المدفع الكبير) والقرصان أى السفينة الحربية التى كان القراصنة يغيرون بها على اعدائهم وسمى الغرابلى احدى قصائده بالغطاس قبل ان يخترع ويعرف .

وقد بلغ ولوعهم بالهجاء انه لاتخلو قصيدة الا فى ماقل باستثناء كلام السى التهامي المدغرى وسيدي قدور العلمى لايختمها صاحبها بهجاء خصومه ولو باشارة خفيفة فاذا اطال فذلك ما يسمى بالزرب ويعنون بذلك انهم يحيطون انتاجهم بزرب من الشوك فلا يستطيع احد من المعاندين الجاحدين الاقتراب منه ولا خرق ساحته ، كما قدمنا ، ورغم كل هذا فانهم لا يحبذون الهجاء الشخصى اى الذى لا يكون سببه خلافا فنيا او مساجلة وانما هجو ناتج عن عداوة مثلا ومثل هذه القصائد يطلقون عليها اسم فضيحة وهى لا تقبل ولا تحفظ ، ويعاملونها معاملتهم لقصائد المدح ويرون ان فائدتها شخصية ولا تعنى الا القائل ومن قيلت فيه .

وينظمون كذلك في الرثاء ويسمونه العزا أو العزو الا ان القصائد في هذا النوع بما انه لا يغنى بها فانها تضيع ولا تحفظ طبعا وانما نجد بعضها في الكنانيش القديمة مثل رثاء المنصور السعدي لسيدي عبد العزيز المغراوي .

وزيادة على هذه الانواع التي توجد في الادب العربي الفصيح فقد امتاز شعراء الملحون بطرق مواضيع اما لا توجد مطلقا في الشعر العربي القديم او الانتاج فيها كان ضئيلا وضعيفا .

من ذلك النوع المسرحي الذي مع الاسف لم يلهموا اخراجه في شكل تمثيلي حقيقي وانما بقي في طور الموسيقى المحض وان كنت ارى انهم اقتبسوا هذه المحاورات والمواقف المسرحية التي نجدها في القصائد التي نظمت في هذا النوع من الالعاب التي كانت تجري بفاس وبمراكش ايام عيد الاضحى وتسمى الفراجة حيث تعرض روايات هزلية يقوم بتمثيلها اشخاص معروفون باتقان أدوار خاصة .

وهذا النوع الادبي يسمى عندهم ترجمة والمواضيع التي يطرقونها متنوعة لكن اكثرها هو مايسمى الحراز ، حيث يصورون شخصا يحب امرأة ويحاول الاتصال بها فياتي في صور مختلفة ليحصل على ثقة بعلها الذي يمنعها ويحرزها ، لذلك يسمى الحراز فيصده ولا يترك له مجالا حتى يوفق الى المجيء في صورة ينخدع فيها فيتوصل العاشق الى مرغبه كما شرحناه من قبل .

ومنه ايضا القصائد التي تسمى الضيف وهي تصور محبوبا ياتي عند محبه متنكرا في صورة من الصور ويطلب منه ضيف الله ، وتقع بينهما محاورات ثم ينكشف له انه حبيبه جاء عنده في غفلة من الرقباء ومنها القصائد المسماة القاضي ، حيث يصور الشاعر انه يحاكم محبوبه عند القاضي ويقدم حجج محبته وغرامه حتى يقضي له الحاكم بانه محق في دعواه .

وتارة يكون موضوع القصائد في هذا النوع المسرحي مفاخرة ما بين اشخاص كالعربية والمدينية اى البدوية والحضرية او كالامة والحرة وكالعجوز والشابة ، وهكذا ، او بين اشياء كالازهار ونحوها والقصائد في هذا المعنى تدعى خصاما .

ومن المواضع الطريفة في الملحون الرحلات الخيالية وهم يصورون انهم يوجهون طائرا اما لزيارة مكة والمدينة شوقا الى تلك البقاع المقدسة ليصف المراحل التي يمر بها الى ان يصل الى الحجاز ، او يوجهونه الى

الحبيب او الى الاصدقاء فى بلد بعيد وفى كل هذه الاحوال توصف الطرق والمنازل التى يمر بها الطائر . والقصائد المنظومة فى هذا النوع تحمل عادة اسماء الورشان والحمام والمرجول والطلعة ونحوها .

ومما يمتاز به الملحون ايضا وهو شبيه بالرحلة من جهة وصف البلاد او أحياء مدينة من المدن ما يتخيلونه من ان المحبوبة تركت عند حبيبها حاجة كحلى او نحوه كتذكار ثم ضاعت له فاخذ يبحث عنها وتسمى عادة هذه القصائد باسم الشىء الضائع كالخلخال والدمليج اى السوار والدواح والمقياس وهو السوار كذلك والسالف ويعنون به ضفيرة من شعر المحبوبة .

ومن هذا النوع كذلك قصائد رمزية يشبهون فيها المحبوب النافر الهاجر بحيوان كان يالف المنزل ثم هرب وتلف فيقوم الشاعر بالبحث عنه كذلك ومثل هذه القصائد تسمى الطرشون وهو الباز الصغير والغزال والطير ونحو ذلك .

ولشعراء الملحون براعة فى الشعر الفكاهى والمواضيع التى يطرقونها فى هذا الباب كثيرة ومتنوعة وتحمل القصائد الهزلية عادة مثل هذه الاسماء الزردة والضمانة والفار والطجين وغير ذلك .

ويختص الشعر الملحون بنوع يسمى عندهم الجفريات وهو التنبوء بالحوادث المستقبلة والواقع انهم يتخذون هذا الاسلوب كمطية للنقد السياسى متخذين لهذه الغاية اشارات ورموزا يدركها المعاصرون ويفهمون مغزاها واكبر من برز فى هذا النوع الفقيه العميرى وكان ايام المولى عبد الرحمن ، وله عدة قصائد جفرية منها اللامية (وكثير من قصائد هذا النوع تحمل اسم القافية) وقد ورد في هذه اللامية هذا البيت :

ذاك الولد المهبول   أصله من اناضول   الفرخ يشبه اخواله

فلما ثار المولى عبد الحفيظ على اخيه المولى عبد العزيز اخذ الناس يقولون ان الفقيه العميرى عنى فى هذا البيت المولى عبد العزيز لان امه شركسية جاءت من بلاد الاناضول بتركيا .

ولما انهزمت فرنسا سنة 1940 فى الحرب الاخيرة اخذ الناس ينتسخون قصيدة جفرية لاحد شعراء مراكش يدعى الموقت كان يعيش فى اوائل هذا القرن وتسمى الزازية (اى قافيتها زاى) تعرض فيها للانتقاص من الفرنسيين والتنبؤ بهزيمتهم .

وتوجد كذلك قصائد سياسية نظمت بمناسبات وطنية كالقصائد المسماة التطوانيات حول حرب المغرب مع اسبانيا سنة 1859 ـ 1860 وقصائد حول فتح بونابارت لمصر وحول دخول الفرنسيين لوجدة وقد نظم الشعراء كذلك في مساندة الحركة الاستقلالية ايام النضال واشهر من برع في هذا الباب الشاعر الملهم الشيخ العيسوى الفلوس من اهل فاس رحمه الله وكل الشعراء المعاصرين نظموا في التنويه بجهاد محمد الخامس قدس الله روحه .

وينظمون في الالغاز ويسمون عادة هذا النوع السولان او السوال ، وهذا النوع مطية لاظهار البراعة في الاطلاع على معلومات عن اشياء غريبة يستمدونها من اتصالاتهم وملازمتهم لبعض العلماء ومن مطالعة كتب العجائب والغرائب .

ولهم قصائد تعليمية ينظمون فيها التوحيد والسيرة النبوية والمنازل الفلكية ومثل هذه القصائد الاخيرة تسمى ترحيل الشمس ، وممن نظم في ذلك المغراوى من القدماء والحاج احمد الغرابلى من المحدثين .

ومن المواضيع التي نظم فيها بعضهم ما يسمونه بالقصائد الحسبية تسمية للشيء بنقيضه وهي من باب رجوع الشيخ الى صباه ونحوها ، وهي من الشعر الذي لاينشد الا في بعض مجالس اللهو او بين جماعة من الناس ارتفعت من بينهم كل كلفة .

وامتاز كذلك شعراء الملحون بالنظم في موضوع لانعرفه في الادب العربي القديم وهو موجود في الادب الغربي وهو مسخ القصائد (ويسمى بالفرنسية مثلا Parodie) وذلك انهم يعمدون الى قصائد جدية معروفة يقلبون موضوعها الى الهزل والسخرية وكثيرا ما يحولونها الى النوع الحسبي المشار اليه آنفا . وممن اشتهر في هذا النوع من شعراء الملحون احد شعراء مراكش كان يدعى احمر الراس من رجال اوائل هذا القرن العشرين ومنهم الفقيه الزراق من اهل فاس وكان يقطن مراكش .

واهم نوع برز فيه شعراء الملحون (الابوبية) ويسمونه الغزوات . والحقيقة ان القصائد التي موضوعها حروب المسلمين مع الكفار ليست هي كل الشعر الملحمي في الملحون فهناك كذلك قصص الابوبية تتعلق بسير الانبياء والاولياء تتخللها كثير من الخوارق ومن اشهر شعراء الغزوات والقصص الملحمية سيدى عبد العزيز المغراوى وله في ذلك الموؤودة وجرير ابن جرير والشدادية والشباب الغساني وغيرها ، ومنهم سيدى مبارك ابو الاطباق وهو من ناحية وهران الا ان شعره محفوظ ومتداول كثيرا بالمغرب

وقد كان له اثر على شعراء الملاحم عندنا وهو في هذا مثل الشاعر التلمساني محمد بن يخلف ، ومن آثار سيدي مبارك ابو الاطباق غزوة الصيد ابن سلامة المخزومي والاسرائلية والراحة ، وتسمى كذلك غزوة ابيض ابن صلصال ، ويقصد بالراحة هنا شفاء سيدنا علي كرم الله وجهه من مرض . وله فتوح افريقية وغير هذا من القصائد الرائعة في هذا الموضوع الخيالي . اما سيدي محمد بن يخلف فمن قصائده الرهيب (الراهب) والضيافة ويعني بها ضيافة رب العزة لعباده وقصة الشاب مع ابي جهل و ابو يزيد البسطامي مع رهبان الدير وغيرها كثير ، وقد كان يعيش في اواخر القرن الحادي عشر الهجري واوائل الثاني عشر وهو يؤرخ قصائده وما وقفت عليه من كلامه مؤرخ مابين 1095 و 1120 هـ .

وقد كاد ينعدم هذا النوع اذلم ينبغ فيه بعد هؤلاء الشعراء الى اوائل هذا القرن احد الا ماكان من قصيدة او قصيدتين تعرف لبعض الشعراء وكانهم كانوا يتعمدون النظم في الغزوات والقصص الملحمية ليبرهنوا على براعتهم ومقدرتهم، فمن ذلك النباش للشيخ الجلالي والصالحية لسيد عبد السلام الزفري والعيواجية للسي الكبير بن عطية والكهفية للشيخ غانم القصري والنمرودية للغرابلي، وفي اوائل هذا القرن احتى هذا النوع الشيخ المكي بن القرشي فنظم فيه الشيء الكثيركالعاشقة مولاة التاج وجمجمة والبغدادية واليوسفية والشدادية والشريفة وسيدوك النصراني والقاضي .

وقد كان رجال الاستعمار ايام الحماية يمنعون انشاد هذه القصائد في الاسواق وكان المراقبون اذا تقدم لهم احد المداحين يطلب الاذن في السفر للتجول في المدن والقبائل قصد ترويج بضاعته اول ما يسالونه عنه هل يحفظ الغزوات فان اجاب بالنفي اعطى الاذن والامتنع لانهم كانوا يخشون بعث العاطفة الوطنية والدينية في النواحي التي كانت لا تزال بعيدة عن اثر الدعوة الاستقلالية .

والان ارجع بكم الى ذكر تاريخ الملحون بعد ان عرفتم انواعه واساليبه ومواضيعه ومن البديهي اننا لا نستطيع في هذا الوقت القصير تفصيل هذا التاريخ الحافل اذ يمتد من القرن العاشر الى وقتنا ، وقد جمعت من أسماء الشعراء من المشاهير ومن غيرهم نحو الاربعمائة ، فنقتصر على ذكر المراحل المهمة في تطور هذا الشعر وذكر اشهر مشاهير شعراء الملحون .

وقد نبغ بعد ابن عبود سيدي عبد العزيز المغراوي وهو من قطر تافلالت، ومن الغريب ان اكثر شعراء الملحون الذين نبغوا في المغرب سواء منهم

اهل فاس او اهل مراكش اصلهم من هذا القطر الطيب المبارك ، وكان سيدي عبد العزيز ايام المنصور السعدي وكان يقيم بفاس وكان ينظم في جل الاغراض وخصوصا في نوع الغزوات وفي الشعر الغنائي كذلك واكثر شعره محفوظ ومتداول الى وقتنا ويبلغ عدد القصائد التي بقيت محفوظة نحو الخمسين قصيدة ، ومن اشهرها برق النو وزواج مولاتنا فاطمة ، والحمام (وجهه الى قبر النبي عليه الصلاة والسلام) والخلوق مولد النبي عليه السلام والربيعيات في وصف الطبيعة ايام الربيع والمعراج والعزو (وهو رثاء المنصور السعدي) والقاضي والشمعة وهو القيامة والوصاية والوفاة (اى وفاة النبي صلى الله عليه وسلم) وفي المثل كل طويل خاوى غير النخلة والمغراوى .

وجاء بعده المصمودي وهو ايضا من تافلالت وادخل تجديدا على عروض الملحون اذ اخترع أوزانا جديدة وكان ايام زيدان السعدي ورغم اسره وشهرته لم يبلغنا من شعره الا القليل مثل الخلخال والزكودة وهو اسم امرأة كان يعشقها ، والمرسم والصيام وفاطمة التي حربتها : قلبي الى كواته ياخوى نار فاطمة خد الوردة صابغ الشفر ولا ياقوتة في قبة السلطان ،

وله الساقي ويامنة التي حربتها :

قولوا ليامنة تهليل العثماني   دير للمغروم فيك شرع الله ،

ويقال المغراوى شجرة الكلام والمصمودي فرع من فروعها .

ومن الشعراء الذين نبغوا في هذه الحقبة وبعدها بقليل ابو الاطباق وهو مشهور بقصائده الابوبية كما قدمنا وسيدي عبد الله بن حسين وسيدي الاخضر .

ويظهر ان الملحون دخل بعد هذا العصر الاول الى ايام سيدي محمد ابن عبد الله في ازمة تمواذ لم يحفظ لنا طيلة هذه المدة سوى اسماء بضعة شعراء من بينهم احد شعراء تلمسان كان في بلاط المولى اسماعيل وكان من فحول الشعراء ويسمي سيدي سعيد ابو عثمان المنداسي وهو صاحب القصيدة الشهيرة المسماة العقيقة وهي في السيرة النبوية ولها مقام كبير عند شعراء الملحون ، وقد نشرت بالجزائر مع ترجمة فرنسية كما عارضها احد شعراء فاس من المتاخرين وهو السي محمد ابو زيان رحمه الله وتسمي قصيدة تعضد العقيقية .

وظهرت بوادر نهضة الملحون بعد هذا السبات الطويل ايام سيدى محمد ابن عبد الله وكان هو كذلك من شعراء الملحون وكان يشجع هذا الفن ومن الشعراء الذين نبغوا في وقته وبعده الى ايام الشاعر ابن سليمان ابو خريص وهو كذلك من اصل فلالي وهو عبد القادر بن عبد الرحمن بن عبد القادر جده وسميه قاضي الحضرتين الادريسية والمرينية المتوفى سنة 1188 وشاعر الملحون وصلنا احد دواوينه في المديح والوعظ والوصايا والحكم كما يحفظ الاشياخ بعض قصائده في المواضيع الغنائية كالجافي والجار والشمعة وغيرها.

ومنهم شيخ هذه الحلبة الحاج محمد النجار واصله من مراكش واستوطن مدينة فاس فاقبل عليه اهلها اقبالا كبيرا وانتخبوه امير الشعراء ويسمى عندهم شيخ الاشياخ وشعره محفوظ متداول كثيرة في المديح وله كذلك قصائد جميلة في العشاقي اى الشعر الغنائي منها الكاوى والحجامة والمولاة والناعورة.

وفي هذا العصر نبغ اكبر شعراء الملحون في نظري وهو الشيخ الجلالي مثيرد رحمه الله وشعره يمتاز بالعذوبة والسمو في التفكير واستعمال الميازين المطربة، وقد اخترع اكثرها، ولا استطيع ان اوفيه حقه في هذا الحديث العام، وينبغي ان يدرس في محاضرة خاصة ولكن نظرا لاثره العظيم في تقدم شعر الملحون لابد ان نقف عنده بعض الشيء.

وكان الشيخ الجلالي رجلا شعبيا وتبريزه في الناحية الشعرية بمجرد مواهبه الطبيعية يجعل له مكانة خاصة اذ لم يتأثر مطلقا بالاداب المكتوبة فبقى على سليقته فكان انتاجه انتاجا الهاميا محضا، واصله كذلك من تافلالت من قصور الغرفة من امسيفي وهي موطن الشاعر الكبير ابن على من اهل فاس وكان الشيخ الجلالي يبيع الخضرة بمراكش وينسب له العامة حكايات خارقة لان نبوغه ادهشهم فاخذوا يبحثون عن اسبابه وابت مخيلتهم الا ان تجعل للجن يدا في ذلك فقالوا انه كان يذهب كل عشية منفردا لصهريج ابن الحداد خارج باب الخميس من محروسة مراكش وهو محل مخيف فيه مياه راكدة تسكنها الضفادع وكان الشيخ الجلالي يجلس هناك للتفكير والاعتبار فخرجت له ذات يوم ضفدعة وكلمته وقالت له يا شيخ انني اريد ان تحضر عرسي وتغني لنا فقبل وجاء في يوم موعود فاغمض عينيه ووجد نفسه في عالم آخر فاحضروا له آلة تقول هذه الخرافة الشعبية لم يكن له عهد بها فغنى لهم وجازوه بما يستحق ثم ارجعوه لصهريج ابن الحداد فوجد في يده تعريجة فرجع الى المدينة وحكى للناس ما وقع

لـه ومـن ذلك الحين صار ياتي المعجز من القول وتظن العامـة انـه لـم تكـن التعريجة معروفـة قبل هـذا وهي من اختراع الجنـة .

هـذا وغـيره من الحكايات حول تفوق الشيخ الجلالي يدل على ماكـان لقصائـده من الاثـر في النفوس وقد كان كـل الشعراء الـذين اتـوا بعـده يجلونه . ويحكى ان السي التهامي المدغري قال : لو ادركته لكنت اسير وراءه واحمـل لـه نعلـه وكان لا يسميه الا سيـدى الجـلالي ، وكـان السلطـان مولاى عبد الحفيظ يقول عنه عند ما يذكر في مجلسه بلقبه مشرد ـ وقد كان اطلق عليـه في صغره لحقـارة شأنـه خصوصا وانـه كـان ضعيفا نحيلا ـ : بـل هو مشـرد معمـر بـالشـريد .

وكل ماوصلنا من شعـره جيد وهو ينظم في كل ابـواب الشعـر ومـن احسن قصائده القصادة في وصف الحفلـة التي كانت تقيمها النساء بمناسبة ما يسمى اخراج الـدم كمـا قـدمنـا ، ومنهـا البحر سمعتموه منـذ هنيهـة ومنهـا الـدربلـة وتسمى المرسـول كـذلك او المرشوش وهي قصيـدة مخمسة حـربتهـا :

بكتابى سر سر يـامـرسول لعـراسم البهـا المكمول زهـو العقـول

راحـة روحـي لالـة بـاتـول تـاج الـريـام

ومنها فـاطمـة (شرع الله معك) وهي على صـورة الغـزل ولكنهـا فـى الحقيقـة مناظرة بينـه وبـين نفسـه ومنهـا الضيف والـزضمـة وصيـاد الغـزلان والـداوى و الـربيعيـة وتسمى سعـد السعـود وخـال وشامـة والجـار و الليـل راح وشعبـانـة والعـاشـق والمعشـوق والفجـر والساقى والشمعـة والهيفـات .

وجعل شعره في العشاقي ولكنه نظـم كذلك في القصص الايبوبيـة مـن ذلك قصيدة النبـاش وفي القصائد الروائية مثل الحراز والعربية وفى المواضيع الهزلية مثل الزردة والضمانة وفى المـدح له حب حبيب الـرحمن وله قصيدة بديعة تسمى الورشان وهو طائر وجهه ليبلغ تحياته لشعراء فاس واخرجه من مراكش وسار بـه وهو يذكر المـراحل الى ان وصـل مدينة فاس ولـه ابيـات رائعـة في وصف حضارتهـا وكـان ينظـم كـذلك السراريب .

وكان لايطيـل فى الغـالب قصائده فقيـل لـه فى ذلك فقـال : حتى اذا لـم تكـن جيـدة اولا يستحسنها السامعون لا يملـونهـا ، والواقـع ان الامـر

بالعكس حتى ان من عادة الاشياخ اذا راوا لسبب من الاسباب ان الاقبال عليهم ليس بتام يغنون قصيدة للشيخ الجلالي فيتنبه الحاضرون ويولونهم اهتمامهم حتى صار يقال لكلامه الشعالة .

هذا هو الشاعر الذى جدد هذا الفن ونسج على منواله كل من جاء بعده حتى قال السيد التهامي المدغرى : ان الشيخ الجلالي هو المعلم الذى لابد لكل واحد ان يمر على عتبته اذا اراد ان يلج عالم الابداع ، وقد توفي رحمه الله عن سن عالية فى اواسط سلطنة مولاى عبد الرحمن حوالى سنة 1840 ودفن بمقبرة سيدى علي ابى القاسم بجوار مسجد الكتبية تحت مناره .

ومن اكابر الشعراء ايام سيدى محمد بن عبد الله ومولاى سليمان الشاعر ابن علي الشريف ولد ارزين من اهل فاس ، وقد تقدم ان اصله كذلك من تافلالت وهو من الشعراء الفحول وشعره محفوظ متداول وهو مؤلف قصيدة طويلة سماها الذرة ويقول فيها ان الله تبارك وتعالى خلق كل شيء من الاكوان العلوية والفلسفية من الذرة فقال :

وفرد من الذرة ماشاء رب الارباب

ويقول فى القسم السادس :

انشا من ذرته البيضا كل الاشيات
وعليها كان من قبل الاينشى الكون
كلمها ذات يوم مولانا وخشات
ذابت وولات ماسابق فى المكنون
وعليها سلط الرياح من الجهات
تسخير لامره بين الكاف والنون
احدث ماشاء وكيف اراد يكون يكون

ومن قصائده المشهورة جمهور البنات وحجوبة والحراز والخليلة والذيب والطرشون والمصرية فى حملة بونا برت على مصر والفار والقرصان والسالف وغير ذلك من الاوضاع الطريفة ، توفى رحمه الله سنة 1237 (1822) وقد تجاوز الثمانين ، وكان يقال له المعلم وفاكهة الاشياخ .

ومنهم ابن سليمان من اهل فاس وهو من اكابر شعراء الملحون وكلامه كذلك محفوظ متداول وكان معاصرا لابن على الا انه كان اصغر منه وكانت

بينهما منافسة كبيرة وهجاء اذ كان في الاول تلميذا له كما كان ابن على تلميذا للنجار ، ولم يعش ابن سليمان طويلا اذ يقال انه توفي وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ولو طال به الزمان لفاق كل من سبقه ومن أشهر قصائده الرعد والباقي والتوبة وقد سمعتموها والجافي والحجام والزين الفاسي ويقال انها لابن سليمان آخر من شعراء البادية وله الطبيب والطير والمقياس وهو السوار وعطوش والغزال والوردة والياقوتة وغير ذلك من القصائد البديعة .

ومن شعراء هذه الحقبة البغدادي ، وقد اشتهر بالخصوص بقصيدة الحراز التي حربتها :

مالحراز غزالي مايتيق بي هيهات غير حاضي الاوقات
في ثيابه مسلم وفعايله رومية

ومن الناس من يقولون ان شعراء الملحون يقلد بعضم بعضا فنرى لكثيرين منهم قصائد تسمى مثلا الحراز او الذهبية او الساقي الخ ... والواقع ان هذه ظاهرة في كل آداب الامم الحية خصوصا في الروايات التمثيلية ، فهناك مواضيع اتباعية (كلاسيكية) يريد كل واحد ان يطرقها بكيفيته الخاصة واسلوبه الشخصي ، واما وصف الطبيعة فليس وقفا على احد ولكل ان يصف غروب الشمس كما يظهر له .

اما حراز البغدادي فقد نال اقبالا عظيما حتى نظم الحاج احمد الغرابلي «حراز امينة ابودلال» فحظي كذلك بنفس القبول وقد احصيت نحو الاربعين حرازا ، وكان مولاي على البغدادي من سكان فشتالة وكلامه منتشر عند اهل البادية ويقال كانت له سجية حضرية وسجية بدوية ، ومن قصائده «جمهور الاولياء» «وحادة» «والحجام» «والقاضي» .

ومنهم الفقيه العميري وكان يسكن بمكناس واشتهر بقصائده الجفرية وهي كما ذكرناه سابقا قصائد سياسية يتكلم فيها على احوال الزمان ويذكر فيها على سبيل التنبؤ مايظن انه سيقع ، وكان رجلا ورعا محترما تولى خطة العدالة بصفرو وهو من اكابر الشعراء يمتاز كلامه بالحكم وهو يضمن شعره الامثال ، وكان مولعا بقافية النون حتى عدت له ثلاث عشرة قصيدة نونية ومن كلامه في الجفريات «اللامية» «والقصرية» «والروقية» وله «الربيعية» «والادريسية» «والبحر العجاج» «واللطيف» ويسمى تسبيح البخوش وله قصيدة في مدح مولاي عبد الرحمن .

ومنهم الحبابي واصله من تافلالت واشتهر بقصيدتين «مباركة و خناثة» وكلامه محفوظ في تافلالت .

وكان اشهر الشعراء مابين ايام مولاى سليمان والنهضة الثانية التى وقعت ايام سيدى محمد بن عبد الرحمن شاعر مكناس الولى الصالح سيدى قدور العلمي ، وهو كذلك من فحول هذا الشان وشعره في التغزل سارت بذكره الركبان وهو محفوظ منتشر بالمغرب وبالقطر الجزائرى الشقيق . وأشهر قصائده «التائية» في الحكم «والتوسل» و «حجوبة» «و الدار» «ودامي شرادة» وتنسب له قصيدة تسمى «ذابل الاعيان» ولكن يقال انها لاحد تلميذيه ، اما الدقيوق او الواسترى وله «طالت بسيدى هذا الغيبة» «وطاموا يابهيج الخدادة» «والمحبوب» «والمزيان» «والفرج» «وقامة المعلم» «والساقي» و «ورقة مولى الحب» ، وكان ينظم السراريب كذلك ، وكان متشائما وجل قصائده تنم عن هذا الاتجاه ، فقد كان لا يعتقد الخير مطلقا في البشر ، ومع ذلك فان له قصائد حلوة لاتجعل الانسان يفكر في شؤم الحياة بل تدعو الى الانشراح وله ديوان كبير توجد منه نسخ كثيرة وهو من الشعراء القليلين الذين جمع كلامهم على حدة كالشيخ الجلالى والسيد التهامى المدغرى والحاج ادريس الحنش . وقد عاش طويلا وعمر الى ان بلغ مائة واثنتي عشرة سنة حيث ولد سنة 1154 وتوفى رحمه الله سنة 1266 وقبره مزارة مشهورة مقصودة بمكناس .

وقد بلغ الملحون مقامه الاعلى ايام سيدى محمد بن عبد الرحمن وبفضل تشجيعه لشعراء الملحون وكان هو يقرض شعرا جيدا اختلط مع الاسف بكلام رفيقه وجليسه السي التهامى المدغرى ولكن وصلتنا قصائد يمكن الجزم بانها له وهى تدل على عاطفة وطبع سليم ، وايام سيدى محمد نبغ عدد كبير من الشعراء بكل مدن المغرب خصوصا بمراكش وكذلك بفاس وبتافلالت وبسلا حتى صارت تسمى هذه الحقبة «وقت الصابة» و «الاشياخ» ولا نستطيع ان نستعرض كل الشعراء الذين عاشوا في هذه المدة وانما نسرد اسماء بعضهم سردا فمنهم الشيخ علال الكحيلى بمراكش وكان شيخ الاشياخ وشيخ الرماة ومنهم الهبطى والمكى بجيوات والكندوز ومريبق والفقيه القريعى وابيه الجيار ومولاى الطاهر قعيش والشاوى وغيرهم كثير لا يقلون عن هؤلاء اجادة وشهرة .

واشهر شعراء هذه الحقبة السى التهامى المدغرى ويعد عند كثير من رجال هذا الفن اكبر شاعر في الملحون خصوصا في النوع الغنائي واذا كنت اجعل الشيخ الجلالى متيرد في المكانة الاولى فليس ذلك الا لانه كانت

سجيته متنوعة ولانـه اتي باشياء لم يزد من جـاء بعده عليهـا شيئا فقلـدوه ، والسي التهامي برز في التقليد واتى بشيء كانـه جديد وكان هـو نفسه كمـا قدمنـا يعترف بالفضل للشيخ الجلالي ويرى انه من الضروري الاقتباس مـن طريقته والسير على منوالـه وولوج عالـم الابداع من عتبته .

وقد رزق السي التهامي المدغري اقبالا لم يعهـد قبلـه او بعـده حتى ان قصائده التي وصلتنا تفوق المائة والتي وصلنا خبرها ولـم نجد لها اثـرا نحو الخمسين وهذا لم يتفق لشاعـر غـيره وان كان هو وغيره قد نظموا اكثر مـن هـذا العدد بكثير ولكن كل ذلك ضاع لكونه ينقل اكثر ما ينقل بواسطة الحفظ والشعراء الذين بقي من آثارهم الشيء الكثـير هـم الذين جمع كلامهم على حدة.

ولا استطيع ان اسرد لكـم اسماء قصائـد السي التهامي ولـو الممتازة منها لانهـا كثيرة ويكـاد لا ينظم في غـير العشاقي وقـد كـان عالمـا اديبـا نظـم الشعـر الفصيح كذلك . وكـان لثقافته العربية اثـر طيب على انتاجه فـي الملحون ، وكـانت قافية الحاء احب شيء اليه ، فكان يقول «لاننا اذا ذقنا شيئـا لـذيـذا قلنا اح واذا تألمنـا قلنا اح» .

وتوفي السي التهامي المدغري رحمه الله سنة 1273 (1856) بفـاس وقبـره معروف ، عليـه رخـامة بضريح سيـدي ابـي نافـع ، وقـد تـرجمت الـى الفرنسية كثيرا من قصائده ونشرتـه في مجـلات مختلفـة .

وجاءت فئة اخرى من الشعـراء في اواخـر ايام سيدي محمد وايام مولاي الحسن كما ان ايـام مولاي عبد الحفيظ شاهدت نهضة اخرى للملحون بفضل تشجيعه لـه وكان هو ايضا من الشعـراء في الملحون وله ديوان مطبوع بفاس على الحجـر وان كانت سجيته في شعره متأثـرة بالتحسينات البديعية العربية بصورة افسدت البساطـة التي يمتاز بها الملحون ولقـد عمد بعض الشعـراء مثل السي التهامي الى هذه المحسنات ولكـن ببراعة لا يظهر معها اثـر التكلف واشهـر شعـراء هـذه الحقبة الحاج ادريس الحنش رحمه الله وشعـره مدون محفوظ وهو متنوع وشعره الغنائي من الكلام الرفيع الجيد وشعـره في المديح ممتاز وقـد اشتهر بنظـم الذكـرات كما قدمنـا .

والحاج احمد الغرابلي من اهل فاس وهو من اكابر هذا العصر وقـد نال كلامه كذلك اقبالا وانتشارا ، ويحفظـه الاشياخ ويضيـق مـع الاسف الـوقت للتحدث عن كل هـؤلاء الشعراء وعـن مميزاتهم واخبارهم وذكـر انتاجاتهـم

ومنهم بريسول وكانت بينه وبين الغرابلي منافسة والسي المدني التركماني من اهل مراكش وكانت بينه وبين الغرابلي مساجلات شهيرة والسي احمد ابن رقية من اهل ازمور والهادي بناني وولد احجام بمراكش وآخر هذه الحلبة ممن ادركه جل الشعراء المتاخرين سيدي هاشم السعداني والحاج محمد ابن علي الدمناتي المسفيوي نزيل سلا ودفين شالة رحمه الله والغالي الدمناتي رحمه الله والشاعر الوطني المأسوف عليه الشيخ الفلوس رحمه الله ، وان كل واحد من هؤلاء الشعراء الذين ذكرت اسماءهم وكثيرا ممن لم اذكر حتى اسماءهم يستحقون دراسات خاصة وجمعا لكلامهم خصوصا المتاخرين منهم حيث يرجى العثور عليه وكل هذا الانتاج الادبي يجب العناية به ونشره وترجمته الى اللغات الاجنبية لانه يعطي احسن صورة عما بلغت اليه مدارك العامة في مختلف عصور تاريخنا من القرن العاشر الى الآن . وبالله التوفيق والسلام عليكم ورحمة الله .

محمد بن تاويت

من زوايا التاريخ المغربي

كانت سياسة الاتراك ـ بالجزائر ـ تقوم على كثير من الاستفزاز ، فى بعض الاحيان ، والتظاهر بالمودة فى احيان اخرى ولكنها فى هذه وتلك ، كانت سياسة انتهازية خبيثة ، تقوم على التضريب السافر والمقنع ، ولا تتأخر فى نصرة اى جانب ان لاحت لها فى تلك النصرة مصالح تتحقق بها اطماعها ، اوتوهن على الاقل من قوى من ترهب جانبه ، او تعتبره يناى عن الخضوع لسلطانها .

ووفقا لهذه السياسة رأيناهم ياوون ابا حسون الوطاسى اليهم ، ثم يمدونه بالسلاح والرجال ، لمحاربة محمد الشيخ السعدى (1) فاذا ما استولى هذا على محلة الوطاسى الذى قتله ، بعد ما استرجع فاسا منه ، هب اولئك الاتراك لتهنئته ، ورضوا بان يتحول اولئك الذين كانوا منهم فى جيش ابى حسون ، الى جيش محمد الشيخ الذى سماهم او احتفظ باسمهم «بنى شارى» (2)

لكن هذا العسكر الجديد ، كان الداء الدفين فى جسم الدولة ، فعلى يديه كان اغتيال محمد الشيخ ، رحمه الله (3)

وما جلس على العرش عبد الله الغالب ، حتى عادت أصابع هذه السياسة تلعب بخيوطها ، واخيرا نجدهم ياوون اخويه ، عبد الملك وعبد المومن ، وما توفى الغالب ، وجلس على العرش ابنه محمد ، حتى سرحوا اليه عمه ، واذا بعبد الملك ينتصر بجيوشهم على ابن اخيه

وكانت اسبانيا والبرتغال ، ترقبان هذه الحالة بعين من القلق ،وتحاولان بكل جهد ، ان تحولادون اية علاقة او تحالف مع هؤلاء الاتراك ، الذين كانوا خطرا عليهما فى البحار بالخصوص ، الا ان اسبانيا وعلى رأسها فليبى الثانى

كانت من اجل ذلك تلعب ادوارا دبلوماسية هامة ، فتتقرب الى هؤلاء السعديين ، الذين ادركوا غايتها ، خصوصا منهم عبد الله الغالب ، وعبد المالك واحمد المنصور

اما البرتغال فلم تكن تحسن هذه الادوار الدبلوماسية المتزنة في غالب اطوارها ، وانما كانت تستولى عليها ذكريات الهزائم التى منيت بها من قبل السعديين ، خصوصا منهم محمد الشيخ ، فتتخبط فى علاقاتها مع هؤلاء السعديين ، واخيرا يتورط ملكها الشاب النزق دون سيبستيان ، فيخوض تلك المعركة ، التى قضت عليه وعلى عظمة دولته نهائيا والى الابد (4)

وعلى حين كان موقف الاسبان والبرتغال من تركيا والمغرب ، كما رأينا ، كان موقف انجلترا ، وعلى رأسها اليزابث ، يختلف بعض الشيء عنهما ، فان اليزابث بالخصوص ، كانت تجد فى الصداقة العثمانية السعدية ، شيئا من الضمانات لحريتها التجارية التى كانت تتعرض لاخطار البرتغال ، وكانت اساطيلها تلاقى عنتا من الاساطيل الاسبانية كذلك ، الى جانب تلك الخصومة المذهبية التى كانت تحاك حولها كثير من المؤمرات وتروج فيها كثير من المناورات .

ولهذا رأينا عبد المالك بمجرد ما اعتلى عرشه وتغلب على ابن اخيه يكتب **الى اليزابث هذه الرسالة :**

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

طابع

من عبد الله المعتصم بالله امير المؤمنين ابى مروان عبد الملك ابن امير المؤمنين ابى عبد الله محمد الشيخ الشريف الحسنى احسن الله اليه وابقى نعمه عليه الى السلطانة المعظمة الشهيرة الوجيهة المكرمة الاصيلة زبيلة بنت السلطان المعظم الاشهر الاصيل الاثير الوجيه الاجل الرك وصل الله عليك نعمه ووالى اليك فضله كتبناه اليك من حضرتنا العلية مراكش حرسها الله عن الخيرات التامة والنعم العامة والحمد لله كثيرا وموجبه أننا نعرفك ان الله تبارك وتعالى مكننى من ملك والدى مولاى السلطان رحمه الله واستوليت على جميع بلاده واجتمعت قلوب جميع اهل مملكتنا على محبتى وذلك فضل من الله على وقد كنت أوثر جانبك وأنا فى المشرق واعتقد محبتك والان والحمد لله لما وصلت بلادى واتصلت بملكى جعلت

تعريفك ومكاتبتك من أهم الأمور وأسبقها فلتتعرفي أنت على محبتك وكلما يعرض لك في بلادنا من الأغراض فانه مقضي على ما يوافق غرضكم ومرادكم الا ما منعتنا شريعتنا منه فانا نقف فيه على مقتضى نهيها ومع ذلك فجنابكم ملحوظ بواجبه من المحبة فلا تقطعوا عنا اخباركم واعراضكم وكتب في رجب الفرد عام 984 (موافق شتنبر أوكتوبر سنة 1576) .

لقد سرت اليزابث من هذه الرسالة ، التي ارسلت اثرها سفيرها ايدموند هرجان الى عبد الملك ، فاستقبل ذلك الاستقبال الحافل ، وكانت لسفارته نتائج طيبة كان من اهمها القرار الذي اصدره المولى عبد الملك في صالح التجار الانجليز واعلنه في رسالتين الى هؤلاء التجار ، احداهما بتاريخ 6 يليه سنة 1577 والأخرى بتاريخ 7 منه كما سيأتي .

وفيما يتصل بالاهتمام الذي كان عليه فليبي الثاني تجاه السياسة المغربية نرى أن نثبت هذه الوثيقة ، وهي عبارة عن تقرير كان قد **بعث به ماطيو فاسكيث** Mateo Vasquez (5) **الى فليبي الثاني كالآتي**

الاسكوريال El Escorial **في 4 يونيه 1577 .**

لقد نظر الدوق والماركيز El Duque y el Marqués (6) في امر البرتغال وعبد المالك ، وقد جرى حديث طويل بحيث ان هذه المذكرة ستطول كثيرا اذا ما هي تضمنت جميع ما دار من الحديث . وساذكر لكم فقط القرار الذي اتخذاه ، وهو انهما يعتبران من الصعب ابعاد ملك البرتغال عما هو مصمم عليه من الامر الذي سار فيه بعيدا وانفق فيه كثيرا ، ولو ان شهامته وعزمه يسندان جانبه . وسيكون من شان السعي لحمله على الابتعاد عن ذلك الامر ان يعتبره سبة في شخصه تنافي جميع الاعتبارات الدولية ، ودواعي الحكومة . ولم يكونا على اتفاق مع مساعي سونيغا Çuñiga (7) الا ان يكون هذا قد باشرها بعلم الملك ، وحتى لو باشرها بسر تام ، فان القيام بتلك المساعي سيستعرض تعاملا مع عدو الصديق . وقد ظهر كل هذا جليا ، اما اذا كان لجلالتكم نية في تاجيله فيمكن الاعتذار بالوقت ولو انهما كانا يشكان في ان يقع هذا التاجيل عنده موقع الرضا . ولن يؤدي ذلك الا لان يعمل في سنة اخرى مالم يعمل في هذه السنة ، مع تعويض الاضرار والمصاريف الراهنة ومكافاته عليها . وفي حالة ما اذا تعينت مواصلة الامر الذي تم الشروع فيه فان الدوق والماركيز سيجتمعان ويسجلان كل ما قد يعتبرانه مفيدا ومناسبا (8) .

اما رسالتا عبد الملك اللتان سبقت الاشارة اليهما ، فهما كما يلي :

الرسـالـة الاولى

لقد علمنا من جانبكم وبواسطة السيد يدموندوهوغان (9) Egmondo Hogan ان التجار الانجليز الذين يتاجرون بممالكنا قد كانوا يتعرضون لبعض الاهانات والاضرار من طرف اصحاب السكر سواء في اعطائه وفي تسلم ثمنه. وقد كان الضرر الكبير يلحق التجار المذكورين فتوسلتم الينا ان نتدخل في الامر حتى لايعود الانجليز المذكورون الى التعرض لاى صعوبة او عائق في معاملتهم التجارية . وعليه ، فبمقتضى هذه الرسالة ناذن ونرخص لكم معشر التجار الانجليز بممالكنا ، أن تعرضوا شكاويكم بنفس الصراحة والحرية والطريقة المتبعة في عهود اسلافنا ، ونامركم معشر اليهود الذين تبيعون انواع السكر المسحوق الى التجار المذكورين بان تواصلوا العمل معهم بنفس الاثمان القائمة المعهودة بلا زيادة ولا نقصان في اثمان انواع السكر الثلاثة كما كانوا يودونها في السنوات الماضية . كما نامر الانجليز المذكورين بان يزنوا مقادير السكر التي يبيعونها بميزان دار التعشير بمراكش ، والا يزنوا ذلك السكر الا بعد عرضه للشمس مدة عشرة ايام . واذا ما ظهر فوق في الميزان عند وزن القنطار باثنى عشر صوفا Arcaduces فاننا نرخص لكم معشر التجار بان تقيموا من جانبكم رجالا لهم علم بالموضوع واطلاع عليه لينظروا فيه وليقرروا ما يوجبه العدل والحق

وحرر بقصرنا بمراكش في سادس يوليوز 1577 .

امضاء الكاتب «فراى لويس» (الراعب)

(10) Fray Luis

الرسـالـة الثـانيـة

لقد علمنا من جانبكم وجانب السيد «دون ايدموند» Don Egmondo سفير ملكة انجلترا الذى تحدث معنا أن التجار الانجليز الذين يتعاملون ببضائعهم واملاكهم في ممالكنا يلقون مصاعب في معاملتهم من طرف اصحاب الموازين الذين لا يحضرون لديهم بالسكر في الوقت الموعود وقد طلب منا ان نتفضل باصدار الامر في هذا الشان . لذلك وعملا

بهذا القرار نامر الجميع سواء كانوا يهودا او اشخاصا آخرين من الذين تسلموا الثياب او المال من التجار الانجليز ثمنا للسكر بان يؤد والهم خلال السنوات الثلاث القادمة التى تبتدىء من يوم تاريخ هذه الرسالة جميع السكر المسحوق ، واذا لم يتوفر لديهم هذا السكر فعليهم ان يعيدوا اليهم جميع أموالهم ويتسلموا وصول الاداء المحررة بخط عدلين والمضاة من طرف الشيخ «ازداى» (11) Azday «ابراهيم» Abrahen بورطال Portal وداود بن ابراهيم Daud ben Brahen ولده ، اثباتا لتسلم التجار المذكورين اما لمالهم واما لسكرهم ، وهو كل ما نامركم لتنفيذه بدون اية مماطلة او عائق كما نبين ذلك اعلاه .

وحرر بقصرنا بمراكش يوم 7 يوليوز 1577 .
امضاء الكاتب «فراى لويس»

بعد هذه النتيجة التى احرز عليها السفير الانجليزى تكتب «اليزابث رسالة الى مولاى عبد المالك بما يلى :

(12) Oatlands اوتلاندس فى 2 شتنبر 1577

على الهامش الى ملك المغرب

من «اليزابيث» Elizabeth .

الى الامير عبد المالك القوى الرفيع الشأن ، امبراطور مراكش وملك فاس وسوس و ...

سلام عليكم .

اننا نشكركم كثيرا على الاستقبال المشرف والمعاملة الحسنة التى قابلتم بها خديمنا «ايدمند هوغان» Edmond Hogan وعلمنا بها من رسائله وتقريره وكذلك نشكركم على الحل الصائب الذى اعطيتموه لشؤون رعايانا التجار العاملين بمملكتكم ، وذلك حسب ما طلبنا منكم فى رسائلنا وبواسطة خديمنا المذكور ، اذ خولتموهم المتاجرة فى السكر محيطين عملهم بحسن النظام فيما يتعلق بكيفية تسلمهم للسكر ومزيلين الاضرار والمتاعب التى كانت تلحق بهم ، بالاضافة الى اصداركم الاوامر الى اليهود

أصحاب الشان باعادة الاموال التي اخذوها ثمنا للسكر ضمن اجل لا يتعدى ثلاثة اعوام ، اما نقدا واما سكرا . وقد فرحنا بعملكم هذا لا لكونه يعود بالنفع على رعايانا المذكورين فقط ، بل لدلالته على العطف الخاص الذي برهنتم على انكم تحيطوننا به والذي نقدره حق قدره الكبير ونتلقاه ببالغ المسرة ، وهو امر لن نفتأ نعترف به لكم ولرعاياكم عندما يعرض امر شبيه من جانبكم .

اما فيما يتعلق بما كتبتم حول قراركم بارسال خديم لكم الينا قبل مرور وقت طويل فاننا نعلمكم باننا قد استحسنا رايكم وسنكون مسرورين به ، كما نرجوكم لاسباب وجيهة ان تبعثوه بكيفية سرية حتى لا يعلم احد بمقدمه ، (13) مع وعدنا لكم بان ذلك لن يجعلنا نقصر ابدا في احاطته بكامل التشريف وحسن الاستقبال بقدر ما نستطيع ، لكونه رسولكم الذي نريد ان نكون عند رضاه .

ولا زائد على ماسبق ، راجين من المولى ان يحفظكم .

Otlandes.

«اليزابيت»
Elizabeth R.

وفيما قبل كنا قد اشرنا الى ان عبد المالك كان حريصا على هذه العلاقة الودية مع اسبانيا ايضا ، ونشرنا تلك الاتفاقية التي كانت عنوانا لهذه النوايا الطيبة ، كما نشرنا رسائل ايضا صدرت عنه في هذا الصدد

وهذه رسالة من الجانب الاخر ، تطلعنا على مدى التجاوب الديبلوماسي – على الاقل – بين الدولتين وهي :

رسالة «فرنسيسكو غاسبارو كورسو» Francisco Gasparo Corso (14)

الى فيليبي الثاني

بلنسية ، 22 اكتوبر 1577

صاحب الجلالة الملكية المسيحية

لقد مرت ايام عديدة دون ان اكتب الى جلالتكم ، وقد كان السبب راجعا الى انه لم يطرأ جديد ولم ار داعيا الى ذلك في حينه ، كما كان راجعا

ايضا الى انكم لم تامرونى بشىء فى خدمتكم الملكية . ويحضرنى الآن ان اعلمكم بامر : فربما سمعت جلالتكم بانه حدث فى هذه الايام ان جاء «حسن آغا» (I5) البندقى المرتد ملوك العلج (I6) Ochali باشا الى مملكة الجزائر العاصمة ، وهو صديق كبير لي كما هو صديق أخى «اندريا» Andrea . وقد كانت صداقتى له وثيقة جدا عندما توجهت الى الجزائر العاصمة بامر جلالتكم وفى خدمتكم ، وذلك فى الوقت الذى كان فيه «العلج» باشا بتلك البلاد ، وكان حسن اغا أمنية آنذاك . وكثيرا ما كنت اتذاكر فى بعض القضايا معه ومع الكرسيكى «مامي كايا» Mamy Caya (I7) فكنت اقول لهما انهما يرتكبان خطأ فاحشا باقتدائهما بطائفة محمد السوداء ، كما كنت اقول لهما اقوالا اخرى حتى اصل الى الغاية التي كنت اقصدها . وقد كان «حسن أغا» يجيبنى دائما بانه لا يومن بشىء تعتقده طائفة محمد ، بل كان على العكس نصرانيا اكثر مما كان مسلما ، وان له املا كبيرا فى العودة يوما ما الى بلاده ، وهو رجل مطلع يعرف الكتابة والتحدث بلغتنا . وهذه المعرفة هى اهم ما يتوسل به سواء لادراك الخطأ الكبير الذى هو واقع فيه او للتعامل معه بالرسائل ووسائل الاعلامات السرية . واذا ما رأت جلالتكم انه من خدمتها ان احاول التعامل مع «حسن أغا» المذكور فيما كنت اتعامل فيه مع سيده «العلج» فلجلالتكم ان ترسلوا الى رخصة بذلك حتى اتمكن من القيام به على احسن وجه أراه ملائما وسأزاول هذا العمل بمنتهى السر الممكن والحزم الكامل ، دون ان يكون لى فى ذلك غرض او مصلحة خاصة ، لانى فى الحقيقة لا ارجو فى هذه الدنيا الا خدمة الله وجلالتكم. واذا كان الرأى يقضي بمباشرة ذلك الامر فينبغى ان لا يعلم به احد فى هذا العالم باستثناء جلالتكم وانا ، لانى لا اريد ان يقع فى هذه القضية مثل ما وقع فى القضية السابقة مع «العلج» .

ان اخى «آندريا غاسبارو» قد ذهب كما علمت جلالتكم الى المغرب فى شهر أغسطس الماضي بقصد زيارة الصديق مولاى عبد الملك ، وحمل الهدية اليه . وقد اتفقنا عند ذهابه على ان يحرص فى وصوله الى المغرب غاية الحرص على ان يرسل مولاى عبد الملك من ياتى بزوجته وولده اللذين تركهما بالجزائر العاصمة ، ثم ان يجتهد فيما بعد لحمله على اخراج الاتراك المقيمين بمملكته . ثم ان يعمل ما وعدنا به اذا ما انعم الله عليه بولاية مملكة فاس و مراكش ، وهو ان يحالف جلالتكم محالفة فى البر والبحر فتهجمان معا على الجزائر لطرد الاتراك من تلك المملكة ، حتى اذا

ما تم طردهم اصبح مولاى عبد الملك سيدا على البر واصبحت جلالتكم سيدا على جميع الموانى وكافة القوات البحرية ، على شريطة ان يؤدى مولاى عبد الملك جميع المصاريف والنفقات التى تقع على جلالتكم من جراء المحافظة على تلك الحصون وحراستها . وهذا امر يفيد مولاى عبد الملك غاية الافادة اذا كان يريد ان يعيش فى امن وسلام بممالكه .

ولم اتوصل باية رسالة من اندريا المذكور ، باستثناء الكتاب الذي بعثه الي من ميناء العرائش ، يعلمني فيه بسلامة وصوله الى ذلك البر . واظن انى ساتوصل قريبا برسالة اخرى حيث سيطلعنى بها على جميع التفاصيل والجزئيات مما يقع هناك . وبمجرد ما أتسلمها ساكون مسرورا باشعار جلالتكم فى الحين واطلاعكم على جميع ما يعلمنى به . لان كاهية (17) «حسن أغا» كورسيكي مرتد ، وهو مسيطر عليه ويأمر فى جميع اموره ، كما انه صديق كبير لنا . ولذلك اعتبره وسيطا حسنا فى القضية اذا ما كان الامر يدعو الى مباشرة شيء .

ولما كنت اريد ان لا ازيد فى الازعاج فاننى انهى الكتاب مقبلا ارجل جلالتكم ومبتهلا الى الهى ومولاى ان يزيد فى تمجيد جلالتكم الملكية المسيحية ويرعاها ، وان يحفظ شخصكم وبيت جلالتكم أعواما عديدة ، وان يزيد فى دولكم وممالكم بقدر ما يرجو لكم خديمكم الوفى .

وحرر فى بلنسية يوم 22 اكتوبر سنة 1577
الخديم المخلص الودود لجلالتكم اذا ما تكرمت
الامضاء
فرنسيسكو غاسبارو كورسو

هذه وثيقة خطيرة تطلعنا على جوانب مما كان يحاك فى الخفاء بين السعديين عامة وملوك الاسبان كذلك

وفيما يتصل بالاخطار التى كانت تلوح للبرتغال ، اذا ما حصل تحالف بين الاتراك والسعديين ، فقد كتبت وثائق عديدة خصوصا منها ما كان متصلا بالحروب التى دارت بين المولى عبد الملك وابن اخيه محمد المتوكل، فكان المراسلون من مختلف الجنسات يوافون بها البلاط الاسبانى والبرتغالي، او يبعثونها الى رؤسائهم المباشرين ، من ذلك رسالة للمراسل الحربى الفرنسى كابريط يبعث بها الى فرنسيسكو دى ايبارى ، يعلم فيها ، حسب المعلومات

التي استقاهـا من اسيرين قـدما من تطـوان ـ ان مـولاى عبد المـالك كـان مـوجودا آنـذاك بمراكش ـ وهو يصف بغض المغاربة للاتراك ـ وان ـ مولاى محمد المتـوكل قـد وجه حملة نحـو تارودانت وهزم محلـة كانت تحت قيادة شقيق عبد المـالك الذى التجـا الى مراكش . ولقد احـرق معمل السكـر ـ وقـدمت اربـع قوارب مـن الجزائر العاصمة الى تطـوان حيث ظلت تنتظر وصول هـديـة وامـوال كان سيبعثها عبد المـالك الى القسطنطينية مقابل ان يبعث السلطان العثماني اسطولا الى المغرب . ولـم تغادر تلك القوارب شاطىء تطوان الا بعد شهرين ثم يقدم «كابريطى» معلومات حول الطريق التى تسلكـه القوارب المذكورة للتربص بها او اعتقالهـا .

وتقـع معـركـة وادى المخـازن .

وتنتهي بهزيمـة البرتغال ومصرع ملكهم دون سيبستيان ، واذا بالرسائل تـرسـل الى الملوك ورجـال دولهـم وتكـون منهـا :

رسـالـة انطـونيـو بـريت Antonio Perez (18) **الى فيليبي الثاني** Felipe II

ويقـول فيهـا :

12 اغسطس 1578

الى سيـدى ومـولاى الملك

(كتب على الهامش بخط الملك أرى من الحسن ان تدرك حقيقة تقول ، فلـو كـانت الآلام عادية لامكن التجاوز عنها ، الا ان هذه الالام محرزنـة مريرة جـدا بحيث لا اعلم كيف أستطيع الصبر عليها . ولذلك فـاني في شديـد الحـاجـة الى معـونتك ، ولا شك ان احسن الوسائل هـو الـرضا بمـا لـم يصب الذين منهـا ، الا ان لهذا الرضا نفسه مصاعبه ايضا ، فهـم لـن يـرضوا عـن كـل شيء بسبب ارتفاع مكانتهم الآن ، ولا شك فيما يرجع الى هذا الامـر أن أحسن ما يمكننا ان نفعلـه هـو ان نتسلـح ونستعـد ونجند الناس .)

صاحب الجـلالة المسيحية

توصلت هـذا المساء على الساعـة السادسة بمذكرة جلالتكم .

فـاما فيما يرجـع الى امـر البرتغـال فلا يمكننا الا ان نتاسف لـه ، انه اذا كـان صحيحا فانه ينطوى ايضا على امـور حسنة للجميع . وعندما تسلمت مذكرة جلالتكم ارسلت في البحث عن «دون كريسطوبال» (19) Don Cristobal

الذى لم يقدم على حتى كانت الساعة الثامنة والنصف ، ولم يكن له اى علم بهذا الخبر ، ولقد قلت له فى هذا الامر ان جلالتكم قد اعتنت بالقضية اعتناء كبيرا وانها كتبت الى لاخبركم بما حدث . وقد تكلمنا فى الامر ، فارتاى أن تاثر وتاسف للمصيبة كما هو المنطق انه من المستحسن بمجرد وصول الخبر الى جلالتكم أن تبعثوا فى الحال الى البرتغال بمن يقوم بالاعراب عن شعور الحزن بما حدث ، وقد قال انه سيكون على استعداد للذهاب اذا ما رات جلالتكم ذلك وارادت . ولا ارى احسن منه للقيام بجميع الامور

لقد قال دون كريسطوبال انه سيكتب ، والساعة الان هي الثانية عشرة، ولم يرسل شيئا .

فيجيب «فيليبى الثانى» على رسالة انطونيو بيريث Antonio Pérez بما يلي :

12 اغسطس 1578 .

رغم اننى توصلت برسالتك وقراتها فاننى لن اجيبك عنه

لقد بلغ الى اعلام سرى بالطريقة التى ساقولها لك فيما بعد بانه قد حدث لملك البرتغال ما كنا نخاف ان يقع ، فقد فقد الملك وضاع معه جند كثير ومعظم صحبه . فان كان هنالك ما يخفف عنا بعض هذا الالم فهو الخبر القائل بان عبد المالك قد هلك ايضا واذا كان هذا الخبر صحيحا فسيكون بحق بشارة لنا . ويتعين الان ان نترقب ونستعد لما يجمل بنا ان نفعله، فان كان هذا الخبر لم يصل الى طرفكم ، فلا تقولوا عنه شيئا .

واعملوا ما يجب فى هذا الامر وفيما عداه جميعا .

يوم الثلاثاء ، قبل الغداء .

ثم ياتي تقرير مهم جدا من الطبيب اليهودى الذى كان قد رافق المولى عبد الملك وهو عبارة عن رسالة كتبها لاخيه كما يلى :

فاس ، بعد 16 اغسطس 1578

سيدى :

بعد ان ابتعدنا عن «الكيرا» (20) خرجنا من هناك فى الغد متجهين الى «شيشوة» تحفزنا أنباء وردت على الملك من مولاى احمد حفظه الله ، وفى

اليوم الثالث اقمنا معسكرنا على مقربة من نهر تنسفت ، ودخل الملك مراكش فقضينا بها ليلتين ، ثم جعلنا نسير من تنسفت فقطعنا مراحل حتى وصلنا الى «ماور» (21) في تامسنا ، فامر الملك باقامة خيمته داخل القصبة مصطحبا بعضا منا معه وكان تنفيذ الأمر يتطلب انهاء بناء القصبة واسكان الناس حولها واقامة التحصينات بها ، ولذلك امر بان يوتى من مراكش بجميع المعلمين من البنائين بالطوب والحجر وبالنجارين والحدادين مسلمين ونصارى .

ولما كان الله يريد شيئا آخر ليس في حسبان الناس فقد حدث في اليوم الثالث لوصولنا ان اكل الملك شيئا من السمك وشرب كثيرا من الماء مع اكله قليلا من البطيخ ، فاتخمه ذلك وغلبه القيء الذي اعقبه شيء من الحمى والوجع في المعدة ، وكان هذا الوجع يعاوده بين حين وحين الامر الذي شغل بالنا كثيرا بسبب مرضه هذا الذي اسفنا له .

ثم وصلنا سلا حيث تحسنت صحته ، فلما غادرناها بعد ثلاثة ايام جعلنا نسير طيلة اليوم حتى وصلنا المعمورة ، وقد كنا قابلنا مولاي احمد في يوم آخر بجوار سلا . وفي ذلك اليوم امتطى الملك فرسه فجاء للقائه سكان الغرب بصحبة اخيه وهم جد مسرورين واطلق الجانبان بارودا كثيرا ثلاث مرات ، فكان منظر ذلك جديرا بالمشاهدة ، فلقد اجتمع فرسان كثيرون لم يجتمع مثلهم من قبل في هذه المملكة حتى ان عددهم قد بلغ قرابة سبعة آلاف بما فيهم رجال المكاحل .

وذهبنا الى المبيت ، فلما وصل الملك كان يحس بحمى ويغلبه قيء كبير ، فتاسفت لذلك كثيرا ، وقد وقع له ذلك بسبب الحرارة الشديدة واكثاره من شرب الماء واجهاده نفسه في انطلاقه بالفرس دون ان تكون صحته تسمح له بذلك ، فرأى الملك انه من الانسب ان يشرب الماء البارد ويدخل اصابعه في حلقه ليتقيا وان لا ياكل بعد ذلك ، وكنت ابكي واصيح امامه حتى اصبحت كالمجنون دون ان يفيدني ذلك شيئا .

وفي اليوم الثالث اصيب الملك بفواق شديد وبارتعاش في يديه وخاصة في اليد اليمنى مع ثقل في اللسان جعلني افهم في الحين المصيبة التي ستنزل ، وقابلت مولاي احمد فاخبرته بحقيقة ما حدث ، وقد امرني ان اكتم السر وجعل منذ ذلك الحين يهتم بشؤون المملكة ، واشتد العطش على الملك فبلغ درجة كما لو ان انهار الدنيا كلها غير كافية لاروائه ،

بحيث انـه لـم يكـن لي ولا للقائـد علي والمعلـم «غييرمـو» Guillermo (22) شغـل الا ان نقيـه من شرب المـاء ، وسرنا على هـذا النحو حتى بلغنا اليوم السابـع فشاء الله بفضل «وصفتـين» امـرت لـه بهمـا ان يذهب عنـه ذلك العطش وعادت اليه شهية الاكـل وفتح عينيه وخف لسانـه فانتظم قوله ، كما خف عنه الارتعـاش بعض الشيء .

وفي اليوم التالي الذي كان فاتح اغسطس جاءنا خبـر بـدء ملك البرتغال في السير خارج اصيلة ، وعند ذلك رفعنا معسكرنا واقمناه بجانب القصر الذي توجهنا اليه في اليوم الثالث فجاءتنا اخبار مفادهـا ان العدو يـريد اجتيـاز قنطرة النهـر المسمى وادي المخـازن وتقدم مولاي احمد وظل الملك متأخـرا الى ان ضرب المعسكـر ، وكان يظـن ان العـدو سيقدم على القتال مساء ذلك اليوم نفسه فامـر بتنظيـم رماة المكاحـل وطلب ـ سامحه الله ـ الفرس وهو يكـاد يكون ميتا . فامتطـاه ضد ارادتي ، وترك خلفـه جميـع الفرسان الذين قدموا معه ليشرف على تنظيـم الـرماة ، ولاحظت لمـا كـان راكبا على الفرس ان اغمـاء قد اصابـه فاقتربت منه متوسلا اليه ان ينـزل الى فراشه حيث يمكنه ان يستمر في اصدار أوامـره ولـم يكتف بالامتناع ، بـل أخـرج سيفه وجعل يديـره فوق رؤوس بعض اتباعـه حتى يتركوه لشانـه .

وفي هـذا الوقت جـاء رسول من مولاي احمـد يخبر بـان الاعـداء قـد استقـروا في موقعهم ، فيمكن صاحب السمو ان يذهب الى المعسكر ليستريح وياكل بعض الشيء فنزل عـن الفـرس وامتد على الفـراش ، واتجهنا نحـو الخيام . امـا مـولاي احمد فقد ظـل في الميـدان فيمـا يقـارب مـائـة مـن الفرسان فقط على مقربـة من الاعـداء ، وكـان على الجانب الاخـر من النهـر رجال من بني مليك وبني سفيان ، وبعض العرب من الجبـل (23) فلما اجتمـع رجالنا في ذلك المساء أرسل أخـا القائـد عبد النـور (24) ومـولاي المنصـور لانتلي وولـد السيد احمـد بن داودي وبعض القـواد .

وجعل الاعـداء في ذلك المساء يرفعون معسكرهـم متظاهرين بالسير ، وفي هذا الحين خرج الملك من مخدعه وامتد على الفراش وجعلنا نسير خارج الخيـام وعـاد النصارى الى الاستقرار من جديـد فتجمعنا بخيامنـا وتكلف مولاي احمد في تلك الليلـه بالحـراسة مـع بعض رجال الغـرب .

وفي اليوم التالي ، اي الخميس صباحا ـ بل الاثنيـن صباحـا ـ رابـع اغسطس استيقظ الملك على حالة طيبـة فطلب مني قبـل الشروق ان اناولـه

الفطور ، فشرب مرقا به لب الخبز وثلاثة فصوص من البيض الطرى ، ثم جاء مولاى احمد للكلام معه فى امر المعركة وودعه بفرح كبير ، وعندما حلت الساعة العاشرة طلب الملك الاكل فامرت بان ياتوه بدجاجة مقلية واخرى مطبوخة وبطعام وخبز أبيض فاكل قليلا من كل وشرب شيئا من ماء القرفة قبل الشروع فى الاكل .

وبعد انتهائه من الاكل جاءت الاخبار بان البرتغاليين قد بدأوا سيرهم فطلب الملك لباسه المزركش ووضع عمامة صغيرة على راسه وساما به ثلاثة احجار كريمة ، ثم تمنطق بسيفه الذى كان هدية قيمة تلقاها من تركيا ، وبخنجر من نفس النوع مرصع باليواقيت والاحجار ، وخلاصة القول انه تزين كما يتزين ايام الاعياد ، ووضع فى اصابعه خواتمه الكبيرة ذات الجواهر القيمة ، ثم امتطى فرسه على الرغم منى فتوجهنا جميعا الى الميدان .

ولقد وجدنا رجالنا على اتم نظام بينما النصارى جاءوا راجلين من ابعد ما استطاعوا ان يأتوا منه ، وكان مولاى احمد فى فرسان الغرب على يميننا ، مع آلاف من رماة فاس اما عن يسارنا فكان هناك قواد مراكش وأولاد مطاع (25) والرحامنة وناس كثير حسب عادتهم وموطنهم حتى يتمكنوا من الحركة بسرعة .

وتقابل الجمعان فى سهل هائل لم ار له مثيلا اذ لم تكن به حجرة ولا شجرة فلما كانا على طلقة المكحلة امر الملك باطلاق المدفعية التى كانت تتالف من 24 قطعة جيدة ، وقد اطلقت المدافع طلقاتها مرتين فالحقت بالنصارى بعض الخسائر كما ظهر لى ، وعلمنا به فيما بعده واجابنا الاعداء بمدافعهم فقتلوا رجلا وفرسين من بين الحاملين لعلم الملك ، غير انهم لم يستغلوا ذلك كما كان الناس يتوقعون .

وفى هذه الاثناء اقترب الجمعان من بعضهما فبدأ القتال بقوة من الجانبين وجعل فرساننا الذين هم رجال الشرف يقاتلون النصارى المدرعين ، وجاء من النصارى بعض الفيالق عن يميننا ويسارنا ، وهجموا بقوة شديدة ، حتى ان رجالنا من المشاة والفرسان قد تراجعوا وراء علم الملك وظلوا يبحثون عن الانضواء فى ذلك المكان الذى كنا نوجد فيه ، واعتقد باننا كنا هالكين ، الا ان الله امر بغير ذلك .

واعود الى مقصودنا فاقول ان الملك لما راى رجاله مهزومين أدار نظرات هنا وهناك فوجد نفسه وحيدا لا وجود للفرسان من خلفه لكونهم تفرقوا خوفا

من الرماح وقد غضب شديدا فوقف على مهامز فرسه وقبض على السيف، وبعد ذلك ارتعش ارتعاشا اصطكت له اسنانه ففقد الوعي والحياة في نفس الوقت ، وكان ذلك المنظر جديرا بالاعتبار ، وكان امرا باذن الله ، واسرعت اليه في الحين فلما رايت انه مات وضعته على فراش اعد على عجل، وقلت انه قد اغمي عليه ، وتظاهرت بمناولته الماء ، ثم غطيت وجهه حتى لا يحس الناس بتلك المصيبة العظمى .

وكان عن يميننا في هذا الوقت مولاي احمد ، مجده الله ، كما سبق ان ذكرت ، فحمل حملة قوية على النصارى وانزل بهم ضررا كثيرا ، وهكذا فعل مرتين او ثلاث مرات عندما كانوا يهاجمون ويتراجعون ولقد ضيق عليهم بقوة شكيمته ، حتى اني اؤكد لك انني رايته ظل فريدا مرتين مع رجال آخرين ، وفي نفس ذلك الوقت عاد القائد (26) الى وعيه لما راى رماتنا بالبنادق منقسمين وخاصة علم «بيزينين» (27) الذي جاء في ذلك اليوم مع القائد محمد زرقون من العرائش ، فحمل على النصارى حملة قوية شارك فيها الفرسان الذين افقدوهم رماحهم ، واستؤنفت المعركة بعد ذلك فطوق الفرسان النصارى من كل جانب ولم يبتعدوا عنهم الا بعد ان افنوهم .

والشيء الذي ساعد على هذا هو ان موت الملك لم يعلم به احد ، وقد ذهبنا كأننا معه واعلام تتقدمنا والحراس والخفراء وغيرهم من حولنا ، ونحن الذين كنا على علم بوفاته ، اي انا وولد محمد زرقون ومسلم ، وكنا نسير في الامام لنشعر غيرنا بان ذلك بامر من الملك ، ثم انني كنت انزل عن فرسي في كل لحظة متظاهرا بالتكلم معه ، بحيث ان الجند كانوا ياتون بالنصارى الاسرى رجالا ونساء الى حيث كان الملك فكنا نقول لهم انه نائم وان لايوقظوه .

ولما شاهد النصارى هزيمتهم جعلوا يقيمون المتاريس مستخدمين فيها العربات التي جاءوا بها ، فقاتلوا هناك ، حتى قتلوا ، او وقعوا في الاسر ، وكان عددهم ثلاثين الفا لم ينج منهم الاعشرون او خمسة وعشرون من فرسان طنجة الذين ولوا الادبار نحو اصيلة .

اما مولاي محمد فقد فر مع عشرة من الفرسان لما راى هزيمته ، وكان من بينهم اولاد ابي تودة وحمو بن معيزة وغيرهم ، وقد ارادوا اجتياز النهر ، ولما كان الوقت وقت المد في النهر فقد غرق مولاي محمد وأفلت الفرس .

ومات ملك البرتغال من جراء جرحين اصيب بهما في راسه ، وجرح آخر في ساعده ، فنقل الى القصر وقد وضع في صندوق فيه جير .

وكان سر الله عظيما ، فقد هلك في ظرف ساعة واحدة ثلاثة ملوك كان اثنان منهم عظيمين ، وكانت المعجزة الكبرى ، هي ان ملكا ميتا غلب ملك البرتغال في وقت قصير ، حتى ليظن ان ذلك الامر من فعل السحر ، ان سادة البرتغال من ابن دوق «براغانزا» (28) Bargança الى حامل الترس قد قتلوا او وقعلوا اسرى ، وهذا امر لم يره احد من الناس ولا سمع به ، وبمعجزة قبض الله ملك البرتغال وسلمه الى هؤلاء الناس .

اما عدد القتلى حسب ما شاهدت بنفسي فيمكن ان يبلغ 15.000 قتيل ، واما الاسرى فلا املك ان أقدر عددهم ، لانه لا يوجد عربي واحد لم يأت بنصراني ، أسير ، فأكثر ، والعملة المسلمون لم يعد لهم شغل يكسبون منه المال ، لان فاس مملوءه بالخدم من الاسرى بحيث انه لا يوجد رجل بالدولة ليس له اسيران او ثلاثة من النصارى ، كما ان المواطنين لهم ما يكفيهم للعمل في حقولهم ايضا ، وكانت قيمتهم تتراوح بين 30 الى 100 و 150 مزونة ، اما قيمة الافتكاك فكانت تتراوح بين 300 و 500 مزونة ، وكان الملك مولاي احمد يتخذ الفارس الاسير خادما له اينما وجده ، ثم ان العرب وسكان احواز اصيلة وتطوان والشاون لم يحضروا بعد الى فاس مصحوبين باسراهم النصارى ، واصبحت هذه المملكة غنية بالذهب والفضة والاسلحة المختلفة الانواع والبغال والخيول والثيران ، بحيث لم يعد رام يريد ان يخدم غيره ولا عبد اقل ثروة من اسياده ، ولا استطيع ان اقول لكم ياسيدي عدد ذلك لان من لم يره لا يمكن ان يصدقه .

ولما انتهت المعركة جاء مولاي احمد لياخذ الاعلام وقد تلقى الانباء بان الملك قد مات ، ونبهني الى عدم اخبار اي احد بوفاته ، ثم سرنا نحو مخدعنا وبقينا طيلة ساعتين قبل ان تغيب الشمس حيث حملنا الملك الميت الى الخيام ، حيث بقي القائد «بوجمعة» . ثم نادى علي في الناس وامرني بالذهاب لارى اذا ما كان اخوه قادرا على التحدث معه ، فدخلت وبقيت برهة ثم عدت الى الخروج فقلت ان الملك قد اكل فنام ، وكان سيدي محمد ابن عيسى (29) في هذا الوقت يكتب البيعة لمولاي احمد ، فلما انهى كتابتها ، وجه هذا في طلب الشرفاء والقواد من الفرسان والرماة على السواء فخطب فيهم هو بنفسه قائلا لهم ، ان اخاه قد مات ميتة القائد المغوار ، وانهم يعلمون بانه كان في حياته قد حارب عدوه مولاي محمد ، وانهم ان بايعوه

واصبح ملكا عليهم فانه سيعمل ما يرونه صائبا ، فرد كلهم بالاجماع «نصرك الله» ثم قبلوا يده واقسموا يمين البيعة انه ملك عليهم ، ثم ركب فرسه وجاب المنادى الميدان صائحا ، رحم الله مولاى عبد الملك ونصر مولاى احمد .

ولما انتهى من هذا ، توجه الى مخدعه فاصدر الاوامر بدفن اخيه فكان على هذا الشكل دفن بلباسه ونعليه بعد ان حمله كبار فقهاء فاس وسيدى محمد بن عيسى ، كما حمله قضاة فاس الكبار وجميع الشرفاء والقوم يقرعون الطبول ويزمرون بالمزامير يتقدمهم ثلاثة اعلام ملكية ومائة من الحرس الرماة الراكبين على الخيول وعبيد الدار الشبان . وقد خرجوا في نفس تلك الليلة الى فاس حيث دفنوه بجنب اخيه مولاى محمد الحران ، ووضعوه في القبر على فراشه واعلامه عند راسه وقد تاثر الناس لوفاته حتى انهم اعتبروه قديسا .

اما مولاى احمد نصره الله فقد دخل مدينة فاس يوم 16 اغسطس وقد اخذ ينظم شؤون مملكته ، جعلها الله على النحو الذي يريد ، واظن انه سيبقى هنا الى ان يحل رمضان ، وقد استدعى مولاى داود ليجعله على مكناس ، اما ولده مولاى الشيخ فسيتركه على فاس ، ويؤكد انه سيبقى معه ولد القائد على بن شكرة ، وقد اعطى قصر فاس البالى للقائد على كنوس ، وهذا هو ما فعل لحد الساعة ، وساعلمك بما قد يتجدد من الامور .

وقد نسيت ان اقول لك ان اهل فاس قد فروا جميعا ولم يقفوا حتى بلغوها بمجرد ما حدثت الصدمة الاولى ، كما فر معهم ما يتراوح عدده بين 3 و 4 آلاف من العرب الذين مروا بخيامنا فجعلوا ينهبون وهم يقولون اننا هزمنا ، وكان من جراء ذلك ان قام معظم الناس ففروا متوجهين الى فاس وبعضهم قد افلت من السرقة في الطريق بينما سرق للاخرين جميع ماكانوا يملكون

اما مولاى الناصر ولد مولاى عبد الله فقد فر في الليلة التالية ليوم المعركة وانتهى الى اصيلة مع اربعة من الفرسان حاملا خبر الهزيمة وقد ارادوا طرده متسائلين عماذا كان يريد ، لانه لم يبق في البرتغال ملك قد ياتيه بالموت كما كان اخوه قد فعل .

وقد جاء بهذه الانباء «بالما» Palma الذي قابلنا في اليوم الثالث للمعركة حاملا رسائل قبطان الجيش وحاكم اصيلة ليعلم مصير الموتى

والاحياء ، وقد عاد في الحال بالجواب مستصحبا مراقب القصر الملكي الذي وقع في الاسر ، وارسله السادة الاسرى من علية البرتغال واشرافه وان رؤية آباء وابناء واخوان القتلى والاسرى لتثير الشفقة في النفوس، وقد كان ذلك بسبب المحرمات التي ارتكبها البرتغال فأدوا ثمنها حقا (30).

ومن اهم الوثائق المعاصرة لتلك الموقعة هذه الوثيقة التي لا يعرف صاحبها الا أنه كان على كل حال في الجانب الآخر ، (31) وهذا ما يعطي الوثيقة اهمية خاصة ، والى القارىء ترجمتها عن الانجليزية

حادث محزن لاعظم معركة دامية ، وقعت في المغرب ، يوم رابع اغسطس من سنة 1578

ففي هذه المعركة قتل ملكان (ولكن معظم الناس يقولون ثلاثة) الى جانب رجال آخرين شهيرين ، وبالاضافة الى اعظم عدد من الضباط والجنود الذين صرعوا في كلا الجانبين ، فهناك عدة شخصيات وقعت في الاسر ، ترد اسماؤها رفقه

وصف النظم والعادات ببلاد المغرب

المغرب بلد يقع في افريقيا ، يسكنه قوم من البربر الذين يدينون بدين محمد ، وقد تمكن (من أغلبهم) الضلال والاعتقادات الفاسدة العديدة

وفي هذا البلد كثير من اليهود يسكنونه ، وفي ايديهم مقاليد اعظم التجارة التي تصدر عن البلاد ، وهم وحدهم تجار السكر والدبس وسلع اخرى غنية ، تنتجها هذه البلاد ، ويؤدون عليها اعظم المبالغ المالية للملك ، والآن فقد حدثت حادثة مؤلمة ، لاعظم معركة دامية خيضت في المغرب يوم 4 من غشت 1578 .

لقد كان هناك على البلاد المغربية ملك يسمى مولاي محمد الشيخ ، الذي كان له اولاد متعددون من أزواج عديدات ومحظيات اخرى : لانه هنالك ببلاد البربر يمكن الجمع بين أزواج كما يريدون

وحدث أن الملك ذات يوم كان ذاهبا الى مراكش ، عاصمة دولته ، يريد قطرا آخر يسمى سوس ، فلما كان في بعض الطريق ، في مكان يسمى بويبون (32) على الجادة ما بين مراكش وتاردنت اغتيل بواسطة رجاله (يريد الاتراك) فاعلنوا البيعة لاحد ابنائه ، الذي كان يسمى المولى عبد الله ، والذي أمر احد نبلاء البلاد ، يسمى القائد علي (بن بوبكر

الأزقى الحاحى وكـان هـذا حاجبا للمولى محمد الشيخ وحاكما لمراكش) ، بأن يتولى قتل أحد عشر من اخوة هذا الملك ، الا ان اثنين منهم (33) فـرا ناجيين بانفسهما الى تركيا ، فتمرنـا هناك على خوض المعـارك والحـروب

امـا اخوه المولى احمد فقد بقي بالمغـرب ، ولـم يؤبـه له ، لمـا كـان عليه من خمـول ولا شوكـة له ، تخـاف ، وكـان محبـوبا جـدا من اخيـه الشرير ولهـذا تـرعـرع فى بحبوحـة من العيش وغنى ، وكان فى معظم ايامه مقصد جميـع البـلاد

وحيث ان القاتل القاسى لم يكن فى يـوم من الايام غير مجازى ، فـان هـذا القائد الذى كان الوزير الوحيد للملك الذى أشار عليه بذلك التدبـير الخبيث قـد جـرى عليه مـا جـرى مـن قبـل ، على اخـوة هـذا الملك .

لقد كان الملك القاسى المولى عبد الله ، الى جانب الاخـريـات العـديـدة اتخـذ زوجـه أمـة (34) كانت سـوداء ، فكـان لـه ابن منهـا يدعى مـولاى الشريف (المسلـوخ) وكان بسبب ما كانت عليه امـه من سواد يسمى غالبـا بالملك الاسود ، وقد كـان عهد اليه ابـوه عبد الله بالملك ، بعد وفـاته ، فجعلـه ولى عهـده ، حيث انـه كان وارثـه الوحيـد .

امـا مولاى احمد فانه بعد وفـاة اخيه عبـد الله ، وخوفـا مـن طغيـان ابن اخيه ، الاسود الـذى خلفـه ، فـر لا يلوى على شيء ، مستصحبا معه كـل ثـروتـه ومتاعـه ، الى الجـزائر : المدينة التابعـة لتركيا ، حيث ظل فى احسن حـال وامـان (35) .

وبينما كان مولاى الشريف يتحلى بالتاج فى سلام وهدوء واذا به يصبـح طاغية قاسيا ، ممـا جعـل شعبه يكـرهونه ويتذمـرون من قسـاوتـه الشديدة وفى النهايـة لجوافى وجهـه بصريح من القـول قائلين : ان الولد مـن ام غـير حـرة ، لا يمكـن ان يحكـم عليهـم ،

وبقى عمه مولاى احمد بالجـزائر طيلـة هـذه المدة عارفـا كيف يستميـل الشعب ، بواسطـة التدبـير والـدعـايـة فى معظـم اجـزاء المملكـة ، وقـد ارسـل الى اخيـه مولاى عبد الملك ، الذى ظل مـع الاتـراك ، راغبـا منه ان ياتى مـع كـل التعبئـة ، ليقـود تلك القوات بكـل ما يستطيـع ، وان يعود بهـا الى البلد المغـرب ، حيث تاكد من انـه سوف يجد به أتباعـا وأعوانا لـه على نيل التاج بكـل سهولـة ويسر .

وبهذا الامل الحسن ، فان مولاى عبد الملك ، وقد حصل من عظيم الترك على جيش قوامه 10.000 من الاتراك مكافاة له على خدمته الطويلة معه (36) دخل بهم المغرب ، حيث استقبل من اتباعه ومواليه بكل غبطة ، واعظم نجدة وغوث : فتمكن منهم ومن الثروة التى كانت لاخيه مولاى احمد ، الذى لم يدخر وسعا لاسعافه بها ، او ليناصر مسعاه الحالى .

اما مولاى الشريف ، ابن اخيه ، الاسود ، وقد ادرك ان عمه قادم ، فقد بقى بين قواته العظيمة ، ليعبىء مقاومة ضده ، ولكنه وان كانت حتى ذلك الحين ، قواته قد تغلبت الى اقصى حد على عدد من اعدائه ، وانه مع ذلك يتوفر على جيش قوامه عشرة على واحد من قوات عمه مولاى عبد الملك ، فان شجاعته لم تكن تسعفه فى ذلك ، كما انه كان يدرك ان ارادة الشعب العامة مصروف عنه ، وهكذا فى وقت قصير قام مولاى عبد الملك بالتحريض عليه ، فأثار الناس على الشريف المذكور ، وتمكن من ان هزمه الى الجبال ، من البلاد واخيرا تمكن من التاج ، واستمر فى جميع ذلك قابضا على ملك المغرب ، حيث كان محبوبا جدا من شعبه : لكونه رجلا نشيطا جدا ، وفى عظمة من سرعة الحركة ومهارة فى الحروب ، اذ كان منذ شبابه دائما فى سفره مستمر ، كما روى الرجال . وقد اقر العدالة والامن ، وكان سموحا جدا مع المسيحيين وعلى الخصوص مع شعبنا الانجليز .

وحينما انهزم الملك الاسود الى الجبال ، حمل معه اعظم قسم من ذخائر البلاد ، ويوميا كان يزعج هدوء الوضع الذى كان عليه عمه مولاى عبد الملك، ذلك الملك الذى لم يكن يتام عن المدى الذى ينوى الوصول اليه ويتذرع بجميع الوسائل وعلى حذر مما عسى أن يقع من ابن اخيه الاسود ، من ضرر او ذى ، وفى النهاية فقد استطاع هزمه الى اقصى حد من تخوم المملكة ، حيث اصبح مضطرا الى طلب العون من ملك البرتغال ، الذى كان له بعض المراكز فى تلك البلاد

وبما ان الملك البرتغالى كان شابا يافعا شهما ، فى نحو الثلاث والعشرين من العمر ، فربما كان قد انبثق مندفعا بدافع الامل الخداع والرغبة الطماحة ، فى الكسب والانتصار ، غير مراع ولا مراقب للتهلكة التى تحيق به ، وعلى هذا فقد وعد الشريف المذكور ان يحقق امله فيه ، ثم كان يجيش جيشا مكونا من 40.000 هكذا 6.000 من المشاة البرتغال ، و 4.000 من الفرسان و 10.000 من مشاة الاسبان ونبلاء الالمان والطليان ، و 10.000 كانو مؤلفين من الوصفاء ، والخدم والملفين ، ونحو

ذلك ممـن كانـوا يتبعونـه صحبـة المعسكر (37) . وبهـذه القـوات فان ملك البرتغـال عسكـر بنفسه فى عـدد عديـد من نبلائه ، فاصلا معهـم عـن بلاده فى اليوم الـرابـع عشر من شهـر يليه 1578 ، فوصل مـع اول اسطـولـه الكـامل الى مدينة اسبانيـة تدعى قادس ، حيث استراح ثمانية ايام كـاملة على ان يـزود عسكـره بكل ما يحتاج (كما يظن بعضهم) كما انه ربما كان فى حاجـة الى انجـاز بعض مـآربه المزعومـة .

وفى اليوم الثانى والعشرين من الشهر المذكور من يليه ، جمع رجاله كلهم، وفصل بجميـع تعبئته من قادس الى مدينة اخـرى تقـع على الشاطىء المغربى المقـابل ، تدعى طنجـة ، حيث تقابل مـع الملك الاسود ، الذى كان معه خمس مائـة من المغـاربة الفرسان وبعد ما اقـام ايضا بطنجـة مـدة ، فصـل مـن هناك الى اصيـلا ، التى هى بعض ماكان لملك البرتقال المذكـور بالمغـرب

وبعـد ما فصلوا من هنالك ، فى اليوم الاول ، الذى كان يوم 29 من شهـر يليه ، تقـدم الى الامـام ، ملك البرتغـال المذكور ، مـع جميـع قواته ، فرسخا آخـر وكـان بعـد ثلاثـة اميـال من اميالنـا الانجليزيـة ، فاقام خيامـه عند مكـان يـدعى النهـر الحلو (الـواد الحلـو)

وفى اليوم التالى ، تقـدم فرسخـا آخـر ، وفى ذلك المكـان بقى مـدة يـومـين كـاملـين ، اكتشف فيهمـا عند قمـة ربـوة عـاليـة جـدا ، فرقة من فـرسان المغـاربـة ، كـانت تقـدر بنحـو 400 شخص لا اكثـر ، وكـان سبب اتيانهـم ، كما تخيل تمـامـا ، لمجـرد معاينـة معسكر ملك البرتغال ، حتى يطلـع ملكهـم على القـوة التى يتوفـر عليها هـذا فى الواقـع وكانت مائلة فى عظمـة يمكـن ان يتصورها العقل ، وبعـد ظهورهـم عادوا ادراجهم فـى سرعـة فائقـة ، بدون ان يمكنوا منهم مناوشة معهم او عمل اى قتـال مطلقـا .

وفى اليوم الثالث تقـدم ، فسار ثلاثـة فراسخ الى الامـام ، بـدون ان يصادف مقـاومـة ، فاقـام معسكـره فى هدوء واطمئنان قريبـا مـن نهـر يدعى وادى الريصانة (38) ، فبقى هناك طيلـة الليلـة .

وفى اليوم الرابـع ، سار ايضا ثـلاثة فـراسخ الى الامـام ، فـوصـل مدينة مغربيـة ، تدعى القصر الكبيـر ، حيث كان يجرى بينهم وبين المـدينـة النهـر الكبيـر وادى المخـازن ، وكـان الجسر آنـذاك فى قـوة ومـنـاعـة محروسا بالفى مغربى فادرك ملك البرتغال انه مـن المستحيـل ان يسلك هـذا

السبيل بدون بذل اعظم مخاطرة : اذ كان عليه ان يحتفظ برجاله الى فرصة لقاء آخر ، يمكن ان تكون في صالح متابعته لمسعاه الحاضر. وعلى ذلك تابع سيره محاذيا الشاطىء يبحث عن مسلك له يكون اكثر ملائمة لقصده ، وفي النهاية وصل الى جدول صغير حيث عسكر هناك بجميع قواته ومدفعيته ، ومؤونته بدون ان يستهدف اى خطر او صعوبة مطلقا ، فقضوا كل اليوم منهمكين في العمل الذي استغرق تلك الليلة كلها .

وفي اليوم التالي استدعى ملك البرتغال جميع حصفائه وقواده المحنكين بقصد الاستشارة معهم ، وطلب نصحهم ، فيما اذا كان الاحسن له ان يتجه بجميع قواته نحو العرائش حيث هي مدينة جافة وان كان بها نحو 7000 بيت ، فانها مع هذا ضعيفة غير قادرة على مواجهة اى قتال ، ولن تكون قادرة على الصمود الطويل للمقاومة ، او بالاحرى عليه أن يتقدم الى الامام في طريقه نحو القصر الكبير المذكور . فكان هذا موضوع حوار طويل بينهم ، كل رجل ينحاز الى ما هو رغبته وهواه . وبعد ما عبر كل بخصوصه عن وجهة نظره في هذا بعض يرى هذا المسلك وآخر يرى ذاك ، فان النهاية كانت قد ختمت بالمصادقة العامة على الاحتفاظ بطريقه نحو القصر الكبير ، فقام بما اتفق عليه

ولم يسر غير بعيد حتى اكتشف ان مولاى عبد الملك ، الذي كان ملك المغرب ، قد زحف نحوه ، بقوة عظيمة من الرجال ، كانت تقدر بنحو 70.000 فارس ، و 40.000 راجل ، وكان منهم نحو 20.000 من الرماة الفرسان ، و 10.000 من المشاة المدفعية ، الى جانب اتباع آخرين للمعسكر ، لم اسمع بعددهم ، ولا يمكن ان يقدم فيهم تقرير حقيقي، ولكن بسبب ان اليوم قضى في هدوء بين القوتين فانهما ما استطاعتا اتيان اى عمل وقد اقتربت كلتاهما من الاخرى ، وعسكرتا هناك تلك الليلة على مشهد من كل منهما للاخرى .

وفي اليوم التالي ، وكان رابع اغسطس ، لسنة 1578 ، قسم ملك البرتغال جيشه الى اربعة كراديس ، وعين لدون دويرطدي منيسيس Don Duert de Mennesses القائد الاعلى للقوات ، قيادة المقدمة Vantgard اما الكردوس الثاني فان ملك البرتغال تولى بنفسه قيادته ، وعلى الميمنة كان الشريف الاسود ، مع فرسانه ، وعلى الميسرة كان دوق فيرو Duke Daverru الابن البكر لدوق بركنسي (28) مع اربعة فياصل .

وقد فعل الملك مولاى عبد الملك ايضا نفس الترتيب فى عسكره ، فكان كل شيء هكذا قد اعد ، في كلا الفريقين ، وكان كلا الملكين قد هدفا الى جعل انفسهما موضع المخاطرة فيما عسى ان يقع ، وقد تجردا للقتال فوجه الملك مولاى عبد الملك اولا هجوما على فرسان البرتغال المقاتلة ، ولكنهم دافعوا عن انفسهم بشجاعة ، وانتهوا اخيرا الى اضطرار مولاى عبد الملك ورجاله الى التاخر ، بعد فقدان كثير منهم ، ولكن مولاى ملوك مع هذا لم يهن ابدا ، وقذف برجاله ثانية في احسن ترتيب لخوض المعركة ، هاجما بعنف وشدة على فرسان ملك البرتغال ، فجعلهم ينهزمون الى قلب الميدان ، ولكن فرسان البرتغال ، وهم غير قادرين على جمع شتاتهم مرة اخرى فى نظام احسن ، هجموا على المسلمين نفس الهجوم العنيف ، بحيث انهم قتلوا عددا عظيما منهم ، فأعاد المسلمون الكرة على فرسان البرتغال ، واكرهوهم على الاختلاط بمشاتهم ، ثم هجم هؤلاء الفرسان ايضا على المغاربة من جديد ، ولكن قتل احسن رجالهم من قبل ، ولم يكن لهم غوث جديد ، ليسدوا به حاجتهم ، ولهذا فقد فروا مرتاعين عن زملائهم ، فى بلاد غريبة عليهم ، وبين اعدائهم القتلة ، الذين كانت قواتهم تفوقهم ، وما استطاعوا ان يفعلوا احسن من هذا مطلقا ، ولكن المغاربة بقوا على قوتهم العظيمة ثابتين ، بحيث انهم كسروا نظام الفرسان البرتغال ، وشتتوا شملهم وقهروهم ، يقتلونهم وياسرونهم بجميع قواتهم ، ما عدا 80 او 100 شخص على الاكثر ، استطاعوا النجاة بانفسهم بواسطة الالتجاء الى الاسطول .

وقتل فى جميع رجال المعركة ، 3.000 الماني ، و 700 طلياني ، و 2000 اسباني ، كان منهم دون ألونسو داجلر Don Allonso Dageler .

فارس قرطبة .

وفى هذه المعركة النهائية ، يظن ان الملوك الثلاثة قد قتلوا

وهذه اسماء نبلاء البرتغال الذين قتلوا فى المعركة :

Don Sabastian ملك البرتغال ، Don Lewis de Codua .
. Don Diego de Mennesses

George de Silva حاكم وقاضى البرتغال ، Don Francisco de Portugal ،
Don Francisco ،

Don Constantino ابـن للكونت سورطيلا ، Don Ferdinando de Silva ، Don Allonso de Almado.

الشريف الملك الاسـود ، Don Christofher ، Don Avero Peeres de Travora .

اما اسماء الذين اسروا ، وهم الان معروفون بالمغرب على قيد الحياة ، فهم : ابـن دوق بـركـانسـا ، Duke de Bargansa ، Don Diego de Silva ، Don Piedro de Mennesses.

Don Duart de Mennesses جنرال طنجـة :

Don Farnando de Castra مـدير المـاليـة وآخـرون عديدون مـن السادات والنبلاء الذيـن فقدوا ، امـا الذيـن قتلوا او اسروا فحتى الان لـما يحص عددهم

وقد اخبر ان رأس ملك البرتغال قد بقي فـي القصر الكبير ومـن اجـل تسليمه فالمغاربة يطلبون فداء عنه مدينتي فـاس (39) واصيلا المـذكـورتـين .

وقـد عـرض لفـداء ابن دون بركنسا 10.000 دوكـة ، ولكن رفض ذلك

وقد فقد ملك البرتغال في هذه المعركة 22 قطعة من المدفعية ، و 700 مركبة ببغالهـا وثيـرانها ، الى جانب اشياء اخرى ذات القيـم العظمى

وقتـل مـن المغـاربـة نحـو 40 او 50 الفـا مـع اخريـن ، يقـال ان الملك مـن بينهـم

وقـد اختار البـرتغـال ملكـا عليهـم القسيس الـذى كـان عما لأبى الملك المتـوفى سلفـا .

ولنقتصر على هذا ، لننقل منه الى ما يتصل بالعلاقـة المغربية الاسبانية ، على اول عهـد احمـد المنصور وما كان يكتنفها من مخاوف الاسبان من الاتراك وموقف المغـرب من الدولتين ، كما يراه المراسلون

وفى هـذا الصدد نقتصر الآن على نشر الوثيقتـين هاتـين فيمـا يلى :

الوثيقة الاولى

مذكرة «ايسونسا» (40) Issunsa حول مقترحات «لانساك» Lansac (41)

21 يونيه 1579

بناء على الحقيقة التى نبهنا آباؤنا اليها وعلى التجربة التى حصلناها سواء فى عهد الامبراطور الملك سيدنا ومولانا الخالد الذكر او فى عهد صاحب الجلالة رعاه الله وحفظه واعلى امره لصالح المسيحية

فانه يتبين ان الغرض الاول الذى تقدم به «لانساك» الى صاحب الجلالة كان بامره من ملكه وبنصيحته ، فلقد كان على علم به كما كان من السهل عليه ان يعلم (نظرا الى ان الامور فى اسبانيا لا تحاط بالسير المطلوب) بان مولاى عبد المالك المتوفى كان يلح كثيرا فى التحالف مع صاحب الجلالة ولما كان من الواضح ان ذلك التحالف سيجر كثيرا من المصاعب على الفرنسيين ، فى ادراك رغائبهم ونواياهم ، وكذلك مصاعب اكثر واعظم على كبير الترك صديقهم الحميم وزميلهم فى القتال ، فقد راوا ان يتفادوا ذلك التحالف وان يسندوا تنفيذ الامر الى (لانساك) باعتباره عميلا خبيرا فى مثل هذا النوع من النفاق . وقد اعتقد بان ذلك سينال قبولا عند صاحب الجلالة ، فبدأ عمله بالعرض الاول الذى تقدم به ، وهو ان يحتل مدينة العرائش وميناءها ليضعهما فيما بعد بين ايديكم الملكية ، حتى اذا ما قبل عرضه تمكن من ان يظهر مولاى عبد الملك على الامتيازات ويجعله بهذه الوسيلة يفقد الرغبة التى كان يشعر بها فى التحالف . ولعله لم يكن من الصعب الكبير عليه ان يكون قد ادرك ذلك على حساب صاحب الجلالة الذى لم يحصل على اى نفع ، بل فقد شيئا كثيرا ، لكونه اضاع على الاقل العربون الذى قدم له اذ لا شك ان مولاى عبد الملك قد علم بعرض «لا نساك» على الملك وقرر أنه سيتخذ الاحتياطات الضرورية فى العرائش حتى يجعلها فى حالة دفاع كما اضاع فرصة استمالة عبد الملك الى جانبه فى اعمال اخرى اكثر اهمية وعظمة . الا ان كل هذا يتوقف ضرره برفض صاحب الجلالة لعرض لانساك المذكور .

وحتى اذا لم يكن ذلك يهم كثيرا فان لا نساك لو سار سيرة صريحة واضحة لتألم من الاهتمام القليل الذى قوبل به العرض الاول من طرف

صاحب الجلالة ولاجاب في الحال على الصرخة التي وجهت اليه في هذا الامر من طرف فرنسيسكو دي ايبارا (42) Francisco de Ibarra الذي أجاد التصريح عن رغبة ملكه في استمرار المذاكرات التي أحدثت الخلاف التام بين صاحب الجلالة وملك فاس ، الى ان تتم الصفقة المضاعفة التي يفكر في اجرائها ، مع صاحب الجلالة ، فليس من الغريب ان لا يتوجه هذا القبطان الذي هو خليفته الى العرائش ، قبل ان ياتي الى القصر ليحيطه علما بما كان يريد ان يفعل ،وحتى يتمكن فرنسيسكو دي ايبارا اذا ماأراد ان يصحبه شخص اخر الى العرائش للتعرف على حالتها ، واستطلاع قوة مينائها ، ووضع قائمة بها ، من ان يبعث ذلك الشخص بتلك المعلومات ، الا ان القبطان اراد ان ينطلق حرا ، حتى يعلم ملك فاس بما يطلبه منه صاحب الجلالة وبالصفقة المضاعفة المذكورة ، التي كان يفكر في اجرائها معه بشأن تلك القضية ، وبذلك يتمكن ملك فاس من تحصين وتموين تلك المدينة ، ثم يتفق معه على ماذا سيصنع الجانبان عندما يكون قد وصل بباخرتين كبيرتين وعشرة قوارب ، وحينئذ لا يصاب احد منهما بضرر ويتمكن لانساك من القول بانه وفي المهمة مع صاحب الجلالة . فالاخبار التي يتظاهر القبطان المذكور بانها وصلت الى العرائش في شهر مايه وغيرها ما هي الا اخبار روجها هو بنفسه وجعل المسلمين يثقون بها فيما يتعلق بوصوله ، وبالاكاذيب التي افتراها عليهم ، لا دراك تلك الغاية ، وهذا امر يسهل فهمه اذا ماعلمنا بان تلك المدينة كانت محصنة ومزودة بالرجال وغيرهم من جميع الضروريات كما يقول القبطان المذكور ، وعلى حذر ويقظة كما يقضي المنطق ان تكون حالتها ، اذ من الصعب ان تدرك ان تدخل تلك المراكب الى الميناء ، وتنزل الرجال وتقوم بواجبها لاحتلال المدينة ، حتى اذا لم تستطع احتلالها ، تكون قد برت بفعلها ذلك ، واسوء من ذلك ان القوارب ستبقى هناك بدعوى ان رجال فاس قد استولوا عليها. اما وقد انتهى امر البرتغال الى انقطاع فان تلك المراكب او القوارب منها على الاقل ستعد لصلاحيتها للتجذيف لاستعمالها في جلب معلمي الشاقور وغيرهم من الرجال والمؤونة الضرورية من مرسيليا وذلك لاعاقة اسطول صاحب الجلالة ، وافادة البرتغاليين افادة كبيرة . لذلك نراه لا يتوانى في طلب الاذن بالاتيان في تلك القوارب عن طريق البحار البرتغالية ، مع العلم بان جميع

سواحل فرنسا زاخرة بالعدد العديد من البحارة الذين هم اكثر ائتمانا من البحارة البرتغاليين لأنه يريدهم ان يكونوا مرشدين لساحل البرتغال ويتفاهموا ليدخلوا الموانىء الصغيرة التى لا تستطيع مراكب الاسطول او قواربه ولوجها ، وبهذه الكيفية يستطيعون ادخال النجدات والذخيرة والمؤونة واخراجها من جهات اخرى دون ان يخاف القبطان احدا يعوقه عن ذلك . وهم سينجزون كل هذا وسيعدونه تمام الاعداد على حساب صاحب الجلالة ، لان مجرد العربون الذى يطلبه ذلك القبطان هو علامة كافية على هذا القصد .

وان الظروف الراهنة تجعلنا نرى ان ما قيل مطابق للحقيقة مطابقة يصعب انكارها ، بحيث يظهر ان ملك فاس وان اقتبل سفارة بيرو فينيغاس Pero Venegas (43) اقتبالا طيبا واعلم بذلك فى جوابه ، فانه سيبقى فى صدره غل لكونه علم من القبطان المذكور بطمع صاحب الجلالة فى انتزاع العرائش منه ، بحيث لن ينظر نظرة طيبة ابدا الى التحالف المذكور ولو كان يتمناه كثيرا ، لانه لا شك فى ان فقهاءه ، ومنهم من يتمتع بقوة ونفوذ كبير سيعملون على صرفه عن ذلك .

وبهذا تظهر لنا كل هذه العوائق فى حمل ملك فاس وصحبه على الجنوح الى الاذعان والرضا . وعليه يجب الاستغناء عن القبطان المذكور ، مع ما يجب من المجاملة له ، وارسال شخص الى فاس يحمل رسائل يقال فيها للملك انه قد بلغ الى اسماع صاحب الجلالة ان بعض اعداء الطرفين والاصدقاء المخلصين للاتراك قد اخبروه بكذا وكذا ، حتى يفهم ان كل ذلك منا قض للحقيقة ، كما يقال له انه يرغب ، لتبادل المراسلة فى هذه القضية ، انيعده ملك فاس ويقسم له بايمان دينه على ان ميناء العرائش لن تستخدم ابدا ولن يرضى عن استخدامها فى محاولة ما ، للاضرار بصاحب الجلالة او باسطوله ، وبان لا يقدم اية معونة من اى نوع كانت ، لاعدائه ، وبان لا يقبل فى تلك الميناء ، ولا ان يزود بالمؤونة او الذخيرة او المعدات الجديدة ، اى قارب من قوارب اعدائه ولا قوارب حلفائهم ، او المتعاهدين معهم ، وكذلك بان يخطرهم ان اقتضى الحال بشكاية الفرنسيين من هذا الامر .

الوثيقة الثانية

رسالة «كابريطا» Cabrette (44) الى فيليبي الثاني

مدريد ، 6 اغسطس 1579 .

صاحب الجلالة الملكية المسيحية :

اردت قبل ان يذهب القبطان «دى لاكرويس» de la Croys (45) ان اعلم جلالتكم، وأنا خادمها المخلص، بما يجرى هنا، فأول الامور هو ان المسالة لم تستمر على سيرها الكامل لسبب يعلمه الله ، ولعل جلالتكم على علم بان مسيو لانساك كان يهيىء تلك القضية بان يقدم الى اعتاب جلالتكم عددا هاما من الناس فيهم فرسان انجاد كانوا على اتم استعداد، وينتظرون الوقت الذى يكلفون فيه أن يقوموا بالمهام . ولو أنه لم يشعرهم بما كان يريد ان يصنع ، ثم انه ابتعد ايضا عن حكومته في براجيو Broagio (46) عن قصد حتى يتمكن من خدمة جلالتكم بسهولة اكثر ، كما ان ملك فرنسا قد انشأ فيما بعد مجلسا جديدا للدولة وللحرب، وكان يريد ان يجعل فيه مسيو لانساك ويعينه حاكما لمقاطعة تورين Torena (47) غير انه لم يرد ان يقبل شيئا من تلك الاشياء ، ولعل جلالتكم على علم ايضا بانه قد صرف مقادير هامة من المال ، ولا تظنن جلالتكم ان كل هذا امر هين لا قيمة له عنده ، ولهذا فانه سيأسف لعدم تمكنه من تنفيذ شىء ما ، تنفيذا مطابقا لحسن ارادته ، ولما كنت اعرفه على هذا النحو فانه يحملنى على ان اقول ما اقول ، حتى اعلم جلالتكم بماعساكم ان تقيموا له الحساب ، لانى اعلم انه قادر على ان ياتى العمل الصالح فى خدمة جلالتكم ، كما انه قادر ايضا فى بعض المناسبات على ان يصنع الشر لو اراد .

وقد علمت ايضا من اندريا غاسبارو كورسو Andréa Gasparo Corso (48) لاطلاعه لي على رسالة تلقاها من بر المغرب ان سفير الترك الذى قدم الى ملك فاس قد صرح بانه جاء خصيصا ليخطر ملك فاس من قبل كبير الترك بان يستعد في المناسبة الاولى القادمة لمعونته بالذخائر والرجال ، لانه يريد ان يرسل اسطوله الى وهران ، واذا كان هذا القول صحيحا فانى لا اراه حسنا ، واظن انهم يقولون له ذلك لانهم يريدون ان يختبروه فانهم لن يرسلوا اى اسطول ، ولا يريدون الا ان يروا حسن

نيته ازاء الترك ، فيستمروا على الاخبار ، ليبعدوه عن مملكته بدعوى التوجه الى وهران ، وكما قلت انفا فان ذلك من الاهمية بمكان ، وسيكون من الامر اليسير ايضا ان يدعوه ، ليقيم بعض المصاعب امام نوايا جلالتكم فكل شيء يمكن تصوره والتفكير فيه ، على أنها امور ممكنة الوقوع .

وسمعت ايضا بان اناسا في اطراف مملكة فاس ومراكش قد ثاروا ايضا على ملك فاس المذكور معتبرين ولد الشريف الهالك (49) ملكا ، ولا شك ان هذا الامر سيء ايضا ، لان تلك الجهات اذا لم تستطع فرض رايها ، فربما استعانت بالاتراك ، ويعظم تخوفي هذا مما اسمع بانه يوجد هناك اربعة سفراء ، وهو امر ليس حسنا فيما ارى ، لان كل واحد منهم سيعلم بما يجري ، ومن المحتمل ان يسببوا حدثا جديدا ، ولهذا ارى ما دامت الامور تسير على هذا النحو ان ينفذ مشروع العرائش ، بحيث يجب ان لاتضيع ساعة من زمن ، لان الوقت الان مفيد كثيرا لجلالتكم وذلك بان تتمسكوا بتلك المدينة وتحصنوها التحصين المطلوب ، مادامت هذه الفتن ، اذا ما رات جلالتكم هذا الراى ، وارجو ان يكذب الله قولي لصالح النصرانية وفائدة جلالتكم ، الا انه ما دام في مستطاع جلالتكم ان تحتفظوا بها ، دون تعريضها لاى خطر ، فاني ارى ان لا تضيع ساعة من زمن ، حيث انه كلما تاخر ذلك التنفيذ عظم الضرر الناتج عنه والتمس من جلالتكم قبل ذهاب «دي لاكرويس» المذكور أن تنظروا في هذا الامر بما يجب لاني اراه هاما ، ولان مسيو لانساك اذا ما نزل بافريقيا ، فانه سيقدم الى جلالتكم خدمات جلى ، عندما تريدون تكليفه بها ، وسيكون ذلك مناسبة لتفادى حدوث اتعاب كبيرة له ، واذا ما استطاعت جلالتكم ان تعينوه بقوات قليلة من الناس بالاضافة الى المعونة المالية فانه قد يصبح قادرا على ان يضع افريقيا بين ايدى جلالتكم ، وذلك لان الناس سياتونه بكثرة من كل الجهات في اى مكان يكون موجودا فيه على نحو لايكاد يصدق ، واني لاراه كذلك بحيث ان جلالتكم والمسيحية كلها ستحصل منه على ثمرة عظيمة دون ان تصاب قوة جلالتكم بوهن او يقتل افرادها ، باستثناء المصاريف المالية التى لا تفتقدها جلالتكم اذا ما ارادت العمل بما اقول ، ولا استطيع ان اقول اكثر من هذا .

وحيث ان مسيو لانساك في خدمتكم ايضا وما زال على اخلاصه الى الان فاني واثق بانه سيعمل عندما يذهب في خدمة جلالتكم ، للحصول مع السيد أخي الملك (50) على مافيه راحة المسيحية ومنفعة جلالتكم ، وهو

قادر على أن يقوم بذلك خير قيام ، لأنه لن يفعل اكثر مما تشيرون عليه به الا أنه لم يرد متابعة سيره فى ذلك الطريق رغم جعله فيه قائدا عاما . واذا مالزم القيام بعمل مضاد لانجلترا، كما قد تحين الفرصة لذلك فى بعض المرات ، ففى مستطاعه ان يقدم المعونة لجلالتكم وان يحمل ذلك السيد (50) على الجنوح الى ذلك العمل . وذلك بمباشرة زواج ما مع احدى الاميرات ، فمن الممكن اصلاح الامور التى تكون معوجة فى بدايتها ، وان الناس يعملون كل شىء ، بما فيهم القادر على العظائم وربما كان هذا سببا يسهل على جلالتكم الاقدام على استغلال ثروة البرتغال ، اما انا فلا ابحث عن شىء اخر ، الا ان اجد السهولة فى السير الى الامام ، والتغلب على ماقد يعوق مصلحة جلالتكم ، ولهذا اقول اكثر مما يناسبنى قوله ، الا ان لجلالتكم من السماحة ما يغفر لى ذلك ، ويجعلكم تاخذونه على احسن حال ، نظرا الى النية الحسنة التى اقول على وفقها .

وفى النهاية ليهد الله جلالتكم الى الراى السديد

فى مدريد ، اليوم 6 اغسطس 1579

اصغر خدام جلالتكم الملكية المسيحية

الامضاء :

القبطان كابريطا .

وحيث سبق لنا ان كتبنا بتفصيل فى عصر المنصور ونشرنا عدة وثائق مختلفة اتصلت بذلك العصر ، نرى ان ننتقل منه الى عصر اولاده

على أننا لايفوتنا أن ننشر وثيقتين كتبتا فى اواخر أيامه كما سنرى . فى الايام الاخيرة من حياة المنصور ، وزع المملكة بين اولاده الثلاثة : الشيخ ، له فاس ونواحيها ، وزيدان له تادلة واقليمها الممتد بين فاس ومراكش ، وابو فارس له سوس واقليمه مما هو جنوبى مراكش ، وقد أثار هذا التقسيم كثيرا من العداء بين الاخوة ، وتسبب فى كثير من المؤامرات التى كانت تدبر بواسطة القواد المنتمين اليهم ، وكتب فى هذا الصدد بعض الانجليز ، كما نجد ذلك فى رسالة لجورج طومسن الى روبرت سيسل بتاريخ 1600 (51) .

ثم ان الابن الاكبر الشيخ ، صاحب فاس ، سولت له نفسه ان يستبد عن والده ، واستعان في ذلك بالاتراك الذين صار يراسلهم في الجزائر ، كما صار يتصل بالاسبان فيما بعد ، وذلك حينما اضطره لذلك قائده الحظى عنده «مصطفى الاسباني الاصل كما سنرى .

لقد جعل مصطفى هذا ، محمدا الشيخ يعقد علاقات صداقة مع فليبى الثالث ، ويتواطا معه على محاربة الترك ، واصبح الشيخ يأتمر باوامر قائده مصطفى ، الذى اشار عليه بان يسلم الى الاسبان مدينة العرائش (52)

هذه المحاولة الخبيثة القت الرعب في قلب والده احمد المنصور ، فقضى على ذلك القائد بسرعة ، ثم شرع بعبئ تعبئة عظيمة يتوجه بها الى ابنه العاصي بفاس . فسار بجيشه وفي صحبته ابنه زيدان ، الوالي على تادلة ، وحاصر ابنه الشيخ الذى وقع اسيرا في يديه ، حينئذ عين المنصور ولده زيدان واليا عليها ، بدل اخيه ، الذى سلمه اياه اسيرا، ثم استعد للعودة الى عاصمته مراكش ، لكنه لم يلبث ان اصيب بالطاعون الذى كان قد انتشر بالبلاد بعد حرب الناصر ، فتوفي يوم 25 غشت سنة 1603 (53) حينئذ اعلن زيدان نفسه ملكا على المغرب ، بينما اخوه ابو فارس اعلن نفسه بمراكش ملكا ايضا ، وكان ابوه قد جعله على مراكش في غيبته عنها وبذلك اصبح المغرب تحت سلطان ملكين ، وكانت اهم المملكتين في يد ابى فارس ، حيث بيت المال ، والسوس والسودان منضمين الى مراكش ، الا ان زيدان ، باعتبار انه ابن لسيدة حرة للا عائشة لها عصبيتها القوية ، بخلاف ابى فارس ابن الأمة جوهرة ، وانه كان في سلطانه ناحية عظيمة تضم اقليم فاس وتادلة ، فقد صمم على ازاحة اخيه وطرده عن كرسي مملكة مراكش . وكان ابو فارس عليلا في صحته كما انه لم يكن رجل حرب ، فارسل اليه شقيقه محمدا الشيخ ، الذى كان قد صار اليه من محبسه بمكناس ، لقد وعده ابو فارس بانه ان تمكن من التغلب على زيدان ، فانه يجعل له فاسا ونواحيها على ان يكون عاملا من قبله عليها . وبذلك اشتبك في قتال مع زيدان ، الذى انهزم من وجهه ، ناجيا بنفسه الى وجدة ، ثم الى السوس ، لاجئا عند قبيلة امه (54)

لما تمكن الشيخ من فاس التى كانت من قبل تحت سلطانه مدة نيف وعشرين سنة ، أعلن نفسه ملكا عليها ، مستقلا عن أخيه ، أبى فارس الذى اصبح الان ازاء عدوين ، لهذا راى ان يهادن اخاه زيدان ،

ليتجرد لحرب اخيه الشيخ ، فكان ذلك الاتفاق على الاعتراف بكل منهما للاخر ملكا على ناحيته التى كان بها كما ان ابا فارس رغب من زيدان ان يتولى حرب اخيه الشيخ ، الا ان زيدان بعد استجابته لذلك ، رجع عنه كما سنرى ، فاضطر ابو فارس لارسال ابنه عبد الملك لينوب عنه فى حرب اخيه ، على حين كان الشيخ قد عين ابنه عبد الله ليحارب ابن عمه ، فحاربه وانتصر عليه ، وعاد عبد الملك الى مراكش التى مات بها على الاثر ، من اصابته بالطاعون .

وبينما كانت الحرب قائمة بين هؤلاء الملوك ، نجم ابن عم للمنصور (55) اسمه محمد بن ابى حسون ، فتظاهر اولا انه اتى لنصرة زيدان ، ولهذا ساعدته ام زيدان مساعدة فعالة ، على حين كان عبد الله قد استولى على مراكش ، فتوجه اليه محمد ابن ابى حسون لطاردته ، الا انه وقد تمكن من ذلك اعلن نفسه ملكا على مراكش .

والان نجد ابا فارس ، قد فر الى الجبال ، والشيخ قد ظل فى فاس ملكا عليها ، وزيدان فى سوس كذلك ، ومحمدا قد أعلن نفسه ملكا على مراكش ، كما تقدم ، فاصبح المغرب بذلك تحت سلطان اربعة ملوك حينئذ بادر زيدان بمحاربة محمد ، فانتصر عليه واستولى على مراكش ، ولقى محمد حتفه خارج المدينة .

وفى السنة التالية وكانت 1609 ، توفى ابو فارس ، واصبح زيدان اقوى الملكين . لهذا رأى الشيخ بعد هزيمة ابنه عبد الله ، وتشتيت معسكره بواسطة محمد المذكور ، ان ينجو بنفسه خارج المغرب ، فاتصل بايطالي راوده على ان يحمله فى سفينته مع امواله الى اسبانيا فتم ذلك سنة 1610 كما سياتى .

كان المغرب الى جانب هذه الحروب الفتاكة ، قد شملته المجاعة المميتة والطاعون الذى امتد امده طويلا ، وحول هذه الحالة المؤلمة كتب عدة كتاب انجليز ، منهم من كان بالمغرب ، ومنهم من اكتفى بالسماع فى تصويره ، واهم هؤلاء ثلاثة ، هم جورج ولكنس George Wilkins وجون سميث John Smith وآخر رمز لاسمه هكذا روس ، Ro. C. ويستظهر ان يكون روبرت سيسل ، كنت سلسبرى وسكرتير الدولة لجمس

فالاول كتب وصفه بطريقة قصة فنية ، مؤثرة للغاية ، باسلوبها الشعرى ، مع مبالغات كثيرة ، وخيال رائع ، وهذا لم يذهب الى المغرب،

ولكن احد اقاربه قص عليه القصة فصاغها في الوضع الذى قلنا ، وسماها باسم مصائب المغرب الثلاثة ، الطاعون ، والمجاعة ، والحرب الاهلية

اما الثاني فكان نفسه بالمغرب ، فكتب عنه ملاحظاته ، التى سجلها في فصول ، لم نعثر منها الا على فصلين ، الثامن عشر ، والثامن والعشرين وبناء عليهما فان طريقته في التسجيل كانت طريقة المؤرخ الحق .

واما الثالث ، فانه لم يكن بالمغرب ، فهو يستعمل في عرضه عبارة، قال محدثي ، وتسجيله هذا ، له الاهمية العظمى ، من حيث العرض المنظم والدقة وكونه تاما ، وقد عنون تاليف باسم ، الحديث التاريخي الحقيقي ، لثورة المولى احمد (محمد) على الممالك الثلاث ، مراكش ، وفاس ، وسوس وقد قسم وصفه الى اربعة اقسام ، مملكة مولاى احمد المنصور ، الحرب الاهلية بين اولاده ، الدين والحكومة ، مخاطرة انطونى شرلى

وهذه الاقسام ، يوزعها الى فصول ، فالاول قد كرسه على اصل العائلة المالكة ، ثم يتعرض الى عظم سلطان المنصور ، ومن الفصل الثالث بعده الى السادس عشر ، وهو القسم الرئيسي منه ، تعرض لتاريخ الخمس السنوات من هذه الحرب ، ثم نجد الفصل السابع عشر المخصص لمخاطرة انطونى شرلى بالمغرب ، وجميع الفصول مهم ، الا ما كان منها متصلا بالدين ، ففيه تلك الروح الخبيثة والغباوة الحقيقية او المصطنعة

وسننشر ترجمة الفصول المهمة من هذه الوثيقة او الكتاب ، وهي الفصول الخمسة عشر التى تبتدىء بالثالث وتنتهي بالسابع عشر

كما أننا سننشر أخرى مترجمة كذلك ، مما يتصل بهذه الحقبة العصيبة وقبل أن نتعرض لهذه الوثائق بالنشر مترجمة ، نرى من المفيد لنا ان نعود الى أواخر أيام المنصور ـ رحمه الله ـ لننشر فيها وثيقتين مهمتين ، والأولى عبارة عن رسالة كتبت بتاريخ تاسع او تاسع عشر من غشت سنة 1598 ، وكان قد بعث بها جورج طمسن George Tomson (56) السالف الذكر الى روبرت سيسل ايضا ، وهذه ترجمتها :

الى المبجل حقا

ولو انى اعلم ان سيادتكم على علم تام ، من جميع الجهات ، بالمهام من الامور التى يكتب فيها ، كما هو من هذه الجهات من المغرب ، وجميع الجهات الاخرى التى يزاول الشعب الانجليزى فيها تجارته ، فانا ،

مع كوني غير كفء ، أحدني مشجعا بفضل سيادتكم والرضى المتجاوز الحد الطيب الشهرة ، مما يحلني من هذه التقدمة الحقيرة ، وقد تجرأت على ان أقدم هذه المعلومات الضئيلة لاعرضها خدمة مني متواضعة ، حيث انه على الدوام تستهل عند أمر سيادتك بأقصى وسعي ، فان كان ، بأي حال، ذلك سيبدو حسنا ، فاني اعد نفسي محظوظا

بناء على الانباء اليومية ، التي تأتي من اسبانيا الى هذه الجهات ، فاني قد اجتهدت ان اكون مطلعا على بعض الحقائق لذلك الشعب ، لفهم الواقع تماما، ومن قبل بكثير استطعت أن أحيط بها ، لكني وجدت ملائما وقد تلقيت من خادم للسفير الاسباني (57) ، كما اعتقدت انه الاغلب لتصديقي ان اقوم ببعض التحقيق لتقريراته ، من قبل ان اتحمل على عاتقي تقديم ذلك من هناك الى سيادتك لتطالعها ، ليلا يكون في اول مسعى لي ما يشين بالكذب ، ولكن بعضا منها كان عن تجربة حقيقية ، لاستكشافاته ، كما كنت اتمنى ان يكون على قيد الحياة ، بحيث ان سيادتكم يمكنها ان ترتكن الى تحرياته ، ولو اني اعلم ان سيادتك لا تريد هذا ولكن في هذه الايام التي فيها الموت يغمر هذه البلاد بصفة عظيمة ، حيث يموت يوميا نحو 4500 شخصا الشيء الذي ربما تكون سيادتك على علم به من قبل هذا ، بواسطة بعض التقريرات الاخرى ، فقد مات السفير الاسباني ، وكثير من الاسرى التابعين له ومن بينهم كان صديقي المخلص ولهذا فان مسعاي الاول لا يمكن ان يضيف شيئا الى ما تطلبه سادتكم

وفي خلال هذا الموت المريع ، فان الملك مولاي احمد ما زال مستمرا في سكنى الخيام (58) ولكنه الان قد انحدر قريبا من مراكش ، بسبب احتياجه الى الجنود للحراسة لشخصه ، فانه يخشى جدا بعض الهجوم من عظيم الترك ، كما يخشى هجوما آخر من الاسبان ، حيث ان مؤمرة قد القي عليها ضوء ، واكتشف الدور الذي كان فيها لنائب ملك فاس ، وكان النائب المذكور يحظى جدا برعاية مولاي الشيخ ، ملك تلك النواحي كما ان جميع الناس معجبون به هناك ، كان النائب هذا يدعى القائد مصطفى ، وهو الناس معجبون به هناك ، كان النائب هذا يدعى القائد مصطفى ، وهو اسباني الاصل ، ارتد مسلما ، لقد ولد في اشبيلية ، من اب فلاح ، ولكنه بسبب الاكرام العظيم الذي كان يناله من الملك ، فانه كان في غالب الاحيان يود ان يتحكم في الملك ، وكان دائما يركب في اعظم موكب كالملك نفسه ، هذا القائد كان قد وعد ملك اسبانيا انه سيمكنه من مدينة

ذات مرفا ، تدعى العرائش ، الى جانب أشياء أخرى كانت له داخلية ، مثل نصيحته لولاى الشيخ أن يقتل اخوته ، وقد نشر بين أبناء الملك عداوة لدرجة ان الملك لم يستطع ان يصلح فما بينهم

ولهذا السبب فان مولاى احمد قد امر مولاى الشيخ ابنه ، بان يقطع حلقومه ، ويرسل راسه الى المحلة حيث ما زال مقيما بها وكيفية موته كانت هكذا ، فان مولاى الشيخ كان قد أرسل القائد مصطفى المذكور، ليقوم بتسلم الحبوب او الفريضة التى يجب ان تؤدى من قبل رعايا الملك ، وهذا الملك يعتبرها من خزينة ماله المدعى ، ولما بعثه الى ذلك ، كان عظيم يستغل ارسال الملك ويؤخر الوقت ومعه 5 او 6 مائة رجل جائمين قريبا من المكان الذى قصد ان يسلم تلك الحبوب . فلما رآه يؤخر الوقت بعث اليه بامره ان له امرا هاما يجب ان يتحدث معه فى شانه ولهذا عليه ان يعود ، وبناء عليه اتى مع خمس مائة فارس ، باعثا بكتابه الى الملك يعلمه بحضوره ، فخرج الملك للقائه ، ولكنه اصدر الأمر بانه حينما ياتى لتقبيل رجله ، فانه تغل ايديه ويحضر حالا الى مقتله معطيا فيه العهدة للاعدام ، لا للتمثيل به ، لا براسه ولا بوجهه ، لأنه قصد ان يرسل الراس المذكور الى ابيه . فجاء وترك القوات التى كانت معه من الفرسان فى الروض البهو قريبة من مجاورته ، واتى الى الملك ، مصحوبا فقط برجل من أصحابه ، وعلى امر الملك ، كانا معا قد قطع راسهما

وهكذا فان سيادتك قد سمعت الانباء الحاضرة وحالة هذه البلاد، ماذا سيقع فيما بعد لا أدرى وسيادتك فى غنى عن نبا كهذا طالبا العفو من سيادتك على جرأتى الغير اللائقة ، فتمنح صفحها عنى فى ذلك الازعاج الشاق بما لا طائل تحته

داعيا لصحة سيادتكم بالبقاء والدوام مع كل سعادة ، مودعا سيادتكم عند العلى القدير وحفظه وحمايته

خادم سيادتكم المقيد

ثم قبل وفاة احمد المنصور ببضعة أشهر ، كانت الملكة الزابث قد توفيت ، كما هو معلوم . وحيث لم يكن من بيتها من يرثها فى الملك فقد أعلن ملكا على انجلترا جمس الاول ، بعد أن كان ملكا على اسكتلندا وحدها باسم جمس السادس . وعلى اثر جلوسه على هذا العرش الموحد، نجد شخصية هامة من الانجليز تبعث اليه بتقرير عن المغرب ، وتغريه

باحتلاله . تلك الشخصية هي السفير السابق ، هنري روبرت الذي بعث بمذكرة الى جمس بتاريخ 3 ابريل سنة 1603 اى قبل وفاة المنصور بنحو خمسة أشهر وهذه هي الوثيقة الثانية التي ننشر ترجمتها كما يلي :

ان رعية جلالتك المخلص القبطان هنري روبرت ، الذي كان خادم صاحبة الجلالة ، المحلف الحامل للقب السيادة (59) ويرغب في ان يكون لجلالتك خادما - كان قد كلف ليكون نائبا لصاحبة الجلالة لدى ملك المغرب ، فقام بهذه المهمة طيلة ثلاثة اعوام ونصف ، حيثما استعمل احسن مسعاه للاطلاع على حالة هذه البلاد ، فوجدها عظيمة وغنية جدا بالمال والموارد ، وانها كانت بتلك الطيبة العظيمة التي تشبه ان تكون المسيحية فهي تدين بدين محمد وتعترف بالمسيح ، الشيء الذي ادرك انه ربما يتجز مشيئة الله العظيم فيها ، فينعم ويبارك سيادة جلالتك ، وتتيسر فيها الحركة التجارية التي يقوم بها التجار المواطنون ويمكن استعمال السفن المجهزة بالرجال ، وبهذا تنشر المسيحية الطيبة في ربوع العالم ، ان خادمكم باعظم خضوع يرفع الى سدتكم هذه الحقيقة ، ويضع تصميم مشروع حول ذلك ، يعرضه على جلالتكم آملا من ارادتكم الرشيدة ، ان تنيلوه الاعتبار كما يطيب لجلالتكم .

فيما يتصل بما تنتجه هذه البلاد فنلاحظ :

ان الارض خصبة جدا ، وطيبة واحسن جدا من الاراضي الاسبانية ، او اى ارض معروفة لنا ، فالقمح ، والشعير ، والقطاني ، كل ذلك موجود بوفرة وبمحصول سنوي جيد للغاية ، كذلك السكر والتمر الجيد جدا ، والعظلم ، والخمر ، والزيتون ، والعنب والجلود وجلود المعز والشمع ، والعسل ، والحرير الخام ، وملح البارود ، الذي يوجد هنا باعظم وفرة واجود من اى بلد آخر .

والطريق التجاري الى غنيا يكون بواسطة المرور ببحر الرمل « Sand Sea » كما يسونه بذلك ، بحيث ان جلالتك يمكنها ان تجعله بواسطة البحر . وهم ليس لهم سفن يذهبون بها الى هناك لاجل ان يجلبوا الذهب المسمى باسم «التبر» لكونه مصفى ، فنحن لذلك نسميه الذهب المغربي الجيد ، ولملك المغرب منه اعظم ذخيرة مكنوزة ، وكذلك يوجد هنا ريش النعم ، واعظم كمية من الحبوب ومحصولات اخرى كثيرة ، وهذا القطر الغني سيروج فيه كثير من سلعتنا ، كالثياب القطنية والملابس المتنوعة

الصوفيـة . ولهذا فانكم ستحدثون بذلك حـركـة عظيمـة وتـرويجـا جيـدا لسلـع بـلادنـا .

امـا الحيـوانـات فهـي :

الثعـالب ، والبقـر الضخـم العريض ، وكثير من الغنـم . وتوجـد وفرة عظيمـة من المعـز ، والخيـول السريعـة جـدا ، ووفـرة عظيمة ايضا من الجمال والبغال والحمـير والخنازير ، الوحشية ، والارانب والخـزز (60) واليحمـور (نوع معـروف من الايايل)وكثير من الاسود وحيوانات اخرى كثيرة جدا .

وامـا الطيور فهي :

العقبـان ، والصقور ، والحبـارى ، واللقالق ، والدجاج الغيني والدجاج التـركي ، والحمـام ، والحجل ، واليمـام ، والدجاج ، والديـرك ، وجميعهـا توجـد بكثـرة ، كما توجـد طيور اخرى كثيرة جدا

واما الفواكه فهي : جميـع انواع الفواكـه ، مثل البرتقـال ، والليمون ، والرمان ، والبطـاطـا ، (الحلوة) والبطيخ الاصفر والنخليـات (61) . وجميـع انواع الفواكـه والاعشاب الموجودة في اسبانيا ، وفرنسا وانجلترا بـل اجـود واوفـر منهـا .

كما انه معلـوم جـدا انه توجد هناك معادن غنيـة من الـذهب والفضة . ولكـن الملك لا يـريـد ان يطلـع على ذلك احـد لئلا تغـزى هـذه البـلاد من غـيره بسبب هـذا الغنى .

امـا القـوات الحـربيـة التي يستطيـع الملك تكوينها من الرجـال فهي :

مـن العلوج ، الذيـن ارتدوا (اسلمـوا) وهم احسن الجنود ، 4000 ومـن الاندلسيين الذين ارتدوا فاصبحوا مسلمين (62) واتـو من جبـال غـرنـاطـة 4000 ومـن زواوة ، الـذين هـم مسلمـون من اهل الجبال 1500 ، والاتراك واخـرون ، ممـن يكونـون اربعـين الفـا . وللملك الى جانب هؤلاء ما يزيد على 40.000 ، ويسميهـم مخازنيـة ، ومـم بتلك الكثـرة التي يتكـون منهـا حـرسه الخاص ، ولكـن من هؤلاء لا يوجـد 20.000 من الرجـال الصالحـين للقتـال

غـير ان الملك يمكنـه ان يحصل من رجاله الاعـراب على مائتى الف ، ولكنهـم لا قـوة لهـم ، لانهـم ما باشروا ابدا اى قتـال وما خاضوا حـربا ، الافـروا بعيديـن عن الميدان . ولهـذا فانهم يتسببون في الاضرار اكثر من

كونهم نافعين ، لانهم يحدثون الفوضى في قواتهم ويخلون باوامرهم ونظامهم

ولاضعاف قواتهم ، فانه يمكن ان يعلن عند الوصول اليهم ، انه لا اسير سيوخذ منهم ، بل ان الجميع سيكون حرا ممن ياتي ويسلم نفسه الى جلالتك ، وانهم اذا انتقلوا مسيحيين فانهم بذلك لن يتمتعوا وحدهم بالخيرات بل ان جلالتك ستمكنهم مما يتعيشون به هم وذووهم ويقيم اودهم منذ الان فصاعدا ، واما ان لم ينقلبوا مسيحيين ، فانهم سيتركون ليستفتوا ضمائرهم الى حين ، وحينئذ فانهم سياتون طائعين ويقدمون انفسهم لجلالتك ، كما يعلن انهم سيتمتعون كذلك بحقوقهم جيدا ، وانهم سيكونون احسن مما هم عليه ، اذا حكموا بالحكومة المسيحية فانهم سيتمتعون بما لم يتمتعوا به من قبل ابدا .

وهذا سيجعلهم في عدد عظيم ياتون الى جلالتك طائعين خصوصا ان فيهم كثيرا من الاسارى والسودان العبيد والمسيحيين . وهؤلاء العلوج الذين كانوا مسيحيين ثم انقلبو مسلمين (62) وهم الذين تسميهم ملحدين فان اغلبهم سياتون ، وهم احسن جنوده الذين جعلهم العمدة له . ولهذا فان اعظم قسم منهم سياتي طائعا ، والباقي سيفر الى الجبال ، التي سكانها ليسوا تماما مستقرين ، بل متغيرون في افكارهم وسينقادون بالكلمات الطيبة والوعود الحسنة ، اذ الحقيقة ان الملك نفسه يفعل معهم ذلك للاحتفاظ بهم تحت رعايته . وهكذا يفعل مع معظمهم ، ويعفيهم من الاتاوة ، بل يعاملهم دائما معاملة خاصة واما اولئك الاسرى فانهم ان جعلوا يفكرون انهم سيصبحون احرارا ، وانهم سيتمتعون بثمار اعمالهم فتكون لهم كما تكون للاخرين ، فان هذا لا محالة سيجعلهم ينصرفون عن ذلك الملك .

وهذه البلاد سهلة الاستيلاء عليها بقوات جلالتك ، فان لم يستول على هذه البلاد بواسطة بعض الامراء المسيحيين ، فان الاتراك سيستولون عليها ، ثم انهم سيكونون قريبا من جيرانهم الاسبان ، والفرنس والممالك المسيحية الاخرى .

وان جلالتك ان تمكنت من الاستيلاء على هذه البلاد ، فانها يمكنها ان تستولي وتتقدم اشواطا بعيدة الى حيث تريد ، حتى تصل الى غنيا ، التي هي غنية جدا ، سواء في الذهب وبعض المنتجات الاخرى .

وايضا فان جلالتك يمكنها ان تضايق الاتراك بشدة ، وان تتصل بكل الممالك المسيحية ، ولذلك فجلالتك يمكنها ان تذهب الى اسبانيا ، والبرتغال وفرنسا ، وايطاليا ، وتزعج جميعهم كما يطيب لجلالتك .

ولكن هذا لابد ان يحتفظ به في السر جدا وان يكتم عن الاسبان ، لانهم ان علموا بذلك ، فانهم جميعا يقفون في طريقه بكل ما يستطيعون وايضا ان حصل الاسبان على السلم مع جلالتك ، فانهم انفسهم سيسعون الى الاستيلاء على هذه البلاد . ولهذا فانهم سيسرون جدا من ان يحصلوا على هذه المسالمة في اسرع ما يكون ، لان هذه البلاد اغنى بكثير عدة مرات من اسبانيا نفسها .

وللاسبان بعض الموانىء في بلاد المغرب على الشاطىء منه ، مثل طنجة وسبتة ومازكان (الجديدة) وواحدة او اثنان زيادة على ذلك (63) فيجب ان يستولى على بعضها ، وحينئذ بعون الله ، يكون جميع الباقي منها مستولى عليه . وكذلك استولى الاسبان على حص بغينيا يسمى ايركنى (64) من حيث ان الاسبان يحصلون فيه على كثير من الذهب ، ويقومون بحركة تجارية عظيمة مع السود . وهذا الحصن يمكن ان يستولى عليه بقوة صغيرة ، وان ملك المغرب كان قد تداول معى في شان مكاتبة صاحبة الجلالة ، لارسال ثلاث سفن ، لنقل جنوده من هناك للاستيلاء عليه ، لانه يرغب في ان يكون له هذا الحصن .

فان طاب لجلالتكم ، ان تقوموا بهذا بواسطة قواتكم وقوات الاراضى الوطئة ، فان هؤلاء سوف يوفرون على جلالتكم كثيرا من السفن التى تريدها جلالتكم لنقل قواتكم .

وان جنود جلالتكم الارلنديين وهؤلاء الذين هم خارج الجزيرة سيكونون احسن الجنود فى العالم ليقوموا بهذه الخدمة ، في ذلك القطر الافريقى . وبذلك فان جلالتك ستحشد من هذا القطر عشرين الفا وان البلاد ستكون احسن طواعية بهم واكثر اخلاصا ، لان هؤلاء ماهم الا كسالى ، ولن يتحدوا ابد للعمل ، ولكنهم يظلون هكذا طول المدة التى هم باقون فيها بارلندا . وايضا فانه ينبغى ان يبعث منهم الى هذه البلاد رعايا صالحون ليقوموا بالتجارة والاحتلال ، وهذا سيجعل ارلندا بلدا عظيما .

وانى اعلم ان كنوز ملك المغرب تفوق ست مرات ما يتطلبه عمل هذه القوات ، ومع هذا فانى اعلم ان بعضهم سيكون هناك غير موافق تماما على هذه الفكرة ، وانهم سيعملون كل ما عليهم لتثبيط جلالتكم من ذلك . ولكن اولئك لهم اهتمام ضئيل ، للاستيلاء على عدة آلاف من النفوس، لوجه الله ، وان يجعلوا جلالتك العاهل الاعظم ، خليفة الله على الارض .

وانه بواسطة الغنى العظيم ، ستكتب العظمة والشهرة لذلك العمل العظيم والمشروع المجيد ، الذى لا يمكن به الا ان تتوفر المطالب ويحصل التوفيق، ويحفظ رعايا صاحب الجلالة فى انجلترا ، وارلندا واسكتلندا ، من الاختزان الباطنى ، والمؤامرات والخيانات والتمرد ، مما هو طبيعى ان ينجم عن هذه الحالة وهى معضدة بواسطة البطالة ، والاحتياج الى النفقة ، والمزاج الساخط ، وبذلك يوجهون نحو العمل المثمر وصرف طاقتهم بنوع اخص ، كما كان ذلك فى عهد هنرى الثالث ، وادورد الثالث، وهنرى الخامس ، وخلال الحروب المقدسة الصالحة مما كان منها بصفة خاصة مع فرنسا فلم تكن هناك خيانة تتصور ، ضد شخص الملك .

وقد احتفظت بهذا السر لنفسى ، هذه الخمس عشرة سنة لانى لم اكن قد رايت الوقت ملائما لاعلانه ولكن رايت انه مما يرضى الله ان اعرض هذا على جلالتك ، التى تسعى فى رضى الله ومجده ، ورفع كنائسه . وقد فعلت كثيرا جدا ، لوجه الله الذى سيجزى عليه ، ويكون له دائما . فان أرضى هذا العمل الله فانه سيتم بقليل من اراقة الدماء ، كما قد وضح ذلكم من قبل .

وهكذا نجد هذه الرسالة الجهنمية تتوجه الى جمس ، تحضه على احتلال المغرب ، الذى كان على ذلك الحين قد بدت عليه عوامل الانحلال ، بثورة الشيخ ، والشقاق الموجود فى البيت المالك ، ثم كارثة الطاعون الذى تلا ثورة الناصر ، وما حصلت فيها من اراقة الدماء . غير ان جمس لم يكن رجلا يتمتع بالطموح الذى كانت تتمتع به الزابث ، وانما كان مخلدا الى السلام ، وعاملا ما وسعته الحيلة على وضع حد للخصام الذى كان بين انكلترا وغيرها من الدول وعلى رأسها اسبانيا ، والى جانب ذلك ، فان اهواء الالزابيين لم تكن معه ، بل ان كثيرا منهم غادروا البلاد كما سنرى ، وقد نظر اليه من بعض الانجليز على انه رجل مختل العقل ، ومنذ سبع سنوات فقط صدر فى انجلترا كتاب ، باسم الملك المجنون العاقل جمس (65) .

ومهما يكن فاننا نجد هذا الملك ، يبعث بسفيره الى الوليد ابى فارس ، وقد حمله رسالة ، اجاب عنها الوليد بثامن عشر جمادى الثانية عام ثلاثة عشر والف (66) .

والملاحظ ان العلاقة استوثقت مع ابى فارس ، لا مع غيره ، لاول الامر ، وهذا طبيعى لان العاصمة فى حوزته ولأن الميناء التى كان الانجليز يترددون عليها عموما هى أسفى وهى فى اقليم مراكش حيث ابو فارس ، وكانت هى العاصمة الشرعية المعروفة للانجليز وغيرهم من ذى قبل ، وكان بها سفراؤهم مقيمين ، كما كان تجارهم كذلك . ولهذا وجدنا جمس يكتب الى الوليد مع سفيره مهنئا اياه بجلوسه على العرش ، ومجددا العهد بالصداقة القديمة بين ملوك المغرب وانجلترا ، ثم يتناول بعض المشاكل التجارية ، كما يفهم من الجواب الذى اجاب به الوليد فيما يلى :

(العلامة)

هذا الكتاب الكريم والمدرج المولوى الجسيم صدر عن الامر العلى النبوى المولوى الامامى الخليفى السلطانى الواثقى الحسنى لازالت الايام متجملة بشريف دولتهم وجهات البسيطة مشرقة بانوار معدلتهم بحوله وقوته .

الى الاصالة التى لها بين الملوك النصرانية الرفيعة المكان والقدر الثابت الاركان والمجد الذى يعترف به القاصى من قومه والدان اصالة السلطان الارضى الاجمل الاعقل الاصيل الانبل الأمير السلطان جمويس صاحب مملكة انجلطرة الذى نوثر ان يكون له فى الامم النصرانية والملل المسيحية مزيد الصيت البعيد والذكر الذى يبدئى فى تقويمه عند قومه وبعيد .

اما بعد حمد الله المنفرد بعظيم الجلال المخصوص فى الذات والصفات بما لا يحاط بوصف الجميل به كمال الكمال والدعاء لهذا المقام العلى الامامى النبوى السلطانى الحسنى بدوام النصر والاقبال والتاييد الذى تجرى على وفقه بحول الله الايام والليال بعزه وقدرته .

هذا وانه ورد على ابوابنا العلية بالله الشريفة واعتابنا السامية بعناية الله المنيفة كتابكم الاثير فقوبل بالتقدير وحل فى اعتابنا بالله بالمكان الرحيب فتعرفنا منه تهنيتكم لمقامنا العلى بالله بما اولانا الله تعالى بفضله من منصب الخلافة الموروثة عن آبائنا الائمة الكرام

والخلفاء العظام والامانة التى صرف الله الينا بها كفالة هذه الأمة الاسلامية بحول الله السامية الاعلام ووقفنا على ماتضاعف لكم بسبب ذلك من الفرح والسرور وابتهاج الافئدة منكم والصدور فشكرنا ذلك لمقامكم المكين شكرا جميلا واستوعب الثناء على ماقرر تموه لمقامنا العلى بالله من المحبة اجمالا وتفصيلا وانكم تودون لذلك ان تستمر مع مقامنا العلي بالله احوالكم ومسائلكم على نحو ماكانت عليه مع مولانا الملك رحمه الله مسائل اختكم فاعلموا ان الاحوال لا تزال ان شاء الله جارية على ما اسسه الاسلاف بين مملكتنا الشريفة بالله ومملكتكم وعلى ما يقتضيه من المجاملة والمواصلة بالخير صميم محبتكم ان داركم دارنا ودارنا العلية بالله داركم وهذا هو الذى يتعرف من مقامنا العلى بالله مكانكم واما ما ذكرتم من حاجة الذهب الواصلة لبعض تجاركم هنا فى حياة مولانا السلطان رحمه الله وأن ربها ما كان اسلمها حتى جاء كتاب السلطان رحمه الله بانه اذا لم تقع فيها المهاودة ترجع الى يد ربها فبعث بها حينئذ ثم فى اثناء هذه الحال تعرفتم خبر موت السلطان قدسه الله فطلبتم التعريف بما كان من امرها هل تخلصت ام بقيت الحاجة فترجع لربها ان لم يقع بيع ، فالذى نتعرفون فى مسالة هذه الحاجة انها كانت جاءت ووقعت فيها المقاطعة فى حياة السلطان رحمه الله على ايدينا ثم بعد ان مات مولانا رحمه الله خلصنا نحن ثمنها من بيت مالنا عمره الله الذى جاءت على يده ولم يبق لربها حق وهذا موجبه لكم لمكانكم المكين .

وفى ثامن عشر جمادى الاخرى من عام ثلاثة عشر والف .

(11 نونبر سنة 1604)

والظاهر ان هذه الرسالة كانت هى الاولى والاخيرة من ابى فارس الى جمس ، ذلك انه منذ هذا التاريخ لم يستقر له امر بالعاصمة التى كانت فى بعض الاحيان تسقط بيد ابن اخيه ، عبد الله ، وفى بعضها بيد اخيه زيدان او محمد بن ابى حسون ، واخيرا فى يد اخيه زيدان ، كما راينا ،

وبالاختصار فانه قضى معظم ايامه منهزما ، فارا من مكان الى آخر ، ومع ذلك فقد كانت له بعض العلاقات مع فرنسا واسبانيا والمانيا وخلال هذه المدة ايضا ، نجد شخصية عجيبة تلعب ادوارا خطيرة ، تلك شخصية الانجليزى ، انطونى شيرلى ، الذى كان بالمغرب ما بين سنتى 1605 و 1606 ،

فقد كان متصلا بابى فارس ، يتداول معه كسفير ، ولكنه لم يكن سفيرا لانجلترا ، بل لعدة دول ، وعلى راسها المانيا .

وقد كان يمثل دورا يشمل الدبلوماسية في أواسط آسيا ، حيث الصفويون ، الى غربي افريقيا ، حيث السعديون ، لقد كان يمثل دوره مع ابى فارس كسفير لالمانيا ، نائبا عن الامبراطور رودلف الثاني ، وكان موضوع السفارة ضد تركيا ، والحكام الاتراك بالجزائر ، والواقع انه كان يعمل باسم امبراطورين أثنين ، رودلف وفليبى الثالث الاسباني ، مصحوبا بثلاثة عشر من تراجمة المختلفي الجنسيات ، وحاملا معه توصيات حتى من الملك جمس نفسه ، فوصل الى أسفى على تلك الحالة ، ومنها بعث برسالة الى الوليد ، الذى اجابه باخرى ، مرحبا به فيها ، وآمرا قائد أسفى ليقدم له كل ما يلزمه من لوازم الضيافة وغيرها (67) .

كما انه كان قد حمل معه رسالة اخرى الى زيدان ، على سبيل الاحتياط ، ولكنه لم يحمل ثالثة الى الشيخ لانه كان يعلم ان هذا على علاقة طيبة مع الاتراك ، في ذلك الحين ، وخلال وجوده بمراكش ، كان يراسل شخصيات مختلفة باسم سفير للامبراطور الالماني وغيره لقد استقبله أبو فارس وتداول معه ، وظل على اتصال به ، الى أن كانت سنة 1606 ، حيث التقى بسفير هنرى الرابع الفرنسى الذى اتى ليحبط مسعى الامبراطورين الالماني والاسباني (68) وحينئذ ابحر الى اسبانيا واختفى من المغرب ، الى ان كانت سنة 1610 حيث عاد الى المغرب ، ولكنه لم يعد اليه سفيرا ، بل غازيا فى الحملة الاسبانية التى اتت لاحتلال العرائش ، كما سنرى بعد .

والى جانب انطوني شرلى ، نجد عدة رجال من الانجليز ، شاركوا فى هذه الحرب الاهلية ، منهم من كان مع زيدان ، ومنهم من كان مع الشيخ ، كما نجد فى تلك الوثائق التى اشرنا اليها ، فبالاضافة الى القبطان كيفرد وجماعته ، نجد آخرين ذكر بعض اسمائهم جون سميث فى فصله الثامن والعشرين (69) .

وبعد قصة الوليد وموقفه من جمس ثم انطوني شرلى ، ننتقل الى اخيه المولى زيدان .

لم يكن زيدان على صلة بجمس لاول الامر كما راينا ، فانه بالرغم من تمكنه من مساعدة الحربيين الانجليز ، كان على منأى من هذا

الاتصال، خصوصا وان هؤلاء كانوا من الالزابيين الساخطين على جمس، الذى كان يكره الحرب ورجالها ، سواء منهم رجال البحر ورجال الميدان، كما تجد ذلك فى تاريخ انجلترا ، لترفلين G.M. Trevelyan .

ويمكن ان نقول انه وحده الذى استخدم من بين الاخوة هؤلاء المسيحيين عموما والانجليز منهم على الخصوص فى جيشه ، اما الاخرون الذين كانوا فى جيش الشيخ ، فلم يكونوا على الحقيقة رجال حرب رسميين بل كانوا كما وصفهم رو. س. Ro. C. (70) قرصانا ولصوصا قد اغتصبوا سفينة فرنسية أتوابها الى المغرب بقصد بيع رجالها ، فاستولى عليهم رجال الشيخ ، واستخدموهم هم والفرنسيين فى احدى الحروب وعلقوا حريتهم على الانتصار فيها ، وفى رسالة لهو غلى (71) ان 600 من الانجليز ، التحقوا به ، وكانوا لصوصا على الشواطىء المغربية ، فقاموا لسلطان فاس بأعظم الخدمات (72) .

اما هؤلاء الذين كانوا مع زيدان فقد كانوا معروفين ، كما كانت مرتباتهم معينة كذلك ، تصل بعضها الى 25 شلينا فى اليوم بصفتهم ضباطا (73) يشعرون بشرف الخدمة العسكرية ، التى ماتوا فى ميدانها،

ومهما يكن ، فاننا نظن ان علاقة زيدان بجمس ابتدأت فى نفس السنة التى استولى فيها على العاصمة مراكش وهى سنة 1607 وان كانت الوثائق التى بأيدينا لا تسجل هذا الاتصال الا منذ سنة 1609 ، وذلك برسالة من زيدان الى جمس ولكننا مع هذا نذعن الى انها لم تكن الاولى اليه ، حيث لا تشتمل على اى تقديم او اشارة الى تهنئة من جمس او غيرها كما هو المعروف وكما سبق منه عند الاتصال بابى فارس فيما رأينا وهى تتعلق بمشكلة تجارية ،

والى القارىء ترجمة الرسالة المذكورة ، وهى بعد المقدمة الطويلة ، والديباجة المملة بترجمتها السقيمة ، (74)

هذا وكتابنا اليكم ، فى شأن تجار مملكتكم ، الذين يتاجرون بهذه البلاد ، فانهم قد طرحوا قضيتهم على حضرتنا العلية ، محتمين بحمى عدلنا وحصن رعايتنا ، وقد انهوا الينا ان الحاجزين الاسبان ، الذين حجزوا بعض بضائعهم من السكر الذى كان لهم ، ادعوا انهم وجدوه يتعلق بتجار من اسبانيا ، مع انه فى الواقع ليس كذلك فقد كان هؤلاء الاشخاص قد حصلوا على هذا السكر بوسائل مشروعة فى التجارة ، سواء ما يتصل منها ببيعه خارج البلاد ، وما يتصل باستبداله داخلها .

وعليه فليكن في علمكم كذلك ، ان بلادنا هذه ، بفضل الله ، محافظ عليها ، وعلى سمعتها خارج موانيها وداخل حماها ، متمتعة باحسن القوانين ، ملحوظة بالرعاية المثابرة ، ولا احد مهما كان يمكنه ان يرتكب فيها خطأ ، الا علم واطلع عليه ، كما انه لا احد يمكنه ان يراوغ اى تاجر او غيره ، ممن ياتون الينا من الخارج ويقيمون بين اظهرنا وتحت سلطاننا .

وحقيقة الامر ، ان ذلك السكر الذى قد حجز هناك ، من هؤلاء التجار ، ووضع تحت الحجر ، كان لهم من جلالتنا فيه طيب السماح واذن قانونى يمكنهم من الاتجار فيه ، بناء على الطريقة المثلى المتبعة عند رجال التجارة ، الذين يزاولون فى هذه البلاد تجارتهم معنا ، وقد حصلوا عليه منا بوسائل التبادل ، بناء على ما هو معروف بين التجار هنا ، وفى جميع البلاد من العالم ولا احد يستطيع ان يناقض هذا الامر ، وحسب ما هو مشروع من حضرتنا الملكية ، فانكم ينبغى لكم ان تخلصوا هؤلاء التجار ، من هذا الجور العظيم الذى حل بهم ، حيث انهم اضطروا الى الالتجاء الى حمايتكم ، وآثروها على اية حماية من غيركم ، فانهم حينما يرون ان بضائعهم قد حجزت منهم ، ولا وسيلة لهم فى استردادها بل عليهم ان يذعنوا الى فقدها بالجبر ، سيتألمون جدا ، وسيحجمون عن الاتجار بهذه البلاد مرة اخرى ، ولا شك ان بلادكم ستلاقى من هذا اضرارا اكثر مما تلاقيه اية بلاد اخرى .

وفيما يتصل ببلادنا ، فانها بفضل الله ، تموج بعدة اجناس من التجار، الذين ياتون اليها من مختلف ربوع العالم ، متمتعين تماما ، بالعدل فى حكمنا ، والمساواة فى قضائنا ، مرتدين برداء رعايتنا ، حيث يجدون انفسهم فى امن وسلام ونعمة على الدوام ، ولهذا فانهم دائما يلهجون بما هم عليه من طمانينة وهناء ، وهو ما نحافظ عليه آناء الليل واطراف النهار ، وبذلك فان هذه البلاد ، ولله الحمد ، غير متوقفة على اية حركة تجارية اخرى ، ومن اى جنس من اجناس التجار الاخرين ، فالتجار ببلادنا كثيرون جدا ، تزدحم بهم الاسواق عندنا فلا بلادنا فى حاجة ملحة اليهم ، ولا هم سينفعونها باتيانهم ويضرونها بانقطاعهم .

وما قصدنا اولئك التجار ، الا وهم مستنيرون بنور عدالتنا ، ومستبشرون برحمة قضائنا ، وقد لوحظ ان اولئك الذين نزل بهم هذا الجور ، وارتكب فى حقهم هذا الخطأ ، من غير حق ولا صواب ، عمدوا الى

حمايتنا ، واستظلوا بظلنا ، فكانوا في حرز وامان ، وسكنوا حيث اطمأن بهم المكان ، وعايشوا غيرهم في سلام ، مشمولين بعطفنا ورأفتنا ، حيثما كانوا من ديارنا في حل وارتحال .

وحينما تقدموا الينا بشكواهم ، واطلعونا على ظلامتهم ، وعلى الاضرار التي الحقت بهم ، تأكدوا من تأثرنا لهم وعزمنا على الاخذ بيدهم ، اذ اطلعناهم على ان العدل الذي اعتاده منا رعايانا ، والفضل الذي يدينون به لجلالتنا ، لن يقصرا عنهم وسيوضعان رهن قضيتهم ، وان طابعتنا الملكي ليثبت الذي قيل ، ويبرهن على حقيقة ما في هذه الرسالة .

وعليه فيمكنكم ان تتأكدوا من هؤلاء ، انهم برآء ، ومحقون في قضيتهم التجارية ، بل انهم نافعون لبلادك ، ويعقلون الامال على عدلك ، ولا يقصرون في تزكية مدخولك وتنمية فوائدك ، فلنترك هذا الى رعايتك الملكية واهتمامك السامي ، مطمئنين انهم ، مهما حل بهم من بلاء ، فانك لن تتخلى عنهم ، او تضيع حقهم .

وكتب في الخامس عشر من ربيع الثاني عام ثمانية عشر والف

(18 يليه 1609)

المترجم : كوبدول (75)

ومن الوثائق القيمة التي كتبت في هذه الحقبة ، وثيقة امضيت بهذه الحروف .Ro. C (76) أشرنا اليها ، وبعث بها صاحبها الى السير روبرت كتنكتن فارس كننكتن Sir Robert Cottington of Cunnington Knight وهذه الوثيقة عبارة عن تاريخ موجز لهذه العائلة ، وان كانت بعض فصوله تحتوي على حقائق مفصلة ، لاتسعفنا بها حتى الآن مراجعنا العربية .

ومن اهم فصول هذه الوثيقة ، الفصول التي تبتدىء بالثالث وتنتهي بالسابع عشر منها ، لهذا ترجمناها كلها بما يلي :

الفصل الثالث

كان مولاي احمد الشريف المتوفى ، واب هؤلاء الاخوة الثلاثة ، الذين يعيشون الان في تطاحن بينهم على الملك ، حينما ادركته الوفاة قد ترك

خمسة اولاد على قيد الحياة : الاكبر مولاى محمد ، الذى يدعى عموما مولاى الشيخ اللقب الذى يعطى دائما للاكبر من اولاد الملك الثانى ابو فارس وكان الولدان كلاهما من امرأة واحدة سوداء (77) احدى حظاياه ، والابن الثالث ، مولاى زيدان ـ الذى كان من احدى ازواجه ـ (78) والابن الرابع، مولاى الناصر ـ الذى كان فى نحو التاسعة عشرة من عمره ، والخامس مولاى عبد الله ـ الذى كان فى نحو الرابعة عشرة من عمره ، وعند وفاة الملك الشيخ احمد المنصور لم يكن هذان الاخيران قد ادركا السن القانونيه ، وهما ابنا حظيتين مختلفتين وكان هذا الملك المتوفى قد اقام ايام حياته الثلاثة الابناء الكبار ، نوابا عنه على مختلف نواح من المملكة ، ليحكموها فيها باسمه ، فاعطى مولاى الشيخ ، اكبر ابنائه ، مملكة فاس ، المملكة التى كانت منذ العهود السالفة مخصصة من قبل ملوك المغرب الغابرين لاكبر ابنائهم واقام مولاى ابا فارس على مملكة سوس . اما مولاى زيدان فانه اعطاه ناحية تادلة التى تقع فى منتصف الطريق بين مراكش وفاس ، وبقى معه فى بيته ابناه الاصغران اللذان بسبب حداثة سنهما، لم يعينهما على اية ناحية من نواحى مملكته . لقد حكم الابن الاكبر مولاى الشيخ ، ايام شبابه ، فاسا والنواحى التى تليها من المغرب ، مع اعظم قبول ورضى من والده ، وتحت استشارية الباشا مصطفى (79) احد الاسبان المرتدين ، وكان هذا الباشا فى سالف الايام قد نشأ معه فى الفضل الشامل والحظوة العظيمة وهكذا فان حكومة مملكة فاس قد وضعت جميعها فى يد مولاى الشيخ ، وكان عليها قواد البلاد الذين هم طبعا من اصل مسلم ، فكانوا باستمرار يتصلون بالملك ويوغرون صدره على الباشا المذكور حسدا منهم على عظمته ، فيثيرون مختلف التهم حوله ، وينهون الى الملك انه علم مولاى الشيخ ان يشرب الخمر الشيء الذى يخالف القانون عند المسلمين ، الذين حرم عليهم ذلك نبيهم محمد ، وانه الان فى يده كل الحكومة لمملكة فاس ، التى هى تحت ابن الملك ، وانه عزم بعد تمكنه من بيت مال مولاى الشيخ على ان يفر ، ويحمل ذلك المال معه الى بعض الجهات من الممالك المسيحية ، كل هذا اثار ريب الملك الاب حول هذه الاحتمالات التى صارت تترجح فى ذهنه فاعتقد كون ذلك حقا ، وعلى هذا دبر هؤلاء القواد معه اخيرا انه ينبغى ان يرسل الى ابنه مولاى الشيخ ، فيامره بارسال راس القائد الباشا ، الامر الذى جعل مولاى الشيخ ، على كل حال ، وهو يحب كثيرا الباشا المذكور ويفضله ، يتأنى اولا فى انجاز هذا الامر ، ولكن بعد عدة رسائل ، فان الملك ارسل

اخيرا خادما اليه ، ليشهد تنفيذ الاعدام ، فكان الشيخ مضطرا جدا وضد ارادته ان يجعل ذلك الامر ينجز .

في السنوات الاولى من شباب مولاى الشيخ ، حينما كان هذا الباشا على قيد الحياة ، لم يكن اى ابن من ابناء الملك يئودى واجباته في خضوع نحو ابيه كما يفعل هذا ، ولاكان اى عمل منهم يسر منه الملك الشيخ كعمله ، لدرجة ان جميع المملكة كانت تتمنى ولا يته العهد ، وخلفه لابنه بعد وفاته ، وكان تمنيها هذا ، لمولاى الشيخ وحده ، وعلى ذلك وبواسطة تولية الملك له باختياره ، كان جميع القواد الرؤساء ورجال القيادة الذين كانوا في الدولة ، يئودون اليمين ، بان يتعهدوا بالولاء والاخلاص نحو مولاى الشيخ ويبايعوه بعد وفاة الملك الاب (80) .

وفي ذلك الوقت كان ابو فارس الابن الثاني ، بسبب الطاعون العظيم الذى انتشر في سوس ، وبسبب تفرجات ومشاغبات اخرى تلقاها من اولئك الذين ثاروا ، لم يطل اقامته هناك ، بل عاد الى ابيه بمراكش ، حيث مكث مع ابيه حتى فصل معه الى فاس في شهر شتنبر سنة 1602 .

اما مولاى زيدان الابن الثالث ، فانه استمر في تادلة (اقليم خصب يقع في سهل من المغرب وفي منتصف الطريق بين فاس ومراكش، كما قلت لك) يحكم هذه الجهات في سلام وامن عظيم ، حتى في الايام العصيبة لتلك الثورة التي كانت في الحكومة المتاخمة لاخيه الاكبر مولاى الشيخ ، والتي ستقرأ عنها بعد وعلى العموم فانه كان موفقا ومحبوبا من كل من ابيه وجميع المملكة بسبب حكمه العادل ، مع كونه شديد المحافظة على تنفيذ الحكم حتى ولو كان بالاعدام ، حسب الاجراء القضائي الذى يطبق على هذه الجهات التي كان يحكمها : لا يحابى اقاربه او اقرب اتباعه في هذه الاحوال . ومنذ طفولته ، كان طبعه يكره جميع انواع الاغتصابات مهما كانت ، خصوصا من هؤلاء الذين يقطعون السبل باغتصابهم ، فيعاقبهم بشدة وبدون شفقة او رأفة .

وعلى كل حال فانه تحمل كل مايفرضه الواجب نحو ابيه تحملا جيدا حيثما كان يقيم ، ومنذ كان طفلا وهو ذو طبع تواق ونفس عالية ، مما جعله لا يخضع ابدا لاى اعتبار ، غير مرضى نحو اخوته الكبار ، بل كان يخاطر بكل حكومته للحصول على الملك ، معتبرا نفسه الابن الشرعى لابيه ، لانه كان الابن البكر له ، لم يكن له غيره من نسائه اللائى تزوجهن .

وبناء على هذا فانه لا يعترف بالعادة والقانون المتبع من المسلمين (62) ذلك القانون الذى يعمل به فى وراثة الملك او الخلافة عليه ، ولا يحترم الام ، غير الزوج ، تلك الى تكون حظية مبيعة بالمال ، ثم يصبح ابنها الابن البكر للسلالة .

الفصل الرابع

لنعد مرة اخرى الى مولاى الشيخ ، الابن البكر للملك ، فنجده بعد موت الباشا مصطفى ، الذى قطع راسه بيد قائد ابيه ، سرعان ما برهن للجميع على فسادالحكم الذى هو عليه ، اذ انه فى ايامه الاخيرة ، صار مكبا على الشراب وعلى رذائل اخرى شنيعة ، مما يعتبر بين المسلمين والرأى العام من كبائر الذنوب ، غير متورع فى ذلك ولامراع ما يقتضيه مقامه حاكما لمملكته ، بل انه جعل خدامه وحاشيته ورجال جيشه يعملون ما يريدون ، ويسرقون وينهبون امتعة الناس ، ويجورون على ذوى الافكار الشريفة من رعاياه ، بدون وازع منهم او مراقبة ، فيحاكمون بقساوة وبدون اعتماد على العدالة ، الى ان اصبحت جميع البلاد فى وقت قصير تمج بالناهبين والغاصبين فى الشوارع العمومية ، اما السفر فانه تعذر على الناس ، بحيث صار لا يجزأ احد عليه داخل ولايته ، الا فى قافلة تتالف من ثلاث مائة او اربع مائة رجل ، فى كل رفقة ، وفى بعض الاحيان ، لم يكونوا ينجون من أيدى الغاصبين الابمشقة عظيمة .

وكذلك نجد هؤلاء العرب الذين ما زالوا الى يومنا هذا ، قبائل وعشائر ، يسكنون الخيام ويقطنون الغيطان ، وهم اصحاب زراعة فى هذه البلاد ، وفلاحة لاراضيها ولهم مواش يقومون على رعيها ، هؤلاء نجدهم وقد تفرقوا لا يجتمعون على سلام بينهم ولا يشملهم هدوء فى مثواهم يحصدون القمح ويجنون الثمار ويستغلون الارض ، ولكنهم يرفضون ان يؤدوا لهذا الملك ما عليهم من واجبات فرضها عليهم ، بل يتعقبون خدام مولاى الشيخ فى الحقول ، ويترصدونهم فى طريقهم الى المدينة ، ناهبين لكل مسافر يقع فى قبضتهم ، وهكذا كانت نتائج حالته هذه المفرطة فى الانفاق ، والمبذرة لمالية مملكته ، بحيث انه صار فى مجونه لا يلقى حسابا لما يعطى ولا لمن يعطى ، لدرجة ان يهوديا مطربا كان يتخذه للقيام بادوار يمثلها امامه ، اوقات شرابه وقصفه ، حصل له مما كان يعطيه من اموال ، وما كان

ينال من هدايا امرائه والمنتمين الى بيته جواهر واموال ، خلال مدة اربع او خمس سنوات ، ما يقدر باربع مائه الف دوكة ، اى حوالى اربعين الف جنيه استرليني .

فهذه الحياة الدعرة والحكم المستهتر الذى كان عليه مولاى الشيخ ، احزن الملك الوالد وساءه كثيرا خصوصا وقد شاهد منه ذلك التغيير او التحويل ، عما كان عليه فى الايام السالفة ، حيث كانت جرأته سندا له ، فجعله هذا يستدعى قواد مملكته ويحملهم على ان يؤدوا اليمين على ان يخلصوا له ولا يخونوا امانتهم بعد وفاته ، حرصا منه على اصلاح ما كان قد ارتكبه من اخطاء فى هذه الجهات وتدارك الامر من عدة طرق حاول سلوكها ، وان يوجه ولده الى غاية اكثر استقامة فى شوطها، فيجعله اكثر اعتدالا فى حياته واكثر احتياطا فى حكمه ، وهكذا حاول ان يرشده برسائله العديدة وبوسائل القواد الذين كان يرسلهم اليه لهذه الغاية ، وكانوا على اهميتهم يسدون النصح اليه ، ولكنه قلما ابدى لهم استعدادا لقبول هذا النصح او اذعانا لتلك الرسائل ، بحيث ان الملك الوالد ادرك فى النهاية ان لا جدوى من هذا كله ، وان الحال فى المملكة تزداد سوء يوما بعد يوم ، وانه لا محيص من اتخاذ وسائل اخرى لحفظ السلام والنظام ، وبذلك صمم على الذهاب بنفسه الى فاس ، مستصحبا معه قوة من جيشه ، قصد ان يعزل ابنه عن دست حكمه ، بعد ما رفض هذا ان ياتى اليه طائعا وقد كتب اليه بذلك ، ليعرض عليه القضايا التى حصلت فى هذه الجهات ويضعها موضع الدرس ، وكانت فى الواقع خارجة عن الاطار الذى وضعه لابنه ، بسبب ذلك الحكم الغاشم

وعلى هذا التصميم كان الملك الوالد يبعث ، فى فاتح اكتوبر من سنة 1602 ، قوة تحتوى على ثمانية آلاف فارس ، وغادر مراكش تاركا ابنه الثانى مولاى ابا فارس حاكما عليها وعلى سوس فى غيبته ، وقد استعجل فى رحلته هذه ، بحيث انه اتصل مع قواته على مرحلة يوم من فاس ، قبل ان يكون ابنه الشيخ قد علم بحقيقة انتقاله من مراكش فلما علم بكون ابيه قريبا منه ، ولم يكن آنذاك قد استعد لمقاومته اراد ان يفر الى تافللت ، ولكن الباشا مصطفى (81) سد عليه المنافذ ، وطارده الى ان اضطر للاحتماء (82) مع خمس مائة من احسن جنود كانوا يجيدون الرماية ، ومزودين جدا بالعتاد ، فلما رأى الملك الاب ان ابنه قد احتمى بقداسة المكان (83) (الشيء الذى يحترم جدا فى تلك البلاد) طلب منه ان

يقدم عليه خاضعا طالبا للعفو ، فابى مولاى الشيخ ، اما عصيانا منه واصرار عليه ، او خوفا من كونه لا يستطيع تادية حساب جيد عن الخمس والعشرين سنة التى قضاها فى حكم فاس ، فحينئذ امر مولاى احمد القائد مصطفى ، احد باشوات زيدان ، كان الان فى خدمة مولاى احمد الاب ، أن يتولى قيادة ثلاثة آلاف رجل ، ويحلل بالقوة ، على أى حال ، ذلك المكان ، فانجز هذا مهمته ، واتى بالشيخ اسيرا ، مع رجاله الذين بقوا على قيد الحياة بعد النزال ، فطلب الملك الاب ان يحضر اليه ابنه كيفما كان ، ثم عهد به الى الباشا جوذر ليحتفظ به عنده حبيسا ، فى احد المواقع الهامة التى كانت ازاء معسكر الملك ، ثم حمل الشيخ الى مكناس ، احصن مدينة للحامية وهناك ظل حبيسا الى ان كان موت ابيه ، بعد خمسة اشهر من الحادث .

كان الملك الاب فى رحلته الى فاس ، لمعاقبة ابنه ، قد مر باقليم تادلة ، ومن هناك استصحب معه ابنه الثالث ، مولاىز يدان الذى عهد اليه بحمل اهل بيته معه الى فاس ، وذلك من الزيدانية (المدينة التى كان قد بناها بتادلة ، ونسبها اليه (84) ، وكان فى قصد الملك الاب ، ان يتركه نائبا عنه فى هذه الجهات من اقليم فاس ، بدل ابنه الاكبر ، الذى كان قد عزم على حمله معه حين التمكن منه ، فكان حبيسا فى مكناس ، الىمراكش ، وهذا ما كان سينفذ ، لولا انه عيق عنه بموته الفجائى ، فى شهر غشت من سنة 1603 ، على حين كان قد رتب كل شىء وجعله على استعداد ، ورد الامور الى نصابها فى هذه الجهات من فاس ، (85) فتهيا للعودة الى مراكش ، وقد امر بتقويض خيامه التى كانت قائمة خارج ابواب فاس ، لكنه سقط مريضا مرضا فجائيا ، وسرعان ما اشتد به ذلك المرض ، بحيث انه فى يوم الخميس احس به وفى يوم الاحد صبحا ، وكان العاشر من غشت سنة 1603 توفى (86) .

الفصل الخامس

مولاى زيدان يعلن نفسه ملكا بفاس ، مولاى ابو فارس بمراكش ، مولاى الناصر كان سيفعل المثل بتارودانت ، ولكن عيق عن ذلك . موت الناصر .

لقد علم مولاى زيدان من امه للا عائشة التى كانت تتحكم فى بيت الملك الاب ، بموت ابيه من قبل ان يكون النبأ قد طير بذلك ، وفى الحين ذهب الى معسكر ابيه ، حيث حمل كل ماكان هناك من متاع ، كالجواهر والاموال وكل ما وجده هناك ، ثم سفر عن قناعه بفاس فاعلن انه ملك المغرب ، كوارث شرعى لابيه المتوفى (87) .

اما للاجوهر (88) ، ام مولاى الشيخ ومولاى ابى فارس ، فانها وقد رأت ابنها الاكبر فى السجن مقطوعا عن كل الوسائل لتخليص نفسه ، لم تكن غافلة عن ابنها الثانى ابى فارس ، الذى تركه الملك الوالد ليحكم على مراكش ، فى غيبته . فبعثت اليه فى الحين رسالة مع احد اخصياء الملك ، فاسرع هذا ، بحيث انه فى أربعين ايام كان قد وصل من فاس الى خيامه ، التى كانت بعيدة عن مراكش بفرسخين ، حيث كان مقيما ، كل الصيف من قبل ، متنكبا بذلك عدوى الطاعون الذى كان فى ذلك الصيف فاشيا بمراكش ، وكان معه الاخ الاصغر مولاى الناصر ، وابن اخيه الاكبر مولاى عبد الله . فلما علم مولاى ابو فارس بموت ابيه ، دخل مراكش فى الحين ، واحتل القصبة التى كانت دار ابيه . وحصل على ورود الاخبار بموت ابيه جلبة وضوضاء فى الخارج ، فاعلن للعموم ، هذا النبأ ، طالبا من القواد والشعب بمراكش ان يكونوا منضوين تحت لوائه . وقد ادرك انه حينما تمكن من القصبة ومن كنوز ابيه ، فانه يكون بذلك قد احرز على احسن ناحية من المملكة . وهكذا فانه فى اليوم التالى من دخوله مراكش ، اعلن للعموم وفى جميع انحاء المدينة ، خبر موت والده كما انه اعلن عن كونه ملكا بعد ابيه (89) ، باعثا برسائله الى نواب سوس ، بأن يقوموا بمثل هذا الاعلان في تارودانت ، المدينة الرئيسية فى ذلك الاقليم ، وتفذوا ذلك كما امر .

لكن مولاى الناصر الابن الرابع للملك المتوفى ، والذى كان طيلة الصيف خارجا عن المدينة مع اخيه ابى فارس ، لما علم الان بموت ابيه ، تظاهر باتباع ما دبره اخوه ، وانه سيدخل مراكش معه . فلما انتهى الى ابواب المدينة وكان معه مدلاى عبد الله ، ابن اخيه الشيخ ، وعائلته وجميع من كان خدماله ، دبر معهم الفرار الى الجبال ، مغريا مولاى عبد الله ومحذرا بأنه لا ينبغى له ان يضع ثقته ، بأى سبيل ، فى ابى فارس ، ذلك ان اباه وهو كانا العائقين الاساسين اللذين عاقا ابا فارس عن ادعاء الملك لنفسه بوسيلته الشرعية ، لان أباه

مولاى الشيخ هو الابن الاكبر للملك الاب ، وهو الابن الاكبر لابيه ، وزيادة على ذلك فان اباه كان بالسجن قريبا من فاس ، حيث كان مولاى زيدان ، ومن المشكوك فيه ان مولاى زيدان مازال حتى الان محصلا عليه فى قبضته ، اذ يمكن ان يكون قد اتفق معه على ان يجتمعا معا على حرب ابى فارس ، الشيء الذى ان كان قد وقع فعلا ، فانه سيبعث ابا فارس على ان يعامله اقسى معاملة . ولكن هذا الاغراء والتحذير لم يؤثرا فى عبد الله ، الذى يظهر انه كان يفضل دخول المدينة ويتبع عمه ، الذى اصبحت بيعته حقيقة واقعية . وعلى هذا فان الناصر ظل خائفا مما عسى ان يعامله به ابو فارس ، وخف بكل سرعة لاجئا الى الجبال ، حيث اقارب امه ، ومن هناك بعد بضعة ايام كان مع ثمان مائة او الف من هؤلاء الناس الذين جمعهم عليه ، وسار بهم الى سهول سوس، باعثا الى قواد تارودانت بان يعلنوا ملكيته عليهم ، او يجعلونه يرتحل عنهم، فى هدوء وسلام ولكن القواد ، وقد كانوا من قبل قد اعلنوا ملكية ابى فارس ، عارضوه ، فلم تقم له قائمة ، ولا كانت عنده وسيلة لاداء مرتبات جيوشه ، والقوم الذين كانوا قد اجتمعوا حوله . وسرعان ما ترك الجميع ، ورجع عائدا الى اقارب امه ، فعاش فى خمول هناك نحو اشهر سبعة ، ثم مات بالطاعون ، او كما يقول بعضهم ، سم سرا ، فاتى به الى مراكش حيث دفن بها (90) .

الفصل السادس

ثورة القائد احمد بن منصور ، مولاى الشيخ يسلم سجينا الى ابى فارس، مولاى زيدان يبعث قوات الى اخيه مولاى ابو فارس يعمل المثل ضد زيدان .

ولكن لنعد الى فاس وتلك الجهات فنجد انه على اثر موت الملك الاب ، كان زيدان قد اعلن عن نفسه ملكا فى فاس . وابو فارس كذلك بمراكش وسوس ، اما مولاى الشيخ فانه كان لما يزل سجينا بمكناس فى عهدة الباشا جوذر ، وكان الجيش معسكرا فى الخيام ، خارج ابواب فاس ، فبدأوا يتمردون ، من اجل مرتباتهم عن ستة عشر شهرا مضت ، وكانت تلك المرتبات فى ذمة الملك الاب ، ومن اجل رجوعهم ايضا الى مراكش ، حيث كان معظمهم قد ترك أزواجهم واولادهم ، فلاجل

تهدئة هذا المتمرد ، بعث زيدان من فاس اليهم القائد احمد بن منصور ، قائدهم الرئيس ايام الملك الاب ، ليعدهم هذا بمرتابتهم التى ترضيهم ، وبعودتهم فى اقرب وقت الى مراكش ، مع مولاى زيدان نفسه ، لكن ابن منصور بدلا من هذه التهدئة ، عمل على تنمية مزاجهم الثائر ، ثم انه فى النهاية اتفق معهم ، فجأة وفى الليل ، على اخذ معسكرهم ويذهبوا به معه الى مراكش ، زاعما لهم ومصرحا بان اداء مولاى زيدان غير محقق كما ان الامل ضئيل فى اية رحلة ستكون الى مراكش (91) . ولما كان سائرا فى طريقه قريبا من مكناس ، حيث كان الباشا جؤذر محتفظا بمولاى الشيخ اسيرا ، كتب الى الباشا المذكور ، ليعلم نيته فيما اذا كان سيذهب معه الى مراكش ام لا .

فحضر الباشا اليه ، واحضر معه مولاى الشيخ ، الذى ساقاه امامهما اسيرا الى مراكش ، وسلماه الى اخيه ابى فارس . فاحتفظ هذا به حبيسا فى بيته ، اربعة او خمسة اشهر ، الى ان كان اتيان مولاى زيدان لمحاربته ، وقد ظن انه بهذه الوسيلة قد ثبت الملك تماما لمولاى ابى فارس ، الذى هو الان الى جانب امتلاكه لمدينة مراكش وبيت مال ابيه ، قد جلب اليه اعظم قسم من قوات ابيه واحتفظ باخيه الاكبر اسيرا فى قبضة يديه .

ولما كان مولاى زيدان قد خانه ابن منصور وكان قواد آخرون من الرؤساء قد فصلوا عن فاس سرا ، وغادروه ، فقد بعث مصطفى احد مرتديه (الذين اسلموا) والذى جعله باشا ، مع الفين من الرماة ، وبعض الفرق من الفرسان الى تادلة ، ليتسلم من اعرابها الخراج الذى كانوا دائما يؤدونه للملك ، وليقف دون من عسى ان يجده يفر من هناك الى مراكش فيعود به الى فاس ، ويحافظ بذلك على مركزه فى اقليمه ، كما انه اعد تعبئة من الفرسان والرجال فى فاس ، لتكون دائما على استعداد ، لتصحبه شخصيا اذا مادعت الى ذلك الضرورة ، وقد احتفظا معه فى فاس بجملة من القواد الرؤساء ، مثل عزوز كبير المستشارين ، للملك المتوفى اخيرا ، وامين بيت المال ، وبوكرزية (92) واخرين متعددين .

وكذلك مولاى ابو فارس فى مراكش فانه لم يضيع فرصة للقيام بتعبئته للجيوش وحشدها ، استعدادا لارسالها حربا عليه . وقد بعث اولا القائد كوى (93) مع ست مائة من الرجال ، ليقوم باعداد المؤنة من قمح وغيره ، مما يجلبه من الاعراب . ولما وصلت اليه

بعض اخبار مؤكدة عن مولاى زيدان وقواته التى ارسلت الى تادلة ، بعث الباشا جؤذر ، على قوة من خمسة آلاف رام ممتاز ، مع بعض قطع من المدفعية ، وفرق من الفرسان لاحتلال تادلة ، ولمحاربة مصطفى ، قائد قوات زيدان ، او ارغامه على الانسحاب من ذلك الاقليم .

وعلى اتيانه هناك ، راى مصطفى نفسه ، لاطاقة له بمحاربة جؤذر فانسحب عائدا مع قواته الى خارج تادلة ، اما جؤذر فانه هدم تحصينات ذلك المكان التى لما كان مولاى زيدان بتادلة ابتدأ ببنائها (94) على النهر أم الربيع ودعيت لذلك الزيدانية وقد فعل هذا جؤذر ليلا يتحصن بها رجال زيدان وكذلك افسد وهدم ماكان حوالى القطر من الحصون، ليلا ياتى اليها بعض العشائر من الاعراب ، كما انتهى الى علمه ذلك ليكونوا فى صف مولاى زيدان ، او ياتى اليها اولئك الذين هم حتى الان لا يعترفون بمولاى ابى فارس ملكا .

ولما علم زيدان بما فعل جؤذر فى تادلة واطلع على تلك الاستعدادات الحربية التى يقوم بها اخوه فى مراكش ، وحشده للجيوش التى سيبعثها عليه ، تحرك بمعسكره فى سرعة ، والتحق بجميع عسكره الذى كان ثمانية أو تسعة الاف رام ، واثنى عشر الف فارس ، الى اثنتين وعشرين قطعة مدفعية ، وهكذا ذهب بنفسه معهم (95) ، ولكنه لم يستطع ان يستفيد من رجال المدفعية المهرة ، الذين حصل عليهم من سلا من بعض رجال الانجليز القراصنة ، الذين كانوا هناك فى تلك الفترة ، وكان من هؤلاء اثنان من المدفعية الانجليز ، عهد اليهما بمهمة مدفعية ، وكان السبب فى ذلك كثرة المطر الذى كان يتساقط انذاك ، فى تاريخ شهر يناير من سنة 1605 ، لان الارض فى كثير من الجهات كانت ضحلة ، بحيث انهم ما استطاعوا السير فيها بمدافعهم فيجرونها على الوحل ، بينما كان الحال يقتضى كل اسراع . ولهذا فان مدفعيته لم تحضر هذه المعركة مطلقا الشيء الذى ظن انه كان السبب فى انكساره .

الفصل السابع

الفقراء (96) يرسلون الى التوسط فى عقد الصلح بين مولاى ابى فارس ومولاى زيدان . اطلاق سراح مولاى الشيخ . المعركة بين ابى فارس ومولاى زيدان .

بينما كانت هـذه الاستعدادات على قـدم وساق في كلا الجانبـين ، بعث مولاى أبوفـارس بعض الفقـراء الذيـن لهـم بـين المغـاربـة اعظـم احتـرام واعتبـار ، الى مـولاى زيـدان ، ليتفاوضوا معه في مسالـة عقـد الصلـح بينهمـا ، لكن ارسالهم هـذا من مراكش ، لـم يجعل ابا فارس يضيع اية فرصة ولا اجتهـادا في بعث قـوات جديدة ومعـدات اخـرى كذلك ، بمـا في ذلك الجيوش والزاد ، الى الباشا جـؤذر الذى كان آنذاك بتادلـة ، ولمـا كان ابـو فارس قـد علـم من بعضهم ان اخـاه مولاى زيـدان كان بنفسه في الميدان ، وكان ابو فـارس ليس من طبعه مطلقا ان يسير اليه او ليطلع بنفسه عما اذا كان هناك بعض المخاوف او معـارضة في صفه ، او مخاوف اخرى تهدده من الجانب الاخـر الـذى كان اخـوه مولاى زيدان حاضرا فيه شخصيا ، ولـم يكن في ميـدانـه هو احـد يضاهيه في مكانته وفي عائلتـه لينهض له فقد صمـم على مسالمـة اخيـه الاكبـر مولاى الشيخ الذى كـان حتى ذلك الوقت لمـا يـزل محتفظا بـه كسجين في بيته ، فاتفق معـه على انـه يذهب على راس جيشه ، ويجتمـع مـع جـؤذر لمقـاتلـة مـولاى زيـدان الذى اذا هو انتصر عليه في المعـركـة ، فانـه سيجازيـه على ذلك بتوليته على مملكـة فاس والنواحى الداخلـة فيهـا من المغـرب الشرقي ، كمـا كان يتمتـع بذلك ايام ابيـه . لكـن هـذه الجهات تكون لـه ، على شرط انـه عند دخوله الى فـاس ، يعلن ان مـولاى ابا فـارس ملك على المغـرب ، وانـه انما هـو نـائب عنـه فقط ، ويستمـر على هـذا الاعتراف في حكمه لهذه الجهات كوال من قبـل ابى فـارس ، وضمانـة لان مـولاى الشيخ سيرعى جيـدا هـذه الشروط ويعمـل بها بنـاء على اتفاقهما ، فانـه كان عليه ان يترك ابنه الاكبـر رهينـة في يد ابى فارس بمـراكش . وعلى هـذه الشروط المقبولة الظاهـرة ، اطلق سراح مـولاى الشيخ وعـاد الى حـريتـه كمـا كـان يعتقد ، وطبعـا لـم يكـن في نظره افضل من ان يتخلص اولا من السجـن المؤبـد مـع الشقـاء العظيـم . لكـن الحقيقـة هى ان الباشا جـؤذر كانت لـه مهمـة سريـة من سيده ابى فـارس (لـم تظل مـع هـذا سريـة ولكنها سرعـان ما اصبحت معلومـة لمولاى الشيـخ ، فقـد انتهت اليه سرا بواسطـة الحصول على الرسائل التى كانت تروج بـين مراكش ومعسكر تادلـة) ، والمهمـة هى ان عليه ان يتخلص مـن مولاى الشيخ ، ويسلبـه من كل سلطـة ، في المعسكـر والا يمكنه من صفة الاستشارة في ترتيب القتال ، ويظهره الى الجيش فقط تحت المظلـة الملكيـة ، وذلك ان الفاسيـين ، الذين كـانوا في قـوات مـولاى زيدان يتـاتى لهـم ان يعرفـوا الشيخ ، ويعلمـو انـه في معسكره ابى فارس ، اذ كـانوا يحبونـه

بصفة خاصة ، لطول اقامته بين ظهرانيهم ، وبسبب كرمه العظيم ، او بالاحرى تبذيره السابق الذى ابداه لهم . وبهذه الوسيلة فان تلك الذكريات لا محالة سوف تشغل ذاكرتهم ، وهم يخوضون المعركة المقبلة ، والى جانب هذا كله فان الباشا كانت له مهمة خاصة قد بعثت اليه ، ليحتاط منه ويراقبه ، حتى اذا ما انتهت المعركة فانه ياتى بمولاى الشيخ مقيدا فى الحديد ، كاسير يساق من المعسكر الى مراكش ، كما فعل به فى المرة السابقة فساقه من مكناس ، ولكن ما اكتشف هذا ، حتى كان مولاى الشيخ يدمج أوراق لعبه ، بحيث انه بالرغم من ان جؤذر انتصر فى المعركة ، فان مولاى الشيخ استطاع ان ينجو بنفسه الى فاس، فكان الاهالى يلقونه بضيافاتهم فى حب وفرح ، معلنا نفسه ملكا على المغرب .

ولنعد الى الفقراء فنجدهم يتفاوضون حول شروط الصلح ، فى فاس مع مولاى زيدان ، الذى كان على علم بالاعتدة العديدة والجيوش التى كان اخوه يرسلها يوميا من مراكش الى الباشا بتادلة ، ولهذا فانه اشتبه جدا فى هؤلاء الذين رغبوا فى السلام الذى كان سيعقد بينه وبين اخيه ويدوم مدة ، على حين يرى من أخيه ان قواته جميعها تحت الاستعداد والتأهب ، ولهذا فان اخاه ربما يريد ان يداهمه فجأة ، فيكون بذلك قد اتى على غرة ، ومن قبل ان يكون قد تهيأ لاخيه واستعد له ، وبناء عليه اعاد الفقراء ، مع رفضه لتلك الشروط التى عرضت عليه للسلام ، وفكر هو نفسه فى ان يستغل هذه الفرصة وينتهزها ، فيكسب الوقت قبل ان تكون قوات اخيه الجديدة قد اتت ووصلت فعلا الى الباشا ، او مولاى الشيخ اخيه الاكبر الذى كان قد اطلق سراحه ، وعلى هذه الفكرة فقد بعث بكل جد واجتهاد ليحصل على الفى بغلة وفرس فيرسل على كل بغلة جنديين مع ازودتهما ، وما يلزمهما ، بدون ان يتوقفوا فى مراحلهم (97) ويقيموا الخيام ، او يحملوا معهم مدفعياته ، قصدا منه فى هذا ، ان يصل هؤلاء بكل سرعة ممكنة ، ويلتحقوا بجنود المحلة (98) كانت تحت قيادة القائد مصطفى ، وكان هذا معسكرا قريبا من ام الربيع ، على مشهد من محلة الباشا جؤذر ، فكان النهر وحده حائلا بينهما .

ثم تقدم هو ايضا بنفسه ، مع سبعة او ثمانية آلاف من فرسانه ، ظانا انه بهذه الطريقة سيقضي باحسن قواته على الباشا جؤذر ، من قبل ان يكون الباشا قد استعد له ، او قبل اتيان مولاى الشيخ ، الذى كان يتمتع بنيل حريته ، والانعام عليه ، وكان من قبل محبوبا جدا

من جميع الجنود ، سواء منهم من كان بفاس ومن كان بمراكش ، ولكن هذه السياسة لم تتخذ لها مكانا في هذا الصدد ، لان الشيخ بعد ان اطلق سراحه قام برحلة سريعة ، بحيث انه وصل الى محلة الباشا ، قبل ان يكون مولاي زيدان قد تمكن من العلم باطلاق سراحه ، وعلى هذا فانه لم يدخل المحلة الا يوم الاربعاء فقط ، وابتدأت المعركة يوم الجمعة التالي ، ولما كان مولاي زيدان قد علم من بعضهم ان اخاه الاكبر كان قد اتى الى محلة الباشا ، ادرك انه ليس له من الوقت ما يجعله يرجئ اقتحام المعركة ، والا فانه سيعرف بين رجاله هو ، وكثير منهم كانوا في الوقت الماضي قد خدموا مولاي الشيخ المذكور ، ولهذا فانه في يوم الجمعة فاتح يناير من سنة 1604 (99) التقت جيوش الجانبين ، ولم يكن بينهما قتال طويل ، بسبب اطلاق القذائف من اربع قطع للمدفعية كانت مع جوذر باشا ، ثلاثا واربع مرات ، فابتدا القسم الاعظم من جيش مولاي زيدان يفر ، الا بعضا من رجاله المتازين الذين ثبتوا في ذلك الجانب من ميدان المعركة ، حيث كان مولاي زيدان نفسه بسبب ماعاينوا من ثبات قوادهم ، فاستمروا مدة اطول نوعا ما . ولكن في النهاية فروا ، وقد كانت المظلة التي تظل مولاي زيدان فوق رأسه رميت بقطعة من المدفعية فسقطت على الارض ، وفي تلك المصيبة وسوء الحظ ، وليس قبلا ، شرع مولاي زيدان نفسه يغادر الميدان ، الذي كان يقوم على تدبيره في هذه المعركة ، وفي ذلك بعض ما يلام عليه ، بما انه قد استعمل سرعة القائد الماهر آتيا بكل عجلة الى محلة مصطفى ، بعد ما سمع ان مولاي الشيخ سيسرح ، فوضع جنديين على كل بغلة وكل فرس لجعل سيرهم اسرع ، وقد اخذ كل جندي معه عتاده على ظهره . فلما وصل الى المعسكر قبل يوم ، كان عليه الا يتأخر يومين او اكثر على الهجوم الحالي ، متفرسا في عدوه ومعطيا اياهم الوقت ليستعدوا للقتال ، الشيء الذي كان بدونه يمكنه ان ياخذ عدوه على غرة فيبدده . ثم ان رجاله الفاسيين كان نصفهم غير مخلص له ، ولا يثق زيدان فيه ، وكانوا لا محالة قد صمموا على الفرار .

لقد قتل قليل في صف مولاي الشيخ ، اما في صف مولاي زيدان فقد قتل عدد عظيم من رجاله . يقدر بست مائة من الرجال او حول ذلك ، وعلى هذا فان المعركة لم تكن ، كما ظن ، شديدة او طويلة مؤلمة ،حيث ان أحد الجانبين كان لا محالة سيفر ، وذلك اولا : انهم كانوا جميعا مغاربة من بلد واحد ودين كذلك ، وكان على الملكين ان يحرشا الواحد بالآخر

ولـم يكـن للعموم فى كلا الجانبين ضغينـة بل من اجـل رواتهم فقط اتوا الى الميـدان ليقاتلـوا الواحـد ضدا لآخـر ، ثنيـا : بسبب مـوت الملك الاب فى فاس ، فـانـه غالبا ما يكـون هنـاك قـائد من جـانب مـولاى الشيخ ، بـل كـان لكـل اخ او ابـن او صديق رئيس ، فى الجانب الاخـر ، مثل القائـد المـومـن بوكرزيـة الـذى كان القائد الرئيس فى جانب مولاى زيدان ، وكـان اخـوه القائد المذكور ، قائدا فى الجانب الاخـر ، وكـان القائد عبد الصادق مستشارا رئيسا فى جانب مولاى زيـدان وكان اخوه (100) كذلك عند مـولاى ابى فـارس ، الذى كان عنده ايضا معتمدا ابـن القائد عبد الصادق . وكـان القائد احمد بن منصور فى جانب مولاى ابى فارس وكـان اخـوه القـائـد على ابـن منصور فى الجـانب الاخـر . وهكـذا اخرون متعددون .

الفصـل الثـامـن

حكـم زيدان على الاعـراب لنهبهم ، فـراره بعـد انهزامه فى المعـركـة الى تلمسـان .

وهكذا فـان الاخوة الثلاثـة ، تصارعوا على الكـرة الـذهبية للسيـادة والملك ، وقـد ديس العـدل تحت ارجلهـم ، والاعـراب هاهم ينهب بعضهـم بعضا ، والاقـوى يستولى على الجميـع والخصومـات والمشاحنات ، اشتدت بـين العـائلات والقبائل ، مما لـم يكونوا يجـرؤون عليه ايام مولاى احمـد الشيخ وقـد انتهى ذلك الى ان يصمم عليه بالسيف ، والنتيجـة انه بعـد هذه المعـركـة توقفت كل الطرق وترصدت بالنهب والغارات ، فاصبح التاجر لا يتاجـر من ابـواب المدن الى مراكش بدون قوة عظيمـة من الرجال ، تحرسه امـا مـولاى ابو فارس الذى كان لـه كرسى الامبراطوريـة ، فانه لـم يكـن لائقـا لا للعمل ولا لان يجـرى العدالة فى مملكته ، مـثل مولاى زيدان الـذى خسر المعـركة اليوم ، بحيث ان عشائـر يدعـون اولاد انتيفـة (101) قـدروا تمامـا حـالة مـا نتج عنه هـذا الخلق الـرخو لابى فـارس وقـارنوهـا مـع قـوتهم الخاصة التى كانت تتالف من خمسة عشر الف فارس ، فـأتوا مرتادين الى ابـواب مراكش حيث حبسوا كل المسالك عـن المسافرين جاعلـين التجار والسلـع غنيمـة لهم ، ومعتبرين ذلك انتقامـا منهـم على ذلك العقاب الذى انزل عليهم بفـاس بواسطـة مولاى زيـدان ، جـزاء لهـم على نهبهم ، فيها حينمـا كـان يحكم هناك ، فجعلهم يشعرون ان البلاد كلها قد لفظتهم ، اذ ان مولاى

زيدان كان قد امر القائد جريمان ان يسير على رأس الفي جندي في حالة من الاهتياج فينقض على دوار الخيام التي كانت لتلك القبيلة ويحرق الرجال والنساء والاطفال والبقر والغنم وكل ما يتعلق بهم ولا يبقى على شيء لهم ، مدى حياته . فسلط عليهم هذا النار والسيف بحيث انهم جميعا قتلوا بكيفية دموية مروعة ، حتى ان مولاي زيدان تحسر لسماع تلك التقارير الحق وبالرغم من هذا الاجراء القاسي ، فانه جعل فاسا الاقليم الامين بالمغرب .

ولكن لنعد الى زيدان وحظه العاثر ، فنجده بعد ما خسر الميدان وتلقى الهزيمة يحاول ان يعود الى فاس وسرعان ما كان القائد عزوز الرجل الوحيد في الايام الاخيرة للملك الراحل ، والمحبوب بين مواطنيه ، يرسل اتجاه مراكش ليتفاوض في امر الصلح ، وابتدأ هو نفسه يحاول مرة اخرى ان يستجمع قوته آملا من تلك القوات انها سوف تتبعه ، ولكن من قبل ان يستطيع احضار قوته وجمعها مرة اخرى وصلت اليه انباء تفيد ان اخاه مولاي الشيخ كان اقرب اليه من ساعده مع جماعة من الفرسان وان جميع محلة الباشا جوذر ليست بعيدة وراءه حينئذ كان عليه ان يعتبر ويتدبر الامر ليستعد للفرار ، على وجه السرعة ، ولكنه اجاب بالصمود والمقاومة ، ومن قبل كان قد وضع نحو تسع مائة الف دوكة في بيت مال العرائش ، فارسل بعضهم الى ذلك المال ، يقوم على حراسته بعض القواد ، بعد عودته من الميدان ، فلما وصله سلك الطريق الذي كان يعتقد انه احسن مسلك ، واصطحب ذلك المال معه ، ولكنه كان قد اتبع بقوة من جانب القائد عبد الواحد والقائد مسعود النبيلي (102) من رجال ابي فارس ، بحيث انه اضطر الى الفرار تواصوب تلمسان ، تاركا ذلك المال وراءه ، فاستولى عليه اخوه مولاي الشيخ ، وبهذا اسفر له حظه المتهجم ، فتركه معظم قواده ، وفر الى مراكش مع آخرين المومن بوكرزية الشخص الذي ما كان يضع فيه ثقة قليلة ، وزيادة على هؤلاء فر خدام بيته ، فلم يكن له رجل يعتمد عليه ويضع فيه ثقته الا نبذه ، سوى القائد عبد الصادق وحدو الطبيب (103) ومصطفى ، والاخيران منهم كانا من اهل خدام بيته ، وكانا من اتباعه ايام والده ، فلم يتركاه وحده في شدته ومصيبته ، وهكذا لم يبق معه من قواد العشائر بالمغرب الذين كانوا له ، الا عبد الصادق ، الذي اوشك من قبل ان يتركه (حيث انه كان قد اغري بواسطة اقناع اخيه القائد عبد الواحد ، وتوسل اليه بواسطة دموع ابنه ليعود ، وكان هذان كلاهما يقومان بمطاردة

مولاى زيدان وقد ادركنا في بعض السهول عبد الصادق المذكور) وكان هذا قد ترك بيته وعياله تحت رحمة مولاى ابى فارس سيده وعدوه . اما القواد الذين قاموا بمطاردة مولاى زيدان واتبعوه بشدة فانهم علاوة على استيلائهم على كنز العرائش ، استولوا كذلك على كثير من متاع مولاى زيدان ، الذى كان يحمله معه ، وبالرغم من انه كان مع فريق قليل من الفرسان ، لم يكونوا اكثر من عشرين فارسا او نحو ذلك ، فانه استرد في كثير من المرات بعض المتاع ، وقاتل هؤلاء الذين طاردوه شخصيا وكان على راس المتقدمين الى هذه المناوشات لدرجة ان القائد النبيلي الذى طارده كان يعجب لثباته ويرثي لحالته البائسة ، ويطلب من جلالته ، ان ياخذ طريقه وينجو بنفسه . وفي هذه الحالة البائسة فقد كثيرا من جمعه ، وسار في طريقه الى تلمسان ، المدينة التي تقع على حدود الاتراك من تخوم مملكة الجزائر ، فرجع بذلك القائد الذى كان يطارده، عائدا الى فاس .

الفصل التاسع

مولاى الشيخ يعلن نفسه ملكا في فاس ، زيدان يسير الى تافيلالت، ومن هناك الى سوس ، معركة قتل فيها المومن بوكرزية ، الصلح ينعقد بين مولاى ابى فارس وبين مولاى زيدان .

وبعد ما فر مولاى زيدان على هذه الحال ، دخل مولاى الشيخ فاسا، وكان ذلك في ايام رمضان ، فرجعت كل محلة مراكش الى ديارها، عند العيد وبعد الاحتفال بالعيد بعثوا الى جميع جهات البلاد ، حيث يوجد اولائك الاعراب الذين كانت بينهم حرب اهلية عظيمة ، كما كان بين اولائك الاخوة في هذه الايام التي تعددت فيها الملوك ، ولهذا فان هؤلاء لم يعترفوا باحد منهم او يؤدوا الواجبات المالية الى احد من الاخوة الثلاثة فلاجل اخضاعهم خرج احمد بن منصور على راس ثلاثة الاف جندي، وارسل الى السوس في شهر ابريل سنة 1604 ، ولكن رجاله ماتوا بالطاعون (الذى كان شديدا في ذلك الوقت) اما اولائك العرب فان قليلا منهم اعترفوا بسلطته، ولما طلب منهم ان يسعفوه بالعلف امتنعوا من ذلك، فاضطر القائد حينئذ للعودة الى مراكش مع بقية رجاله .

اما المحلات الاخرى المختلفة فكانت قد ارسلت الى عدة جهات اخرى من البلاد ، ولكن في فاتح ينيه اتت الانباء عن مولاى زيدان بانه عاد من

تلمسان الى تافيللت ، فارسل اليهم جميعا ابو فارس ليعودوا الى مراكش ، ويحتشدوا هناك للمرة الثالثة ، خشية مولاى زيدان، الذى كان قد قضى بضعة اشهر يعيش حول تلمسان ، مع نحو خمسين من جنوده ، وهكذا ذهب زيدان الى تافيللت حيث كان بعضهم يعيش مع بيوت او عشائر القائد عبد الصادق ، الذى كان رئسا لجماعة الصقور ايام مولاى احمد، فاحضر الى زيدا من عشائره اثنتى عشرة مائة من الافراس ، وبتلك القوة دخل تافيللت ففر قائد مولاى ابى فارس الى درعة مع جنوده ، وفى تافيللت مكث مولاى زيدان اربعين يوما ، حيث ادرك تماما الحالة التى كان عليها سوس وقد كتب اليه منها عدةشخصيات من محبيه فى هذه البلاد ، بعد علمهم بانفصال القائد احمد بن منصور من هناك ، حيث كان يقيم الشبانات الذين هم اعظم قبيلة فى جميع المغرب ، واقرباء ام مولاى زيدان (اخواله) (104) ولهذا فانهم ما أرادوا ان يبايعوا مولاى ابا فارس ملكا ، وكذلك كان معظم بيوت سوس الذين قد رحبوا بمقدمه الى هناك ، وبناء عليه فانه اعد قوة استطاع الحصول عليها ، وسار بها من هناك الى سوس .

واما مولاى أبو فارس فانه على ورود الانباء الاولى بقدوم اخيه الى تافيللت، دعا جميع محلاته وحشد اربعة آلاف رام منهم ، الى جانب الفرسان، وارسلهم من مراكش الى درعة تحت قيادة ابنه مولاى عبد الملك الذى اصطحب عدة قواد رؤساء ، مثل القائد كوى والنبيلى والمومن بوكرزية ، وكان هذا القائد الاعلى لجيوش مولاى زيدان فى حربه السابقة ، ولكنه بعد انكساره فرعنه الى مراكش ، مع آخرين عديدين ، وكان الهدف الرئيسى لهذه القوات أن يقفوا حائلا دون المرور من هناك الى سوس ، التى كانت سيستولى عليها مولاى زيدان ، وفعلا قد تمكن منها قبل اتيان جميع قواتهم، فسار الى لكتوا (105) وهناك كان الفرسان ، على كلا الجانبين، ويتناوشون، ولم يستطع المشاة ان يعسكروا هناك ، وقد قتل جماعة من كلا الجانبين ، غير انه لم يكن منهمشخصية مهمة ، ذات خطر، الا القائد مومن بوكرزية ، الذى كما قيل ، مات بسبب العطش ، حينما اشتد عليه (اذ كانت المعركة قائمة فى شهر يليه) ، او كما يقول الاخرون خرج فعاد الى خيمته ، طالبا للماء ، وبعد ما شرب توفى فى الحين ، وكانت وفاته قليلة الرثاء والاسترحام من المغاربة المسلمين ، فانهم قالوا انه قد جزى جزاء عادلا ، حيث كان قد خان مولاى زيدان سيده وصاحب نعمته ، ولم يكفه ان يتركه فى مصائبه ويفر الى اخيه ، بل انه ذهب متقدما جيشا لمحاربته فى ميدان القتال .

كانت قوات مولاى زيدان قليلة جدا لدرجة انه لم يكن قادرا ان يبارى بالقوة قوات اعدائه ولهذا فانه كان مضطرا الى الذهاب الى سوس عن طريق الصحراء ولم يجرؤ على المرور على درعة ، وهكذا فانه سلك تلك الرمال التى كان يعوزهم فيها الماء سواء هو وجميع رجاله الذين هلك معظمهم ، وبعد كثير من المتاعب والمشاق نجا من تلك الرحلة ، فوصل الى آقة (106) حيث كان يقيم سيدى عبد الله مبارك (107) ، الفقير العظيم والرجل الذى تخطب الصداقة منه ، وبذلك فانه ادرك ان كل قوات اخويه لا يمكنهم ان يسلبوه ملك سوس وهو فى حمى ذلك الوقار الذى كان يتمتع به ذلك العابد ، فى هذه الجهات ، بحيث ان الناس لا يطيعون أحدا الا الذى يامر باطاعته ذلك الفقير .

ولما انتهى مولاى زيدان الى هناك كتب الفقير الى مولاى ابى فارس الذى كان بمراكش ، يقترح عليه ان يعالج عقد الصلح بين الاخوين ، وبناء عليه فانه فى غشت التالى سنة 1604 كان القائد عزوز قد ارسل الى مولاى زيدان بآقة ، حيث انه بواسطة سعى القائد المذكور وهذا الفقير قد عقد الصلح بين مولاى ابى فارس واخيه مولاى زيدان ، على اساس ان هذا يتمتع بمملكة سوس وبعض الجهات التابعة لها ، فى الامبراطورية ، ووفقا لذلك دخل دخولا سلميا مولاى زيدان تارودنت وهى المدينة الرئيسية فى تلك المملكة ، وعلى دخوله هناك كانت سوس التى هى منذ الزمن القديم اشهر قطر لا يتمتع بالهدوء والاستقرار ، واكثره بالنهاب وقطاع الطرق فى المغرب قد اصبحت تحت حكمه وعد له البلد الوحيد المتمتع بالامن ، والمحكوم حقيقة من تلك المملكة ، مما لم يكن فى جميع الجهات الاخرى من المغرب تلك الجهات التى كانت تحت حكم غيره ، وتنتمى الى الاخوين الاخرين ، فهذه قد بقيت آنذاك فى فوضى عظيمة جدا ، مليئة بكل شغب وضوضاء ، وبالجملة فان حكمه على كل حال كان مرضيا من الناس ، ولكن ذلك ما استقر الا بالجهد الجهيد ، حيث ان حفظ القطر تطلب اعظم تكليف ، واكثر مما كان اخوه يامر به ، لدرجة ان سيدى مبارك الرجل الوحيد الذى احضره اولا الى هذه الجهات صار يبكته وينتقد سلوكه فى هذا وكذلك سكان جبال الاطلس الذين هم احسن الجنود وابرعهم فى الرمى ، وقد مردوا فى سكناهم على طبيعة الدفاع ، شعروا بنيره واحسوا بثقله جدا ، فكانت قوته هذه لا ترعاه تماما ، اذ اصبح مزاجها مشربا باعمال تزاولها سرا من ابى فارس ، وعلى هذا فان مولاى زيدان كان عليه اما ان يعتمد على اصدقائه واتباعه ، او على المال ، اما سكان السهول والجهات الواطئة ،

فانهم شعروا بوخز من سلوكه ، مدركين ان حلوقهم واقعية تحت رحمته ، على حين كان اهل الجبال يدافعون عن انفسهم بالسلاح المشرع ، ومن طبعهم في غالب الاحيان أنهم يبايعون الملك الجديد مبايعة تامة .

الفصل العاشر

عبد الله ابن مولاى الشيخ يفر ، ابو فارس يرسل زيدان ليسير الى محاربة مولاى الشيخ فيابى ، عبد الملك ابن ابى فارس يذهب بدله فشله الذريع .

كان الصلح قد عقد بين ابى فارس وزيدان ، بواسطة عبد الله مبارك (107) وعبزوز اعقل مستشار كان للمغرب ، وسنترك زيدان بسوس ، باحثا عن حظه مرة اخرى ، ليكون سيد مراكش ، ونعود الى ابى فارس الذى كان محتارا اى طريق يسلك ، ليدبر وسيلة يتمكن بها مرة ثانية من مولاى الشيخ ، الذى كان كطائر قد كسر قفصه وطار الى فاس ، متظاهرا بانه سيحكم بها كنائب عن اخيه ، في اول الامر (108)، ومع هذا فانه كان في السر يتفاوض مع الدول الاجنبية ساعيا ان يحرز على صداقة منها ، حتى يمكنه ان يفر الى بلادها ان كان مولاى ابو فارس سيطارده بقوته ، ثم يستطيع طرده من فاس ، او بالاحرى ربما يفقد بذلك مكانه في افريقيا ، وكان مصمما على ان يجلب قوات اجنبية تسنده (109) ، مما جعل اخاه ابا فارس يخشى تاليب المسيحيين ، الذين ربما كانوا سينفجرون عن رصاص البنادق فكان لهذا حريصا على الاحتفاظ بعبد الله الابن الاكبر لمولاى الشيخ ، وان كان الاسلم هو الاحتفاظ بالاب ، والحيلولة دون قيامه بعمل يجر عليه اضرارا ولكن بسبب الطاعون الذى اشتد بمراكش ، فان ابا فراس أرسل حينئذ ابنه مولاى عبد الملك ليعسكر على خمسة اميال من مراكش ، وكان ابن مولاى الشيخ معه . ولكن جميع حراسه كانوا غافلين ومرتشين ، كما ان الشاب عبد الله ، كان مداهنا جدا ماكرا خطرا ، وبهذا استطاع ان يفر ذات ليلة من المعسكر ، ومعه الافراس التى كانت على استعداد ، فابرد الى ابيه بفاس .

لقد طلب هذا الشهم ، وقد احرز على حريته كل الوسائل للدفاع عن تملكه ، والى جانب كونه ابنا للاخ الاكبر ، فان روحه الجياشة ، واملـه

الفتى وجها كل انتباه الفاسيين اليه ، لدرجة ان مولاى ابا فارس حزن لهربه حزنا مبرحا ، وزاد حزنه اكثر باخبار استعداداته الحربية ، فأرسل غزوز الى مولاى زيدان الذى كان آنذاك بسوس ، طالبا منه ان يسير بشخصه الى محاربة الشيخ ، وابنه عبد الله ، وقد تقبل مولاى زيدان موضوع هذه الرسالة ، وحسب لها حسابا جيدا ، وبكل سرعة ممكنة ، ساق قواته التى حشدها ، الى ان انتهى الى نصف مرحلة من مراكش ، وهناك اقام خيامه ، ولكن لم يقدم على الجازفة بحظه ، او يأتمن على ثمن راسه ، فيضعه بين ايدى اخيه ، بل كان يوميا يرسل الرسائل بواسطة خدامه مؤكدا الاعتماد العظيم عليه فى هذه المملكة وانه حقيقة راغب فى ان ياخذ على عاتقه ، بين ايدى اخيه ، بل كان يوميا يرسل الرسائل بواسطة خدامه مؤكدا الاعتماد مهمة حرب عبد الله ، ولهذا فان عليه ان يقوم باختيار للقواد والرؤساء ويزاول بعض الاجراءات الاخرى للجيوش التى لا بد ان يطمئن الى انها مناسبة لهذه الغاية ، وغير ذلك من الاعمال التى كانت فى نحو تلك الاهمية. فكان هذا القول غير مقبول لا عند ابى فارس ولا عند مجلس مستشاريه وان كان مع هذا يعمل على تلطيف الجو لمولاى زيدان ، فكانت الرسائل تصدر عن أبى فارس يوميا بالحب والود العظيم ، محشوة بكثير من الاطراء ، مشمئزة كثيرا من سوء ظن اخيه ، الذى كان غير متجرئ على المخاطرة بنفسه فى مراكش .

ولما كان مولاى زيدان قاصدا الى تحقيق ما ينطوى عليه اخوه ابو فارس وقد حمل قلبه على يديه ، فانه زور رسالة كأنها ارسلت من الرئيس الاعلى لهذه البلاد الجبلية للاطلس ، الى ابى فارس ، مليئة بالخضوع والطاعات عارضا مع هذا كله ، ان يرسل اليه راس مولاى زيدان ، الذى كان معسكرا فى بلاده عند سفح ذلك الجبل . فكان الجواب على هذه الرسالة واردا بعظيم الشكر والوعد بمكافآت عظيمة من الذهب ان كانت مهمة ذلك المشروع السامى ستنجز ، فلما تحقق زيدان من نوايا اخيه فصل بعسكره وذهب الى تافيلالت ، فاقام فى بلاد درعة يجمع هناك المال ويحشد الرجال ، بعد ماكان قد قضى شهرين مع اخيه ، بدون جدوى بالمرة .

فلما راى ابو فارس زيدان قد فصل عنه ، وقد يئس من مساعدته فى مهمة فاس ، عهد بجيشه الى عبد الملك ، ابنه الوحيد ، وكان على هذا ان يسير حسب توجيهات الباشا جؤذر، قائد احمد المنصور ، وسيدى كوى (110) والقائد بوكرزية (الذى على يديه كانت تمضى كل مهام التجار المسيحيين

فكانت تمضي بسرعة وفي ضمانة طيبة لتتجر من هناك ، وبهذا كان محبوبا جدا من جميع الناس لمعاملته الطيبة) ولما كان المعسكر قد اقيم على مسافة نصف يوم من فاس ، التي تبعد عن مراكش باربعين يوما ، وقع تمرد بين العساكر هناك ، فكان ثلاثة آلاف منهم ثائرين عليه ، متوجهين الى الشيخ صائحين علنا (الله يطول عمر مولاى الشيخ) ، حينئذ دعا مولاى عبد الملك مجلسه الحربي للاجتماع ، فوقع الاتفاق فيه ، وان كان عدد الجيش يفوق غيره مرتين ، على العودة ، بدون توجيه اية ضربة . وهكذا عادوا على اعقابهم الى مراكش ، مدركين حقيقة ماكانت تنطوى عليه جنودهم من افئدة ، كانت تماما بعيدة عنهم .

الفصل الحادى عشر

السير انطونى شيرلي Anthoney Sherley سفيرا عن امبراطور المانيا (Rodolphe II) الى مولاى ابى فارس سنة 1605 .

فى هذه الايام وصل ، فى فاتح اكتوبر ، الى أسفى ، السير انطونى شيرلي ، سفيرا عن امبراطور المانيا الى ملك مراكش ، وكان حضوره يكتسى صبغة احسن مما يكون للشخص الاعتيادى ، وان كان بنوع ما غير مزود تماما من الشخص الذى كان سفيرا عنه ، (111) ولم يكن معه من ذوى الاهمية الا القليل ، وكانت حاشيته تتالف من نحو ثلاثة عشر رجلا ، كل منهم يحسن لغة مسيحية جيدا ، لانه كان لا محالة ان يواجه ما يحتاج الى ترجمة من لغة الى اخرى .

وبين هؤلاء كان السير ادوين رتش (112) Sir Edwin Rich الذى كان سلوكه حسنا ، وكان جيد الحديث فى كل مجلس يحضره غير مستنزف لرصيده فيقترض مالا ، بل كان مزودا جدا ليقوم بدوره الخاص ، مستجيبا فى ذلك الى محتده ومنزلته وما يتطلبه الوقت .

اما السير انطونى ، الذى اتخذ لقب السفير ، طيلة مدة أربعة اشهر ، قضاها مقيما بآسفى ، فى دار كانت مفتوحة للضيوف ، الذين كان يدعوهم من جميع التجار المسيحيين ، ليتغدوا ويتعشوا معه يوميا ، فانه كان يتزود بالمال من هؤلاء كلما احتاج اليه للقيام بمهمته ، وكان قد حصل من يهود على سند يستطيع به ان يحرز على مال ، يؤديه لهم بمراكش ،

بفائدة مفرطة ، تصل الى خمسين في المائة ، كما انه اشترى من تاجر انجليزي ايضا ، كان يتغشى معه ، في كلمتين او ثلاث ، سفينة حمولتها ستون ومائة طن ، مع كل ما كانت تحمل من حنطة ، مؤديا اياه معجلا ، الفي اوقية ومتكفلا له بانه ان لم يؤد الباقي في مدة لا تزيد على عشرة ايام، فانه يخسر عربونه الذي قدمه له ، ولكنه قبل ان يصعد اليها ، كان عبد الملك يعود من فاس ، بسبب غدر جيشه ، وكان ملك فاس يزحف على مراكش ويغذ السير اليها وفي اربعة ايام من رحلته ، كان يحاصر في طريقه مدينة ساحلية تدعى سلا ، التي استطاع الاستيلاء عليها ، ولم يستطع احتلال الحصن ، الذي كتب قائده الى مولاي ابي فارس ، يعلمه بانه وان سقطت المدينة ، فانه سيحتفظ بالحصن له ، اذا هو انجده باربع مائة ربعي (II3) من القمح ليقتات به رجاله ، وبخمسين جنديا ، فاستنكف ابو فارس من فقد هذا المكان وكان قد سمع ان السير انطوني ، قد اشترى سفينة محملة بالقمح ، فكتب الى اسفي ، راغبا منه ان يرسل السفينة الى سلا ، ويفرغ بها ذلك القمح ، لاغاثة اصحاب الحصن وجنوده ، وهنا نجد السير انطوني ، حريصا على اسعاف طلب الملك ، يوجه نحو ربان السفية وتاجرها ، طالبا منهما ان يبحرا الى سلا ، ومؤديا اليهما عن ثلاث مائة ربعي ، فابحر هذان من هناك ، ولكن الحصن كان قد سقط قبل وصولهما اليه ، فلم يفرغا القمح ولا انزلا الجنود ، بل عادا بذلك الى آسفي

وفي هذا الوقت بالذات ، كان قد ارسل لاصطحاب السفير في توجهه الى مراكش ، خمس مائة جندي تحت قيادة قائدين ، فاعطى السير انطوني عمامة لكل جندي ، خلعة الرضى والمحبة منه ، فجعلهم هذا يحترمونه ويبجلونه الى اقصى حد ، كما جعل احد القائدين لم يات لاصطحاب السفير الى مراكش فقط ، بل ليتزود ايضا من ذلك القمح الذي كان عزيزا جدا بمراكش

وبينما كان السير انطوني يتاهب للسفر ، والجنود ساهرين على خدمته بكل ما يسره ، اذا بتمرد يقع منهم على ترتيب القائد الذي قتل اثنتين من رجاله لاستعجال سيدهم بالتقدم .

وهكذا كانت اقامته اربعة اشهر باسفي ، حيث كان كرمه خارقا للعادة، لا بالنسبة الى مواطنيه فقط ، بل كان كذلك بالنسبة الى الفلمنك والفرنسيين والاسبانيين ايضا ، وقد نال بهذا اعجاب جنوده ، الذين استقبل بهم في مراكش في اعظم حفل ، كما كان هذا الاعجاب منهم وهو في طريقه الى

مراكش ، او حينما كان مقيما باسفي ، يتلقى كثيرا من رسائل الملك ، التى كانت تطربه وتشيد بمسعاه الحميد ، وشجاعته فى مخاطراته باقصى البلاد سواء منها ما كان فى البحر وما كان فى البر ، غير مغفل اى بلاط لكسب مودته ، فأصبح يتردد عليه مستقبلا بالترحيب .

ولما وصل الى مراكش ، لم يمكث بها يومين حتى كان الملك قد احتفل لاقتباله ، واعد لذلك ما يلزم ، فتوجه الى البلاط ، مصطحبا اتباعه، وفى وقت قصير كان قد استطاع ان يمارس مهمته ، وان يجعل تعهده للتجار المسيحيين ينجز ، وكان ذلك مستحسنا من اسبانيين كانا مدلهين جدا فى اعجابهما بغنائه ، وبسبب حديثه المغرى بتحقيق الآمال المنشودة فقد انهمك التجار فى تبار بينهم ، حول نيل رضاه كل منهم يحاول ان يخدمه اكثر من الاخرين، ويسعى الى اسعافه ، بما يطلب من مال ، اكثر من الاخرين ايضا .

وفى هذه الرعاية ، ركب الى القصر ، الذى وصله ، فلم ينزل عن فرسه ويترجل ، كما كان اولاد الملك عادة يفعلون ، بل انتهى به الى «المشور» حيث يكون للملك ايوانه العظيم ، وفى معيته سادة الدولة ونبلاؤها ورؤساء القوم حاضرون ، قد اتوا الى القصر مدعوين ولم يكن به انذاك الا الملك نفسه يستقبله ، فلما انتهى الى حضرته ، تقبلت منه رسائل الاعتماد ، فى اعظم مظهر من الحفاوة والتبجيل ، كما اقتبل هو شخصيا ، باعظم احترام وعطف ، ولم يكن هذا من لدن الملك وحده ، وانما كان ايضا من جانب رؤساء الدولة فى الجيش والادارة والقائمين على نظام القصر ، وخدمته آنذاك، وقد عهد الى اعظم رؤسائهم ، ان يرافقوه فى عودته الى حيث امتطى صهوة جواده .

وبعد خمسة ايام ، عاد انطونم شيرلى الى الحضرة ، ظانا انه سيعامل بما كان قد عومل به من قبل ، ولكنه وجد سلسلة معلقة تعترض سبيل الداخل الى المشور ، مما جعله يحسب ان هذا ما فعل الا لاعتراض سبيله هو فقط ، فلم ينزل عن فرسه ، بل عاد ناكصا فى حنق عظيم ، وسرعان ما بلغ هذاالحادث الى سمع ابى فارس ، الذى ارسل فى الحين ثلاثة رؤساء من قواده للتحقيق فيه .

اما انطونى شيرلى ، فانه لم يعتبر هذه الاهانة نازلة به فحسب، بل اعتبرها نزلت فى حق الشخصية التى كان يمثلها ، قائلا للقواد الذين اتو للاعتذار : ان سيده امبراطور المانيا كان قادرا على ان يجازى على

هــذا الضرر الذى نيل بــه جانبــه ، قال هذا ولــم يخش كونه الان ما زال فى قبضة ابى فارس ، مدركـا ان عظمــة الذى كان فى خدمته ، تفوق الى ابعـد حــد عظمة ملك مراكش ، وبالرغم من هــذه العجـرفـة المتناهيــة ، فـانه كان يستدعى من هناك ، مــوعــودا بانه سينتقــم لــه اشد الانتقــام ، على ادنى اذى ارتكب فى حقــه ، وقــد القى القواد الثلاثة ، اللائمــة على بواب القصر، ماتحين انطونى شيرلى راس ذلك البواب ، ان طــاب له ذلك ، وبعد ما قضوا ساعــة فى تهدئــة ثائـرته ، رجعوا بــه ، حيث وجد البواب امــامــه يجلــد بشدة ، ثــم يزج بــه فى السجــن ، ومن ثــم فانه لــم يترجل بعد عــن فرسه قط لدخول المشور .

وخــلال اقامته بمــراكش ، التى استغرقت خمسة اشهر كانت له مع ابى فارس عدة محادثات وعلى العموم فانها كانت ، كما يظن ، حول مساندة الملك وتعضيده فى المحافظة على ملكه ، ضد اخويه الشيخ وزيدان ، وايضا ليــوجــه ضرباته الى عظيم الترك فيزيحه عن الجزائر وتونس .

بعد هــذا نجد انطونى شيرلى يغادر مراكش ، مع اعظم سرور وانشراح، ورضى تام عــن ابى فــارس ، الذى رجع منه بنبيلين برتغــاليــين ، اشتــراهمــا بمائــة وخمسين الف اوقية ، المبلغ الذى يعادل عشرة الاف جنيه استرلينى ، وقــد قضى هــذان ستــة عشر عامــا اسيريــن بمــراكش ، وكان احــدهمــا ابنــا لنائب الملك على شرقى الهند (114) والآخــر كــان مــن عــائــلــة نبيلــة بــالبرتغــال (115) وكــان فــداء الاول قــد ارسل ثــلاث مرات ، مــن شرقى الهند ، ولكن فى اثنين منهمــا انتهبا ، بواسطة الانجليز ، وفى المرة الاخــرى انتهب بواسطــة الفلمنك ، خــلال حربنــا الاخيرة معهم ، اما الاخــر فان اخوته حبسوا عنه فــداءه ، امــا للاحتفاظ بذلك المبلــغ العظيم من المــال ، وامــا لانهم كــانوا غير قادريــن على اداء تلك الفديــة العظيمــة .

ولاجل مصاحبته من القصر بمــراكش ، الى اسفى ، فقد كلف فى ذلك احد الحجــاب النبلاء الذى خلع عليه انطونى شيرلى قبعته التى كانت على راســه ، عند توديعه ، وكانت مرصعة بجواهــر ثمينــة جــدا ، كما انه كافأ جميــع الادلاء والحــراس الذيــن رافقــوه، وكــانوا كثيريــن نحو اربــع مــائــة جنــدى ، حتى يقوموا على حراسته لستة فى الطريق الذى كان محفوفا بالمهالك ، وكانوا تحت قيادة القائد عبد الله احد البــرتغاليــين المرتدين (الذى اسلــم بعــد ان كــان مسيحيــا) وكــان هذا الرجل ، قويا فى يقينه وشجاعته ، راغبا ان يكون مــع مواطنيه وبناء على ذلك ، فــانه ذهب ليلا الى سفينة السير ادوين ريتش،

ولم يذهب الى سفينة السير انطوني ، فلم يكن من السفينة الا ان جذبت انجرها رافعة اياه ومبحرة صوب اسبانيا ، أما الآخرون فانهم بقوا مع السير انطوني في الميناء .

فهذا الصنيع قد اتخذ له تفسيرا سيئا ، وكان من أثره ان خمسة من رجال انطوني كانوا قد ارسلوا الى الشاطىء قصد الحصول على بعض الزاد اللازم ، قبض عليهم وزج بهم في السجن ، ثم ارسلوا مسلسلين الى مراكش، ولكن بعد ذلك اطلق سراحهم ، حيث ان السير انطوني كتب الى الملك ، موضحا موقفه فيما وقع ، وراجيا منه أن تعالج هذه الظلامة التي نزلت به . ومتخذا احسن مظهر في القضية وقد مكث في اسفي اربعة ايام بعد ماكانت السفينة قد ابحرت بالقائد المذكور ، فكان عليه ان ينتظر الى ان يعاد اليه الخمسة الرجال الذين اعتقلوا ، ولما كان سيجر تلقى كتابا بان يبحر من بعض الشواطىء الخاصة الامينة ، ونصح بان لا يرسو مدة اطول بالميناء حيث ان بعض قراصنة الفلمنك كانوا عبر البحار يترصدونهم ، فان حصل حادث هناك ، فقلما ينجو منه ذانك الاسيران ، اللذان وقد علموا بوجوهما في السفينة سيغار عليهما فيقعان غنيمة لهم ، وحينئذ ستكون خسارة ثلاث وثلاثين الف اوقية ، كان احد التجار قد اسلفوها السير انطوني شيرلي، على ان يؤديها له خارج البلاد ، وكان ذلك التاجر لما يزل محتفظا بذينك النبيلتين البرتغاليين ، رهنا في اداء هذا الدين بمجرد وصولهما الى لشبونة وعلى هذا وقع الاتفاق على الابحار ، وكان ابو فارس قد ارسل اليه رسالة بتسريح رجاله (116) .

وهكذا اعود الى الاستمرار في كتابه تاريخي

الفصل الثاني عشر

مولاى عبد الله يذهب بنفسه الى محاربة ابى فارس ، مطاردا اياه خارج مراكش ، وباعثا بالباشا جوذر لحينه ، مع آخرين من نبلاء الرجال .

كان مولاى الشيخ قد جعل ابنه عبد الله على راس قيادة جميع قواته، اما هو نفسه فانه كان يقصد الى تخليص ثلاث سفن ايطالية كانت قد قبض عليها بالعرائش ، ليركب فيها فارا ، ان كانت الحالة غير باعثة على

التوفيق ، هو وذووه ، مصطحبا جميع متاعه ، فيذهب فيها الى فلورنس (117) ولكن المعركة كانت ستغير في تصميمه ، وقد استولى حاليا على جميع السفن الاجنبية ، التي اتت سواء الى العرائش والى سلا او جهات اخرى من حكومته ايضا . كما ان بعض سفن تجار فاس كانت قد نهبت ما كان بها من بضائع ، وقد اضطر رجال السفن على النزول بمدافعهم ، فنزل جميع الرجال ، اما ليجعلوا في خدمته واما ليتلقوا السلاح الذى سلم اليهم ، وبذلك زود نفسه بالقواد والجنود الذين كانوا من انجليز وفرنس والمان ، مع 27 من المدافع المزودة بالقذاف اللازمة لها ، ولهذا استطاع ان يلهب حماس ابنه عبد الله بأمل انه سيستولى على مراكش ، (لكنه نفسه كان سكرانا بالامل الطامح فى الملك) وهكذا فان عبد الله حول اليوم الاخير المتم لنونبر سنة 1606 كان متجها الى مراكش على راس جيش يحتوى على عشرة آلاف فارس وراجل ، الى جانب رجاله البحارة والمسيحيين، الذين بواسطة اعمالهم استطاع ان ينتصر فى الميدان ، حيث قاتلوا قريبا من مراكش ، بنحو ستة اميال من جنوبيها الشرقي ، وذلك في اليوم الثامن من دجنبر سنة 1606 (118) .

لنعد الى الشيخ فنجده يصاحب ابنه ، ولكنه لم يواصل السير الى ابعد من سلا ، فانه على مسافة ثلاث ساعات منها للراكب ، حيث يقع هناك نهر يدعى المعمورة ، كانت السفن التى اتى بها الطليان تنتظره فتوجه الشيخ اليها هناك ، وعلى مقربة من السفن اقام خيامه على الشاطئ، حيث مكث هناك ، وحط بعضا من متاعه فى السفينة ، وصمم هو على ان يظل هناك ويتلقى ما تاتى به احداث ابنه ، فان جرت معه حسنة فان افريقيا ستصير اليه والا فانه سيلتجئ الى دوق توسكنة العظيم (119) الذى اعتمد على بلاطه كثيرا .

اما اصحاب المدافع المسيحيون الذين قدروا جدا الوقت المناسب لاطلاق قذائفهم ، وقد وضعوا مدافعهم في اماكنها ، وجعلوا عبد الله ينتصر فى الميدان ، فانهم كانوا آملين بذلك فى ان يحصلوا فى آن واحد على حريتهم وعلى الغنيمة ، اذ كان اغلب رجالهم فقراء ، فلاحين كما ستقرأ بعد .

ولما انتهى الى علم الشيخ ، ان ابنه قد استولى على مراكش ، اصبح غير مهتم لارسال الزاد او الميرة ، مما يحتاج اليه في السفن الثلاث

الايطالية ، التي اقلعوا بها من المعمورة الى بلادهم ، آخذين تلك الاموال العظيمة ، مقابل ادائهم حينما كانوا في حجزهم (120) .

لقد فقد ابو فارس في هذه المعركة نحو ست مائة رجل ، فخف الى المدينة لتخليص كنوز ونسائه . وحيث خاف ان يوخذ على غرة ، فانه لم يجرؤ على ان يتمهل حتى يحمل هذه الكنوز معه ، ولكن بكل سرعة اتجه نحو الجبال ، طالبا من القواد ورؤساء رجال قصره ان يتبعوه بذلك المتاع الذى كان من جملته سيف ثمين ، لا يوجد له مثيل في العالم كما انه عهد ايضا اليهم باصطحاب بنته ، والمهمات من نساء قصره اللاتي كانت من بينهن امرأة بن واش (121) تاجر الملك . وفي اقتحامهم للتلال كان هناك جماعة من الاعراب متولفة من خمس مائة فارس ، فحاصرت هؤلاء القوم ناهبين لاثقالهم ، سالبين للنساء ومنتهكين حرمتهن ، غير معفين حتى ابنة ابي فارس ، التي كان عبد الله قد صمم على التزوج منها . غير انه لما سمع ان بعض المغاربة قد ضاجعها ، وكذلك لما كانت متهمة بانها عاشت مع ابيها مضاجعة للمحارم ، بعد دخوله الى مراكش فانه ما طلبها من ابيها (122) .

كان القواد قد ركبوا افراسهم في سرعة فائقة فعادوا الى مراكش، وهناك احتموا في المسجد ، فوعدهم عبد الله ، على خضوعهم هذا ، بالعفو عنهم . وحينئذ اتوه طائعين معتمدين على كلمته الاميرية ، آتيا بهم فقراء ذلك المسجد .

غير ان مولاي عبد الله ، ربما كان قد حرش من قبل مجلسه الحاسد، او كان مدفوعا بطبعه الدموي ، فقتلهم سرا ، وارسل رؤوسهم في غرارة الى فاس ، لتقدم الى ابيه . ولم يكن قد اطلع على هذا الصنيع تماما بمدينة مراكش ، الا بعد ان وضعت رؤوسهم على ابواب فاس . وهكذا كانت نهاية الباشا جوذر (123) اعظم جندي ايام المولى احمد ، واخلص قائد في حياته الى ابي فارس ، ومعه سيدي كواي (124) وابن القائد عزوز ، والقائد مودن القاسمي (125) واربعة رجال عظام آخرين .

الفصل الثالث عشر

مولاى زيدان يعود ليحارب مولاى عبد الله فيسترد مراكش منه . قاتلا ثمانية الاف من رجاله . وعلى استقراره ، بعث ثلاثة آلاف فاسي ليقتلوا ، وقد استقر على نظام جديد .

وهذا الجبروت الذى اظهره عبد الله على هؤلاء الشجعان والرجال ذوى الكفآت ، والنهب الذى قام به الفاسيون ، سواء نهبهم لدور القواد، ونهبهم لمتاع مواطنيهم ، وارتكابهم لانتهاك الحرمات الذى اتوه تلو الحرب ، كل هذا تسبب فى فرار الكثيرين الى مولاى زيدان ، اما الباقى الذين ظلوا بمراكش فاصبحوا غير مطمئنين ، ولهذا فان اشراق شمس سعادة عبد الله ما كان يستمر اكثر من شهرين ، حتى كان مولاى زيدان ، الذى كان لم يزل فى منتصف الطريق بين مراكش وفاس ، منتهزا فرصة هذه الضوضاء ، بين رجال المدينة ، فزحف الى مراكش من جانب الشمال للمدينة ، مصمما على ان يخوض المعركة الحالية ، وقد سمع به جواسيس عبد الله ، الذى كان معسكره قد اقيم على اعظم روض او بستان يدعى المنارة بعيدا عن المدينة بحوالى ميلين انجليزيين . وفى اول ليلة على اقتراب مولاى زيدان من المدينة ، كان المسجونون قد خلصوا من السجن وكانت السجون قد كسرت ابوابها ، ففر هؤلاء الرجال، وقد حصلوا على حريتهم ، نصفهم الى اعلى المدينة ونصفهم الى اسفلها صائحين الله يطول عمر مولاى زيدان مما ازعج الاهالى كثيرا ، وعلى هذا الضجيج ، تسربت عصابة لمولاى زيدان الى داخل المدينة ، من الباب السرى ، وهجم كثير من جنوده ، على فرقة من جنود سلا ، قاصدين الى مداهمة معسكر مولاى عبد الله . ولكنه ذهب بنفسه فى ألفى رجل لانقاذه ، واستمر فى مناوشة حامية الوطيس ضد الزيدانيين ، وكان المسيحيون معه يقاتلون بشجاعة ، لاسترداد مدافعهم التى كانت قد فقدت ، الى ان اضطر الزيدانيون للارتداد .

وفى اليوم التالى وكان 25 من ابريل حسب التقويم الجديد 126 توجه عبد الله الى مولاى زيدان ، الذى كان معسكرا فى الناحية الشمالية من المدينة ، غير مجترىء على الاتيان الى جنوبيها ، وذلك خوفا من العيارات النارية التى كان رجال عبد الله يرمونها من دار الملك 127 . فلما سمع بتحرك عبد الله ، اليه ، وتصميمه على مداهمته مخاطرا بحظه

في المعركة الحالية ، بعث فرقة من احسن فرسانه للتقابل معه ، فلما عاين ذلك عبد الله ، آثار رجال مدفعيته للنهوض نحوهم فاقاموا صوبهم خمسة مدافع نحاسية فقط ، لان البساتين والرياض جعلت المرمى ضيقا جدا وهكذا كانت القوتان تلتقيان ، فهجم رجال زيدان على رجال عبد الله هجوما عنيفا جدا ، ولكن رجال المدفعية ردوهم على اعقابهم . فلما شاهد ذلك فرسان عبد الله ، تشجعوا وهبوا كثيرا لمطاردتهم ، فسقطت بضعة الاف من فرسانهم امام مدافعهم ، وركبوا اكتاف اعدائهم ، حتى كانوا قريبين من معسكر زيدان ، وكانت قطع المدفعية تجر من ورائهم ، فلما ادرك مولاى زيدان مزية المكان الذى شاهد اعداءه قد تركوه وعروا تحصيناتهم من اعظم مدفعيتهم التى كانت منها معظم مخاوفه ، استحث رجاله على احتلال اماكنهم ، وقد احضر معه قوة احتياطية جديدة ليرد فهم بها ، موجها ضرباته الشديدة على عبد الله ورجاله ، وبالاختصار فقد ظهر بحمية عظيمة في الهجوم ، بحيث جعلهم ينهزمون الى الوراء ، ملتمسين الفرار ، وفي اضطراب مروع ، الى الجبال التى كانت فيها مدفعيتهم ، فلما شاهد رجال المدفعية المسيحيون هذا الهرج والمرج ، ارتاوا ان يلقوا بقذائفهم ، حتى ولو وقعت على رجال عبد الله انفسهم ، مفضلين ذلك على ان يقتل خمس مائة اوست مائة من جانبهم ، ثم يخسرون المعركة ، ولكن المسلم الذى كان قائدا على المدفعية ، وقوادا آخرين لم يسمحوا بهذا . وحينئذ كان رجال زيدان يتعقبونهم في نظام حسن ، مضيقين عليهم الخناق ، فوقعوا يقتلون بالسيوف من ايدى الزيدانيين ، الذين داهموا رجال المدفعية وقتلوهم .

واستمرت المجزرة نحو اربع ساعات ، فقتل سبعة او ثمانية آلاف رجل وبقي قليل على قيد الحياة ليتحدثوا عن هذه المعركة التى لم يبق فيها العسكر على الاهالى ، منتقمين من عدم طاعتهم واخذينهم بالنهب والغارة وانتهاك حرمات نسائهم ، بل ان بعضهم دفنوهم احياء ، اما الذين كانوا موتى فانهم لم يتكلفوا ان يدفنوهم ، بل ظلوا ملقين على الارض فريسة للكلاب والعقبان ، ونسور السماء ، وكذلك كانت الوطئة شديدة من هذا الفاتح على المسيحيين الذين كانوا قد اخذوا جانب عبد الله ، واغلبهم كانوا قد خدموا عبد الله طيلة خمسة اشهر فهؤلاء كانوا اما مقتولين فى المعركة او حزت حلوقهم بعدها . وهكذا كانت نهايتهم بعد ما عاشوا فى مضيق جبل طارق ، والبحر الابيض المتوسط لا كتجار اشراف يصرفون بضائعهم ، بل كانوا يرتكبون الغارات والنهب في

ركاب البحر المتعددين . واخيرا وقعوا في ايدي المسلمين الدامية ، كعقاب استوجبوه وسلطه الله عليهم ، جزاء عادلا في حكمه ، على جرائمهم العديدة وانتهاكهم للحرمات (128) .

وفي هذه المعركة هريقت كثير من الدماء التي لم ير مثلها منذ ان ابتدأت هذه الحروب الدامية . وفر مولاي عبد الله الى فاس مع بضع مائات من رجاله ، كانوا بقوا على قيد الحياة فساروا في صحبته ، اما زيدان سيد الميدان فانه دخل مدينة مراكش وله مهمة اخرى كان لا بد ان يحرز عليها ، فلم يكن ليركن في اطمئنان الى عشه الخاص ، حتى يتوجه الى القصر الملكي الشبيه بالقلعة للاستيلاء عليه ، لقد كان هذا القصر يتصل بالمدينة بواسطة سور حصين معد للدفاع ، ولم يكن في حاجة الى مدافع تقام عليه من اي نوع ، وكان في داخله الى جانب جنود مراكش ، ثلاثة آلاف من الفاسيين الذين لم يكونوا في المعركة الاخيرة ، ولكن تركوا هناك ليقوموا على حفظ المكان لعبد الله ، فطلب منهم ان يسلموا ولكن هؤلاء الرجال في كبرياء وعجرفة ، معتمدين على قوتهم الخاصة وقوة المكان ، ابوا ان يسلموا ذلك الصحن ، على اي شرط من شروط مولاي زيدان وبالرغم من انهم كانوا يغرون طيلة مدة يومين من قبل ويهددون بكل وسائل الاخافة التي وجهت اليهم فانهم استمروا على عنادهم واخيرا فان زيدان احضر مدفعيته ووجهها الى هذه الاسوار ، الا انه مع هذا أرجأ استعمالها ، متنكبا أن يوجه نيرانها على تلك الاسوار القوية ، الجميلة والقيمة ، وحدث في نفس الوقت ، ان قائدا كانت داره متصلة بالسور ، قام بعملية خفية ، مع خمس مائة من الرجال ، فتسلق معهم السور وتمكن من الصعود عليه ، صائحا هو ورجاله : الله ينصر مولاي زيدان : مما جعل الجنود الذين كانوا في داخله يندهشون ، ظانين ان القوات التي دخلت المدينة كانت الى ابعد حد اعظم مما هي عليه . وبدون زيادة عناء او بذل اية مقاومة ، فانهم احتموا بحرمة المسجد الاعظم الذي كان متصلا بالبيت الملكي (129) ، وكل رجل منهم قد اصطحب معه سلاحه ومتاعه .

وعلى هذا ارسل مولاي زيدان الباشا سليمان (130) طالبا منهم ان يسلموا اليه سلاحهم ، مع وعدهم بانه سيعفو عنهم ، ففعلوا ذلك في الحين ، مذعنين اليه ، مسلمين كلا من سيوفهم وبنادقهم . وبعد ما تجردوا من السلاح ، فانهم بعباطة متناهية خرجوا الى الخارج ، حيث اتى نحوهم في

الحين رسول الملك الذي كان يحمل امرا بذبحهم وبتر حلوقهم ، فكان هذا جزاءهم الذي نفذ فيهم ، وانه لحالة مؤسفة ، في حكمي ، استهدف لها هؤلاء الرجال العديدون الذين كانوا قد اذعنوا الى اتفاق حسن ، بعد تلك المعركة الحامية ، وقد ساد الهدوء ثم كان هذا المشهد المؤلم يتمثل . وان كان عبثا بالنسبة اليهم ان يذعنوا سواء للقانون او للحق في الدفاع عن انفسهم ، الشيء الذي لم تكن له نتيجة الا التعاسة والعبودية لاولائك الناس ، الذين يوضع متاعهم وتقع حياتهم دائما تحت ارادة الملك في جميع الحالات : سواء للمحافظة على السلام او للتدمير ، وفق رغبته ، وعلى كل حال فان بعض حجج زيدان لطغيانه كانت واضحة منساقة لما ياتي : اولا ، انه كان يعتقد ان الفاسيين لن يكونوا ابدا منحازين جميعا له ، ولكنهم يستغلون نوبة الوقت المناسب ، وفي اية فرصة يثورون عليه ، ثانيا ، انه قد هدف الى مجازاة عبد الله بقصاص النفس بالنفس (131) حيث كان عبد الله قد وضع عدة من قواده الرؤساء في حيز الموت ، جاعلا اي زيدان مقابل كل واحد منهم ، على حياته الغالية التي ازهقها عبد الله ، ثلاث مائة شخص من عموم هؤلاء الجنود .

الفصل الرابع عشر

زيدان يبعث اعظم جيش لمحاربة عبد الله ، الذي قتل بعد المصاف عدة رجال من الزيدانيين زهاء ثلاثة آلاف ، فيصدر زيدان حكما دمويا على شراقة الذين أساؤا في حقه .

هاهو زيدان قد استقر بمراكش ، ولكن في امان ضئيل من رؤساء رجاله ، الذين كانوا يرغبون في تغيير الوضع حيث ان ملكهم من اجل ان يستولي على مرتباتهم ومقدراتهم لتقوية وضعه الخاص في حكومته انشأ يحدث الشحناء والخصومات بينهم مما جعلهم لا يحجمون ان يتكلموا فيه منتقدين صنيعة ازاءهم ومتضجرين منه ففقد هؤلاء رؤوسهم بسبب ذلك ، لان الكلب الميت لا ينبح *quoniam canis mortus non latrat* اما عموم الشعب الذين من طبيعتهم دائما الرغبة في الجديد وارادة ملك جديد فانهم شعروا بشدة جوره ، الى جانب المجاعة التي مات منها عدة وان ملكهم غير مكترث بالسلام ، وكانوا من قبل يظنون ان كل تغيير سيجلب

لهم العلاج . ولكنه في الحقيقة كان مثل الحزمن طبيب غير ماهر ، لا يبتر المرض ، بل يحدث بعمله جراحا اوسع ، فينغل الجرح ويعضل شفاؤه .

ولما كان زيدان هادفا الى اعطاء مسهل لهذه الطبيعة الساخطة من الراى العام ، فقد سير قوة من اثنى عشر الف جندى راجل ، وستة آلاف فارس ، مصمما فى ذلك على احتلال فاس بهذه القوة ، وكان القواد الرؤساء لهذا الجيش هم الباشا مصطفى والقايد احمد بن ابراهيم (132) والقائد على طهلا ، والقائد كاكو، والقائد حدو الطبيب ، مع آخرين متعددين . ولم يذهب مولاى زيدان بنفسه مع هذا الجيش ، بل بقى بعيدا عنه بمراكش ليلا تثور عاصمة الامبراطورية ، عليه في غيبته (133) .

اما مولاى الشيخ فانه لما سمع بهذه الانباء ، ذهب الى العرائش ، وهناك اخذ سفينة فلمنكية عظيمة من تاجرها بجميع البضائع التى كانت عليها ، ثم وضع فيها كنوزه ، مصمما على الفرار بها خارج البلاد ، اذا ابنه عبد الله خسر فاسا ، ولكن عبد الله لم يضيع اى وقت لحشد قواته الجديدة ، وفى قليل منها اعتقد انه اكتفى وانه بذلك اصبح قادرا على لقاء مولاى زيدان والانتصار عليه (134) فى ميدان مكشوف كان قريبا من مكناس ، حيث كان الناس فى جانب مولاى زيدان ، ناكرين ملكهم فى ذلك الميدان ، بل كانوا ناكرين لاى احد كان من البيت الملكى ، فاحجموا عن القتال ، وبدلا من الصدام فانهم لجاوا الى المفاوضة مع عبد الله بانه ان عفا عنهم فانهم سيستسلمون له ، وهكذا فعلوا ، وان كان اغلبهم فر بعيدا عن الميدان ، ما عدا ثلاثة آلاف من المراكشيين ، الذين لم يعتدوا بشهامة فى طبع عبد الله ، فظلوا مع زيدان آملين منه حسن النية فى أدائه لهم . اما اولئك اللذين لجئوا الى مولاى عبدالله فقد امر بهم جميعا ان تحز حلوقهم، مانحا اياهم فقط هذا الفضل ، وهو ان يتجردوا اولا من ثيابهم تماما ، وعلى هذا فاننا راينا زيدان الجزار يقتل بقساوة اولئك الجنود المساكين بمراكش ، وراينا عبد الله القاتل بدون رحمة لهؤلاء الاسرى الاشقياء فى مكناس فكلاهما كان محققا للقول المأثور القديم : *Quicquid delirant reges, plectuntur Achivi* الملوك يذنبون والاغريق يتحملون عقاب ذنوبهم (136) وفى هذه المعركة قبض على رجال انجليز ، يتردد عددهم ما بين الثلاثين والاربعين ، كانوا فى خدمة مولاى زيدان كمدفعية ، ولم يكن احد منهم فى تلك الجماعة التى كانت فى خدمة مولاى عبد الله بمراكش ، حينما خسر المدينة والميدان (137) بل كانوا غيرهم شجعان ،

وبعض من هؤلاء الانجليز فروا مع القوات المتقهقرة الى مراكش (138) اما بعضهم الآخر فاخذ اسيرا ، وقد ابقى عليهم عبد الله بسبب الخدمات السابقة التي اداها شعبهم له ، وكذلك من اجل العمل الحالي الراهن الذى كان سيستخدمهم فيه .

وهذه الحملة التي قام بها زيدان واتت اليه بكارثة لم تكن له في الحسبان ، جعلته في الحين يبعث قواده مع بعض رفقائهم الى الاعراب لتزويده من جديد بالرجال وبالاموال ومن بين هؤلاء قد بعث كرئيس الباشا سليمان قائد فرسان الملك السابق ، الى تافيلالت ليحكم ذلك القطر حاملا معه نحو خمس عشرة مائة من الرماة ، كان منهم ست مائة شرقي (139) جماعة ملك بلاد تشوز او كوكوس الذين كانوا دائما في حرب مع الجزائر او الجزائريين .

كان هؤلاء شراقة من اهالي جبال الاطلس نشاوا فيها فكانوا في طبيعتهم دمويين وحشيين ، لا يعترفون بسلطة الترك او الحكومة اكثر مما يعترف سكان جبال مراكش ، بسيادة ملك البربر ، وكان نحو اثنتى عشرة مائة من هؤلاء في فرق زيدان مرتبين فاحتفظ بنصفهم في مراكش والنصف الاخر ارسله مع سليمان فوقع بين هؤلاء انفسهم تمرد ، ولم يكن هذا التمرد لاحتياجهم الى اداء مرتباتهم او لانهم عوملوا معاملة سيئة ، بل كان ذلك رغبة منهم في مجرد ان يحدثوا أضرارا ، وعلى هذا فانهم عنوة احتزوا راس الباشا ، حاملين اياه معهم كتذكار لانتصارهم ، وهدية مناسبه يكسبون بها عطف عبد الله ، الذى كان آنذاك بفاس ، حيث ذهبوا لالتحاق بخدمته (140) .

وهكذا فصل زيدان من هناك معلنا انه من الان فصاعدا ، لمدة ثلاثة اشهر ، كل شركي جنديا كان او غيره ، وجد بمراكش او غيرها من مملكته ، فان دمه هدر ، يساق الى الموت ، ولكي يتخذ ذلك صفة امكن ويكون اعم عقابا ، فانه قد اعلن ان القاتل له مال ذلك الشرقى الذى قتله ، وكثير من اغنياء هذا الجنس او العشائر ، الذين كانوا في مراكش ، واخذوا احتدمتهم السيوف بسبب طيش وجناية قبيلتهم الشنيعة ، الا ان بعضا منهم استطاع ان يفر بما حمل على ظهره ، واخرون استطاعوا ان يجدوا لهم اصدقاء خلصوهم على ظهور افراسهم ، فكانوا احسن من اولئك ، الى ان فزع زيدان باخبار قدوم عبد الله عليه ، فاعلن عفوه عمن بقي على قيد الحياة منهم ، وسمح لجميع الشرقيين باتيانهم بتجارتهم او بضائعهم

ان كانوا يريدون ان يزاولوا ذلك بمراكش ، ومع هذا فقليل منهم جرؤا على العودة ، بناء على هذا القرار الحسن ، وظهر هؤلاء الذين اختبأوا في مراكش ، ان كانوا قد ملكوا شيئا بها ، فاظهروا انفسهم للناس ، وذلك خوفا من ان يكون هذا القرار مجرد تظاهر منه لاحضار البقية الباقية الى المشنقة .

هؤلاء الشراقة الذين كانوا السبب الوحيد لهذه الملحمة ، والذين التحقوا بعبد الله في فاس ، كانوا دائما يحرضونه على التوجه الى مراكش ، واعدين بان يضع كل رجل منهم حياته في سبيله ، وذلك انتقاما لازواجهم واصدقائهم الذين لقوا حتفهم من اجلهم ، وتأذوا بسببهم، فاستجاب عبد الله نوعا ما لعرضهم ، ولكنه تردد ، مدركا ان قواته دون قوات الزيد انيين الى ابعد حد الى ان اثر فيه هؤلاء الشراقة الذين اتوا ببعض ذخائر من عشائرهم في الجبال فكان هذا كافيا لتموين الرجال الذين يتويدونه ، حينئذ فصل بهم متجها الى مراكش ، او اخر غشت ، مصمما على ان يداهم مولاي زيدان مرة اخرى ، اما القوات التي كان عبد الله متوفرا عليها فان هذا غير معلوم بالضبط ، ولكن قدر ذلك ، على التخمين ، بنحو خمسة عشر الفا من الفرسان والمشاة .

الفصل الخامس عشر

فرار زيدان وموت البطل القبطان جون كفرد وانجليز آخرين ، واسترجاع عبد الله مراكش .

كان مولاي زيدان قويا جدا ، بأولئك الجنود الذين كانوا معه ، وقد ساعده المراكشيون بثمانية آلاف رجل ، وبعض القبائل ارسلت اليه رجالا لتعضيد قواته وتكثير سواده ، وكان معه مائتا انجليزي ، كان اغلبهم شجعان متوفرين على ستين مدفعا ، مع كفاية من القذائف والبارود ، وكان قائدا على هؤلاء الانجليز وجميع المسيحيين القبطان جون كفرد (141) احد النبلاء الذي كان من اصل رفيع متحدرا من ارومة عريقة في الشرف وهي عائلة كفرد في بوكنكها مشير ، والذي كان على اول توظيفه في هذه البلاد وترحيبها به ، قد انعم عليه مولاي زيدان بسيف فاخر قيمته الف مرك ، وحرملة قرمزية فاخرة مرصعة بالجواهر ،

كانت قد اهديتها الى مولاى احمد ، الملك الاب ، ملكتنا صاحبة الذكر الخالد ، والسيادة الشهيرة الزابث ، الى جانب منح اخرى ذات القيم العظيمة والنادرة ، وغالبا ما كان مولاى زيدان يخالطه كاحد افراد عائلته، بل انه كان فى بعض الاحيان يزور القبطان كفرد فى معسكره .

اما مرتبه فكان خمسة وعشرين شلينا يوميا ، الى جانب علاوات كانت تاتيه بواسطة انعامات الملك عليه ، ومعه كان رجال آخرون كلفوا بمهام ثانوية ، مثل السيد فليب كفرد ، وهو احد الاقرباء اليه، واعزهم عليه ، والقبطان جكس ، احد الجنود الابطال ، والقبطان سمث احد المهندسين المهرة فى فنهم العظام فى اروبا ، والقبطان بيكر احد الجنود القدماء البرطانيين ، والقبطان طيلر فوكس ، والقبطان تشمبر والقبطان ايزك . وهؤلاء الرجال كانوا فى مكان ذوى القدرة على القيام بالقيادات المختلفة ، وكان هؤلاء لهم مرتبات يومية تصل الى اثنى عشر شلينا ، لكل منهم ، ماعدا القائدين البحريين ، وهما ايزك وتشمبر ، فان مرتبهما كان اربعة شلينات ، وكان كل جندى اعتيادى يتقاضى اثنى عشر بنسا مرتبا عن كل يوم .

فهذه الاستعدادات جعلت مولاى زيدان له حظ قليل من العذر فى ترك الميدان او الخوف من قوات مولاى عبد الله ، التى لم تكن شيئا بالنسبة الى قواته ، ولكن يقال ان مولاى زيدان كان قد وجه حول عرافه وسحرته ، طالبا منهم ان يتنبأوا له بما عسى أن يعرف من توفيق جيشه الذى اعده للقتال ، فكان جوابهم انه سيخسر المعركة وسينهزم الى سوس ، حيث يظل بها خمسة اشهر ، ثم يسترد مراكش ويتمتع بالملك هناك طيلة حياته ، وعلى جوابهم هذا فان مولاى زيدان صدق نبوتهم اعظم تصديق ، وحيث ان نفسية ملك المغاربة كانت منهارة جدا ، فقد أمر البواشا مصطفى بقيادة 3000 جندى كى يصحب بها أمه ، وأزواجه واولاده ، كما امر القائد احمد بن ابراهيم وحدو الطبيب بالقيام على حفظ كنوزه ، فحمل على ستين بغلة الذهب الذى كان له ، وكانت معداته الحربية الفى بندقية ممتازة .

وهكذا نفذ الامر ، وكان منتظرا ان زيدان ، وقد تسكع ، لا محالة سيلتحق بأولئك ، لكنه مع هذا قد خاض المعركة يوم 26 نونبر 1607 وكانت على بعد ستة عشر ميلا من مدينة مراكش (142) ، حيث كان قسم من

مدفعية مولاى زيدان يطلق النيران فى المقدمة على عدوه ، الذى كان بعيدا عنهم، لكنهم قبل ان يعاودوا اطلاق النار كان العدو قد اختلط بهم .

اما شراقة فانهم لم يطلقوا النار من المدافع ، لامن عظيمها ولا من صغيرها ولكنهم انضموا معا الى جيوش عبد الله ، هاجمين على جيوش زيدان ، بسيوفهم وفى وحشية ، منتقمين من طغيانه الذى نال به مواطينهم ، وقد اثاروا غضبهم وهيجوا شجاعتهم كما ان وعودهم المخلصة ، التى كان عليهم ان ينجزوها جيدا ، لعبد الله ، جعلتهم ينقضون على جيوش مولاى زيدان فيفرون ، عداهذا كانت مخاوف زيدان من عدم تصديقه لتنبؤات سحرته مما حمل جيشه على ان يفروا بعيدا عنه ، ولهذا فعلى اول ملاقاة وقع رجاله المسلحون فى هرج ومرج ، وسرعان ماجدوا فى فرار مخز ، جعل مولاى زيدان يفر كذلك ، ومرسلا الى قواده الانكليز ، ان يلوذوا بالفرار خصوصا القبطان كفرد الذى ارسل اليه جواده لينجو عليه .

لكن هؤلاء الانجليزى اجابوا على هذا بقولهم : اننا لم نات هنا للفرار، بل لنموت موتة شريفة، وهكذا شجع القبطان كفرد رجاله ، قائلا لهم انه لا امل فى الانتصار ، ولكن فلنستعد للموت كالرجال ، وكانجليز ، ثم طلب جكس الذى كان يحبه كثيرا ويعزه ، اخذا فى يده فاسا ، ظانا انه سيشق به الطريق اليه ، وقد قيل له انه ليس بعيدا عنه الا بستة خطوط ليكون ميتا معه .

ولكن فى الطريق ، كان القبطان كفرد يلقى عليه النار ستة من اصحاب عبد الله ، فأصابه أحدهم أمامه بعار ، فوقع هناك قتيلا ، وبقى قليل من رجال الانجليز على قيد الحياة ، فى عدد لا يتعدى ثلاثين ، ولم يفر احد من القواد ، ما عدا القبطان ايزك والقبطان فوكس ، ولم يقتل من المسلمين جميعا اربعون شخصا .

اما زيدان فانه كان ذاهبا فى اشمتزاز لينتظر ، وقد اتفق الدعاء لكسب الميدان ، على حين حصل عبد الله على البلاد التى كانت لعدوه ، ولكن لم يكن له خطر عظيم ، فدخل مراكش (143) بدون تهليل ولا ابتهاج من الاهالى، بل ان بعضهم كان لما يزل يتالم مما كان قد ارتكب من اضرار اخيرا ، وهكذا فلا احد كان قد حزن على فقدان مولاى زيدان ، الذى سبق ان برهن على جبروته ، ولا رحب حقيقة بعبد الله املا فى اصلاح منه ، ولكن بحكم السياسة والاصطبار استعدوا لضائقات الزمان .

والان هاهو عبد الله قد اصبح مرة اخرى سيد مراكش ، فيستولي على بيت الملك ، ولكنه لم يجد به كنزا ، يسعف به حاجياته ، وكان يريد ان يتجز وعوده العظيمة التي قطعها على نفسه لشراقة بمكافاتهم بمنحه واغناء اتباعه لما يحتل المدينة ، التي قد تمكن منها الان ، غير انه خاب امله هناك على حين كان عسكره في حاجة الى كل من الطعام والمال ، فلاجل ان يحتفظ بهم على امل ، وتحت حكمه ، جعل يشاع ان الملك الشاب قد وجد بئرا مليئة بالذخائر ، تحت مبنى القصر ، وكان مولاي احمد الشريف قد ادخره لسنة عصيبة ، ولكن هذه الاخبار السارة سرعان ماكشفت ، فان البير لم تكن مليئة حتى بالماء ليبلوا به غليلهم ، حينئذ كانت شراقة الذين خلصوا عشائرهم ، واستردوا ازواجهم واولادهم وكانوا قد فروا من الحكم القاسي الدموي الذي كان مولاي زيدان قد اصدره اخيرا في حقهم ، يكتفون بالكلمات الطيبة والمعاملة الحسنة من عبد الله بدلا من الاداء وبعد ما تاكدوا ان مراكش لا تمنحهم الطعام ولا ان حظ عبد الله سيدوم طويلا ارتحلوا في عدة ثلاثة الاف رجل دفعة واحدة ، واحتفظ مولاي عبد الله بمراكش، معتمدا على بقية قواته ، ومستعملا مع الجميع كل الوسائل الممكنة ، ليجعل جيوشه مرتاحة اليه ، حتى يحتفظ بهم مجتمعين ، وبفضل كثير من العناء استطاع ان يقيم بمراكش شهرين ، بينما كان مولاي زيدان في ذلك الوقت يحشد في سوس جيشا آخر من جديد .

الفصل السادس عشر

مولاي احمد ابو حسون ياتي لمحاربة عبد الله ، ويجعله يفر الى ابيه، وكذلك يهزم ابا فارس الذيأو شك ان يوسر ، ففر الى سلا ، مولاي زيدان ياتي لمحاربة مولاي احمد ابو حسون ، الذي انهزم ، فسم بواسطة عزوز الشيخ .

ولكن بينما كان عبد الله وزيدان يدبران امرهما ، انبعثت هناك زوبعة عاصفة في الجبال ثم انحدرت الى بالسهول من مراكش ، وكان الباعث لهذه الزوبعة مولاي احمد (144) ابو حسون ابن عم للاخوة الثلاثة الذين كانوا يتصارعون على الملك ، كان هذا الرجل قد جمع اموالا وساير

الظروف التي مر بها هؤلاء الثلاثة جميعا ، فلعب دوره ، حينما ادرك ضعفهم وما انساقوا اليه بهذه الخصومات ، وسرعان ما راى الوقت قد حان فذهب الى الجبال ، حيث كان اقاربه فحشدوا له نحو عشرين الف رجل مقتدر، ولما كان مولاى احمد هذا قد زود جيدا بالاموال ، فانه ادى لهم مرتباتهم بسخاء ، جاعلا اياهم يحترمونه باخلاص تام . وفي مدة اقل من شهرين كان قد حصل على جميع الاشياء اللازمة ، وانحدر من جبال تيسوت تجاه مراكش (145) .

فلما انتهت هذه الاخبار الى عبد الله ، الذي لم يسر بها ، دعا عقلاء مجلسه للاجتماع ، فكان اتفاقهم ـ بناء على ان شراقه كانوا قد ذهبوا وان بقية جيشه واهن ، قد هلع وانخلع قلبه ، وان المراكشيين كل يوم يفرون الى ابى حسون ، الذى كان نهوضه بالثورة مثل النجم الثاقب وقد اتجهوا بانظارهم اليه ـ على أن عبد الله عليه ان يسير الى فاس بدون تردد ، فاستعد لذلك مصطحبا معه من هناك بعض الضروريات ، وغالبا ما كان قد قاس الاميال ، وعلى حين كان يستعد ان يقوم برحلته هذه ، فان حدثا واهيا استعجل سيره ، فعلى بعد بعض الاميال عن معسكره عبد الله وعلى رابية من خلف مراكش ، رؤى رجل وفي يده رمح ، وبعض الخطوط البيضاء تلوح عليه كعلم) فظن عبد الله ان ابا حسون قد اتى مع جميع جيشه من خلف الرابية ، مع ان هذا كان بعيدا بمسيرة يوم كامل من مراكش ، وبناء عليه فانه بمنتهى السرعة اخذ بعض خيامه ، ولكن اعظم قسم منها بقي قائما على حاله ، فارا ترتعد فرائسه ، وبعد برهة ، لما اكتشف الامر ، الذي بسببه اخذته الدهشة ، وجد انه لاشيء اكثر من كون ذلك الرجل احد الفقراء المسلمين ، كان قد غسل ثوبه الابيض ، ولاجل تنشيفه بسرعة ، فانه استعمل هذه الوسيلة ، التي ازعجت عبد الله عن عاصمة امبراطوريته فاسرع الى فاس ، اكثر الامكنة سلامة لقامه .

ولما سمعت لالا عائشة ام زيدان باقتراب ابى حسون اعتقدت ان حركته ما كانت الالمجرد الدفاع عن ابنها وتمكينه من حقه ، عالمة بان ابا حسون كان داعيا باسم ابنها زيدان اخيرا ، فكانت تؤدى له الاموال عاملة بشخصها للمولى المذكور ، وهو فى المعركة الاخيرة ، وقد فر زيدان الى سوس ، وعلى هذا فانها ارسلت بعض القواد ، ممن كانوا قائمين على حراستها ، وآخرين من اصدقائها واقربائها لتاييده ، ظانة انه سياخذ مراكش لزيدان ، لكن ابا حسون وقد دخل المدينة بسلام ، اعلن نفسه ملكا،

متكـرا كل معروف لاصحاب زيـدان الذين لم يكونوا قـد رضوا بالعمـل في خدمته ، فرجعوا الى مولاتهم السيدة ، مظهـريـن لها الخطـا الـذي ارتكبت والتوفيق الذي كانوا عليه .

لقـد وزع ابو حسون امواله بسعـة على اتباعه ، مظهـرا انـه غير راغب في خـدمـة احد ، الا هؤلاء الذيـن كانوا راغبين في ذلك ، وقد بقي في المدينة نحـو ثلاثـين رجـلا من الانجليـز وهم تعبون من تعاستهـم التي قـاسوهـا متشائمين من حالـة البلاد ، فاعطـاهـم الاذن في ان يبحروا ، وكتب الى حاكم آسفي ليخلي سبيلهـم .

وحسب الاوامـر التي تلقاها المكلف البحـري للانجليـز ، فانه وزعهم على عـدة سفـن مـع كـل وسائل الراحة ولـو انه ، الى جانب كلفته وتعهده كان يحـدوه الى ذلك بـره وسعيـه الى مساعدة النفوس الحزينـة وحبه لمواطنيه .

امـا مولاي احمد ابو حسون فانه خـلال مـدة حكمه ، كان رجلا صالحـا جـدا وعادلا ، لـم يدخـر وسعـا في ذلك ولـم يبد فظـاظـة ، ولا انتـزع مالا من احـد : بـل كـان يؤدي للتجـار حقوقهـم التامـة ، ممـا جعلهم يحبونـه كثيرا لمعـاملته الطيبة وخلقـه المتين ، وحينما سمعت ام ابي حسون بان ولدها قـد استقـر بمـراكش ، حشدت لـه ما استطاعت من قوة من الجبال ، وفـي طريقها علمت أن أبا فـارس قـد أقـام بقلعـة كـان قـد لجا اليهـا ، وأنـه ليس محـروسـا تماما فأحدقت بالمكـان ، قاصدة أن تاخـذ مولاي أبـا فـارس اسـيرا ، ولمـا كـان مجـردا مـن وسائـل المقاومـة ، فانه في الليل جعل ثغرة في الجـدار ، وفـر منها الى سلا سرا : الثغـر الـذي كان تحت سلطـة اخيه الشيخ ، حيث ظـل بهـا ذلك اليوم (146) .

وفي الغـد باكـرا كانت ام احمد بوحسون تقتحـم الحصن ، مخطئـة ابا فارس ، وقـاطعـة رأس مسعـود النبيلي ، احـد قـواده الرؤساء ، ثم تقدمت في سيرها نحو ابنها ، لتقـدم له التهاني بمناسبة صيرورة الملك اليه ، وكـان آنـذاك بمـراكش ، ولكن الامبراطوريـة التي احـرز عليهـا كـانت مريضة ، قلمـا تـرى مستمرة طويلا ، ولهـذا فانـه في اقل من شهرين ، كـان مـولاي زيـدان قد اتى من سوس ، مـع قوة عظيمـة من رجاله ، الذين انجدته بهـم للا عائشة ، وقد باعت جواهراهـا وحليها ، لتجهز ولـدها برجـال يحملـون السيوف والمعـاول والهراوات ، وتزوده بالفرسان وغير ذلك من معدات الحرب ،

ومن ناحية اخرى ، كان ابو حسون قد استعد للقاء ابن عمه مولاى زيدان وحول فاتح ابريل من سنة 1608 كانت كلتا القوتين تتقاتل بشدة فى مراكش (147) وحدث أن أحد رؤساء العشائر ـ وهو رجل فظ اتى من سوس ، مدمن جدا على شرب الخمر ، وكان دائما حظيا عند مولاى زيدان ، وان كان لا يحترم احدا من الملوك الثلاثة الا قليلا ، معتزا بقوته الخاصة ومكانته ـ قد رغب فى أن يكون له الظفر والشرف بهجومه على العدو بخمس مائة فارس ، الذين كانوا عسكره ومن اقربائه الخاصة ، فابى زيدان ان يسعف طلبه ، غير ان «قاسم» استاذن مودعا ، وهجم على العدو بقواته هجوما عنيفا ، فاستقبلهم هذا بشجاعة متناهية ، بحيث ان قاسما ورجاله كانوا محيقين بأعظم المخاطر ، التى كانت ستقهره ، حينئذ كان زيدان لاجل ان يغيثه ، يبعث بخمس مائة من فرسانه ، فاستطاع قاسم بهذه الالف ان يكسر مصاف ابو حسون فى الميدان وانقضوا بسيوفهم على رجاله قتلا . وبذلك كان جميع المعسكر يشاهد خسران الميدان ، ففر مع ابى حسون تجاه الجبال .

وهكذا فان زيدان بدون اية مقاومة زائدة على هذه ، دخل مراكش حيث استقر بها فى اطمئنان ثلاثةاشهر . ثم ان احمد ابو حسون استعاد قوة جديدة فى يليه التالى ، فاشرف بنفسه على المدينة ، معتمدا على قوته تماما ، وعلى حب الاهالى ، املا ان يستغل معاملته الطيبة لهم ، حينما كان بين ظهرانهم ، فكان فى حكمه لهم مهذبا متوددا لهم ، مثالا للطف والخلق النبيل ، ولكن الجمهور ذا الفكرالحقير ما راعى عطفه ولا تذكر الماضى الا قليلا ، والخوف من زيدان جعلهم نافرين من ان يبدوا اى علامة للارادة الطيبة ، وعلى ذلك فانه على اقترابه من المدينة ، لم يعرف اى رجل منها استل سيفه فى نصرته ، ولم يكن الثامن من يليه ، حتى كان ابو حسونمقهورا بفقدانه بضعة آلاف من رجاله ، حينئذ فر الى الجبال ، حيث كان بعد اربعة ايام يتمكن منه القائد عزوز فيسمه (148) آملا من ذلك ان ينال حظوة مولاى زيدان .

كان عزوز هذا شيخا مسنا داهية ، وبطول تجاربه كان يعرف اسرار الدولة ، فقد ربى تحت رعاية عبد الله اخى مولاى احمد الشريف ، ولنصحه لعبد الله بان يسمل عينى احمد الشريف ، او يحتز حلقه ، فانه كان فى خطر من فقد حياته ، حينما اصبح احمد الشريف ملكا ، ولكن ذكاء الرجل جعله يكسب نفس التقدير من احمد الشريف ، بحيث انه بدلا من

أن يكـون مسجـونـا جعله الرئيس الاعلي لمجلسه الاستشاري وأمينا على بيت ماله (149) وخلال أيام حياته كلها ، كان سلوكـه مثـالا حسنـا ، فاستطـاع بـذلك ان يكسب اعظـم حب وتقديـر بـين العمـوم والنبلاء وكثير من البيت الملكي . فلمـا تـوفي احمـد الشريف كـان هـو في معسكـره الـذي أقامـه قـريبا مـن فاس ، وبعـد مـوتـه ، وضـع كـل حبـه في مـولاي زيـدان ، جـاعـلا اياه الرجـل الوحيـد واولي الاخـوة الثلاثـة بالملك والحكـم ، الى أن صار هـو وسيدي ابن مبارك لا يمكنهمـا ان يسـديـا نصحهما ويـوجهـا مولاي زيـدان ، لصالحه ولصالح الارادة العـامة للشعب ، ذلك انـه اصبـح عنيـدا راكبـا راسه ، لا يستنيـر بايـه نصحيـة لانسان ، بـل يعتمد على ارادتـه هـو وقلبـه وعقله وعلى هـذا فـان سيـدي عبد الله ابن مبارك ذهب الى مقـره بـآقة وعزوز الى قلعـة بالجبال ، بحيث كان له من الامـوال ما يقيم شؤنه ، ويدفـع بـه عوادي الدهـر ، أو ينعش به شتاء عمـره المسن ، ومـن هنـاك فـانهقـرر الا يعـود الى الحيـاة منحدرا من ذلك الجبل ، الى ان يرى الامـل قـويـا في السلام ، وقـد اصطحب معـه ، بنـاء على هـذا ، غـالب امـواله محفوظـة في صناديقه ، مبتعدا عـن جميع الاخـوة الثلاثـة ، ومفضلا ان يقضي حياته بـين ظهـران اصدقـائه واقربائـه ، وفي مكـان محصن جـدا لا مثيل لـه في المغـرب .

الفصـل السـابـع عشر

مولاي الشيخ يرسل جـون آتينـا (150) الى اسبانيا ، المغاربة ضد نزولهم الـى البـر

لمـا راى مولاي الشيخ ابنـه عبد الله يعود منهزما الى فـاس ، وقـد فقـد قسما من جيشه ، والباقي قـد انهكته التنقلات والقى في قلبـه الرعب ، وقـد استنزفت كنوزه كلها ، ولم يبق منها شيء ، ومولاي زيـدان يطـارد ابا حسون الى الجبال ، حيث قضى على حياته بهـا ، وتمكن زيدان من استعادة المدينة (151) والارجـح انه يحتفظ بها ضد الجميـع من خصومه ، فانه خـوفـا من ان يكون الشروع التالي لمولاي زيـدان هو مطاردته الى خارج فـاس ، قـد وقـع فـي مفاوضة تاجـر طلياني يسمى جـون اتينا ، ليكون نائبا عنه في الـذهـاب الى اسبانيا كنائب عنه في انجاز ما يلي : اذا ساعده الملك الكاثليكي بالرجـال والمـال ، ليسترجع حقه ، فان العرائش وسلا والقصر ومدنا اخـرى ستسلـم الى يـده وتقـع لقمـة سـائغـة في فمـه .

وعلى حسب هذه المفاوضة تم الاتفاق ، ووعد جون اتينا ، مكافأة له على جده في هذا العمل ، بأنه ان تحقق في الواقع تسليم تلك الموانى فسؤدي له سنويا الفا دوكة مدة حياته ، وفي ينيه الاخير كانت المسالة اول ما أثير ، ومنذ ذلك الوقت حتى اواخر غشت ، كما قص على محدثى ، كانت سبع سفن اسبانية ، وسفن اخرى من نابولى ، وفى كل منها مائة بحار مجهزة تجهيزا حسنا بالذخائر وعدد من الرواد لاقامة الحصون ، تتوجه الى العرائش ، ظانين ان المدينة ستقع فى حوزتهم غير ان ثلاثين الف عربى انحدروا الى الشاطىء ، ولم يسمحوا لهم بأى اقتراب ، وان كانوا قد جلبوا معهم الاندلسيين الذين دمهم مزيج منهم ويحكى ان الحاكم (152) كان قد منحهم مفاتيح المدينة اذا هم استطاعوا النزول الى الشاطىء ، ولكنه حينئذ قال لهم انهم اتوا قبل الاوان متسرعين قبل ان تنضج المسائل او تكون انجزت كما كان الشيخ قد منى ملك اسبانيا بكسبها . وهكذا فان هؤلاء رجعوا على اعقابهم خاسرين مخطئين اهدافهم، وكان من المحتمل فى هذه السنة ان لا يقفوا دون جعل سيدهم الحاكم الوحيد لكلا جانبى المضيق لجبل طارق .

وهل كان السير انطونى شيرلى عاملا فى هذه المهمة ؟ هذا ما لا يدرى بالتاكيد ، فبعض الاقوال تفيد انه كان قد لج به هناك ، ذلك انهم قد سمعوا سابقا ان ملك اسبانيا قد انعم عليه انعاما ملكيا على مجهوداته مع ابى فارس ، بأن اعطاه رتبة ومرتب قبطانين بالهند ، جاعلا اياه امير البحر لجميع بحار الشرق الاقصى ، ثم جعله نائبا عنه على نابولى له كمرتب شهرى خمس مائة دوكة ، وغنى عن البيان انه يعرف جميع عادات تلك الشعوب الهمجية البربرية ، وان له من الادراك والفطنة الباهرة ما يتمكن به من السيطرة على شعب يتصل به فينال مكانته عنده ، ذلك انه ما يكون بين ظهرانهم حتى يظهر التادب لمن هو احسن نوعا ، محرزا على الثقة بينهم ويمنح حبه للنوع الفقير جدا بواسطة هباته ، بحيث انه اذا مسلم او عبد اهدى اليه طبقا من التمر فانه يقتبله منه هدية قيمة كانما هى هدية امبراطور وعلى كل حال فان بعضهم ربما يرى هذا غلوا منه واسرافا ، ويعتبره بعيدا عن الصواب ، ولكنه بواسطة هذه الوسائل استطاع ان يتصل بمعرفة الناس ويختبر شؤنهم وعاداتهم ، الشىء الذى ماكان فى الامكان ان يتاتى له بدون ذلك ابدا ، واغلب الظن والارجح ان السير انطونى لم يكن فى هذا الاسطول ، لهذا ما وفقوا ابدا لما هو احسن من العودة ، فلو كان هو فى صحبتهم وكانت له القيادة ،

لكان اما قد حصل على النزول الى البر واما خاطر بالجميع ، مستنكفا ان يعود بلا شيء ، قد فعله فيكون ضحكة للضاحكين ، وربما يكون هذا شان أعاظم الرجال الذين لايكترثون لأخطر المسائل وأبهرها ولكن في بعض البلاد ولسبب معقول ، والا فان عين العالم الحاسدة التي تنظر اليهم وتسجل اعمالهم ستسخر منهم اذا هي راتهم يخفقون في مسعاهم .

والان ايها القارئ العزيز ، يجب علي ان اعود مع هذه السفن الى شاطئ السلامة والهدوء بفضلك وشهامتك ، ناظرا الى ان الشمس تنحدر الى مدار فلك الشتاء ، والبحار ستشرع في اصطخاب بخشونة وارتفاع فان هم ابحروا تجاه لجج البحار ، فربما سيتعرضون للعواصف ، وان كان بالنسبة الي ، لاكتب بدون اشعار ، ان ابحر كيما اتفق ، وسرعان ما يكون مدركا لفطنتك كيف اني اخاطر بدون ما يكون لي معدات البحار ، وكان علي في اكثر من اتجاه ، وفي يسر ان اقوم بعملي لاغراق سفينة شحنتي الصغيرة ، التي اعترف انها لم تكن ذات قيمة ، ومع هذا فانه سيكون احسن قيمة اذا عملي جاز لومك الرفيق ، ومن هنا فاني سابحر ، تاركا الشيخ مع ابنه عبد الله بفاس ، وابا فارس اما في سلا او في بعض الثغور ، مستعدا للفرار اكثر من كونه مستعدا للقتال ، اما زيدان فانه الان يدير دفة الامور في مراكش ، آملا ان يهدي سفينته التي تتقاذفها الامواج مدة النبوءة المذكورة ، كما اترك لاسبانيا اعظم ملك يامل ان تظفر في مسعاها بافريقيا ثم تطوان ، ولها في هذا الشان اعتماد على مولاي الشيخ الذي يسمى عموما امير الموريسكوس الوارث الشرعي المنحدر من اصل محمد الشيخ الشريف ، أرومته ، والذي كان اول رجل انتزع الامبراطورية من المرينيين ونقلها الى عائلة الخاصة .

وهكذا نقف عند نهاية الفصل السابع عشر ، الذي ينتهي بذلك التاريخ الذي كان فيه ابو فارس قد توفي ومحمد الشيخ قد حل باسبانيا، على فليبي الثالث ، متدولا معه في شأن المساعدة ، مقابل التنازل له عن العرائش ، وقد غادر ولده عبد الله ، منهزما امام عمه زيدان الا انه بعد ذلك استطاع ان يحتل فاسا ويستولي عليها ، ثم نرى الاسبان يستعدون لهذا الغزو ، ويجردون قواتهم التي حملها اسطول مكون من سفن اسبانية وايطالية وصقلية ، وذلك تحت قيادة انطوني شرلي ، الذي وصل باسطوله الى العرائش في السنة العاشرة ، كما يقال .

كان محمد الشيخ يظن ان الملك الاسباني سينجده ، كما سبق لسبستيان البرتغالي ان فعل مع المتوكل ابن عمه ، وذلك مقابل العرائش التي وعد بالتنازل عنها . ولكن الملك الاسباني لم يرد ان يقع في نفس الغلطة، بل انه اكتفى بان وعد الشيخ انه ان تمكن من احتلال العرائش ، يسلمه 500000 دوكة و 6000 بندقية . اما فيما يتصل بنصرته بالرجال ، فان الملك الاسباني استغل هذه الفرصة ليتخلص بها من آخر موريسكي، من هؤلاء الذين كانوا ما يزالون مستقرين ببعض جهات من اسبانيا والبرتغال ، مدعيا انهم قد عقدوا مع الاتراك مؤامرة سرية ، يمكنونهم بها من التوغل في اسبانيا . ولهذا فانه حاول ان يرمي عصفورين بحجر ، فلم يسمح لهؤلاء بالهجرة الى فرنسا كما طلبوا ، بل انه حملهم في ثلاث سفن كبيرة ووجه بهم الى المغرب مع مولاي الشيخ الذي كان يدعى ملك المورسكوس وكان من قبل يدعى فليبي الافريقي .

وهكذا فان الاسبان أرادوا ، قبل ان يحتلوا العرائش ، ان يمهدوا لذلك ، بارسال أولئك المورسيكوس تحت امرة ابن المتوكل ، لاحداث الشغب هناك ، ضد الدولة ، وصار يعرف بمولاي الشيخ اسمه القديم ، كل هذه الاحتياطات التي اتخذوها ، لم تكن كافية لهم ، في هذا الاحتلال ، ولهذا فقد ظل محمد الشيخ في بعض الجهات ، التي كانت لهم في المغرب ، واحتفظوا به في طنجة ، كرهينة عندهم ، بينما ابنه عبد الله ، اشتبك مع عمه زيدان في معارك دامية .

وهنا نجد زيدان يبعث بسفرائه الى الارض الواطئة ، لاستئجار بعض رجال الحرب منها ، ولجلب بعض العتاد الحربي كذلك ، لاستعماله في محاربة هؤلاء الاسبان ، الذين كان الى جانبهم في تلك الحملة ، مسيحيون آخرون من برتغال وفرنسيين وايطاليين والمان ، شانهم في ذلك شانهم فيما قبل ، حيث يعطون لمثل هذه الغزوات الغادرة ، صفة الحروب الصليبية ، وبذلك كانوا يجدون دائما البابا في تاييدهم . ومهما يكن ، فان الاسبان استطاعوا ، بعد عدة حملات ومعارك ، ان يحتلوا العرائش ، وذلك سنة 1610 .

في هذه السنة كان سفير انجليزي يصل الى آسفي ، ليسلم الى المولى زيدان من الملك جيمس ، رسالة حملها منه ، وكان ذلك السفير جون هرسون الذي وصل الى آسفي في شهر يتيه سنة 1610 . حاملا رسالة من جيمس الى زيدان كما قلنا ، الا انه وجد حالة المغرب في غاية الخطورة ، لدرجة

انــه ما استطــاع مقابلة زيـدان ، كما نجـد في رسالة له الى سلسبـري ، بتاريـخ 10 يتيه 1610 وكــان قد بعثها من آسفي يقـول فيها :

قد وصلت الى آسفي مبعـوثا ، كرسول لصاحب الجلالة مـع رسالته ، الى مالك المغـرب ، وذلك في شان التجـار الـذين هم ببلاد البربـر ، فلمـا وصلت الى آسفي ، ظننت ان مهمتي ، سـواء بالنسبـة الى هـذه الاهـداف الشريفة التي تلقيتها من يدك الشريفـة حينما كنت اخـيرا في الحضرة ماثـلا امـام سيادتك ، وتلقيت الامـر منك ، وبالنسبة الى مكانك الشريف ودعوتك لي فاني اعتبرهـا اساسا لادراك جميـع القضايا ، وعلى ان اعلم سيادتك بكل ما يتصل بالوضعيـة الراهنة للدولة في هـذه البلاد المضطربة ، كما سبق ان قلت في تقـريـر عـام كتبته عن السفر الذي قمت بـه . ذلك ان مولاي زيدان يقضي اوقــاته منذ امـد طـويـل بالمحلة ، كما يدعونهـا هنـا ، او المعسكـر ، بتادلـة او قـريبا منهـا ، بـين فـاس ومـراكش ، وقسم من قوته ، يقـوده اخـوه عبد الله بـن احمد (الـزبـدة) الذي قـد تلقى قريبا ، هزيمة شنيعة. فـارسل الملك الى جميع الجهات يدعوهم الى نجـدتـه .

امـا مولاي عبد الله بـن الشيخ فقد استولى على فاس . ولهـذا فان الاخبار السابقـة مـن زيـدان بانـه قـد استرد ذلك لـم تكـن صحيحـة . ولكـن بهـذا الخصوص ، فانهـم يقولـون انـه يتبـع سياسة عظيمـة ، فيرسل رسلـه الى مختلف الجهـات ، كمراكش ، وآسفي ، وجهـات اخـرى ، باخبار مزورة عـن استرداده لفاس ، (كما قـد ادعى) ، فيجعل هـؤلاء يقذفون قذائف المدافـع على هـذا النصر ، ولـمـا سمع سكان سوس هـذا ، قدموا اليه انفسهم، وبهـذه السياسة اصبح سيد سوس ، ولكـن حتى الان ليس سيد «فـاس» ، فهـو لـما يـزل فـزعـا في منتصف الطريـق الى فـاس حيث اعـداؤه في وضـع مماثل في القـوة ، كما يظن ، ويعتقـد ان معـركـة او اكثر قـريبـة الوقـوع بينهمـا . وايضا يقولـون ان مـولاي الشيخ قـد رجـع من اسبانيا ، وان بعضا القوات تنتظره هناك من العـرائش .

وفي المعمورة ، حيث بحـيرة القـرصان على الشاطيء المغربي ، قـد جاءت الى هنـاك بعض التقاريـر ، في وقت واحـد ، ولكنهـا متاخـرة ، تفيـد ان اثنين وعشرين بحارا قد اتوا ببضائعهـم ، التي يبيعونها باثمان معقولـة على حـين أن التجـار قـد فروا من بـين أيدهم فلم يقبلوا الا قليلا .

وبعد ما كان قد انتظر مدة طويلة لينال مقابلة الملك بمراكش ، فاننا نجده الان قد تمكن من مقابلـة مولاي زيدان ، فعالج معه بعض القضـايـا التجـاريـة

كما تداول معه فى بعض القضايا المتعلقة بالقرصنة . غير اننا لا ندرى ماذا كانت النتيجة من هذه المقابلة ، ولكن استنادا على ما ياتى ، ندرك ان ماجرى من وعود ادعيت فى هذه المقابلة لم يتحقق .

وهكذا رجع هرسون الى آسفى ، فى الثامن والعشرين من ابريل 1611 ، مصحوبا بسفير مغربى ، يحمل رسالة من زيدان الى جيمس الاول ، وبوكيل زيدان ، سمويل بلاش الى الاراضى الواطئة .

وهذه رسالة زيدان التى حملها السفير المغربى الى جمس ، كما يلى :

من عبد الله السلطان المظفر بالله الامام الناصر الفاطمى امير المومنين ابن الامام المنصور امير المومنين الامام المهدى ايده الله بالنصر العزيز، وحاطه بالصون الحريز . وأعلى فى فضاء العدل مناره . وخلد فى صفحات الدهر فخاره وأتاح فى ظل النصر والتمكين ظفره واقتداره . المقام الذى يدلى فى الفخامة بحجج لا يرد دليلها . ويستظهر فى العلو والظهور بأمور لا يحجد من أهل ملة المسيح ارتفاعها غبيها ولا نبيلها والمثابة التى لوساجلت فازت بخصل السباق ، وطنت حصاة صيتها فى الافاق وضاعف جلالها اعتزاؤها الى الملوك الاكابر ، وانابيب قناتها يعتضد بالاوايل منها والاواخر . مقام السلطان المرعى المقدار الشهير فى الاقطار . السلطان جيمس حفظ الله عليه حظوته ووجد بالنجدة اسرته . وأجرى آراءه على سداد المبادى والخواتم ، وانظاره معتمدة فى الصلاح على أوثق دعائم فانا كتبناه لتلكم المثابة والاسعاد والشكر لله خفاق الجناح واليمن يتجلى فى المنوات بجبين وضاح يباكر نادينا الامامى ويماسيه ويساعد المقترح من مقاصدنا ويواسيه منة لله سبحانه وليس والشكر لله بهذه الافاق سوى الاجماع على كلمتنا الشريفة والاصفاق وتواطو البواطن من عمارها والظواهر وعجم عود ما انطوت منهم عليه السراير واطراح الغير سدا بالعرا فصدق المثل كل الصيد فى جوف الفرا والذى اوجب اصدار هذا المدرج اليكم ان التجار الانجليزيين الذين ألمتم فى كتابكم الينا باغراضهم فاعلموا ان كانوا قد أدلوا لديكم بحجة انهم مسهم من جنابنا ظلم فمعاذا لله ان يكون بممالكنا على اتساع نطاقها ظلم او يتطرق اليها حيف ، نعم فاولائكم التجار لما حلوا من ثغورنا بثغر آسفى أمنه الله اخفوا جوهرا كان عندهم عن تعشير الامناء وارتكبوا فى فعلهم ذلك اصرا كبيرا والعادة ان من اخفى سلعته كذلك تكون لبيت المال لانه سارق وتعين ان جوهرهم هو لنا بما حكمته العوائد واطردت به القواعد والامر الاخر هو اننا امرنا

بالنداء على تجار الحربيين بان كل من حمل معه لبلاد النصارى الذهب العين فماله لبيت المال فوقع النداء بذلك وعلمه القريب والقصي وتادى للعارف والغبي واشتهر اشتهار النهار وعم القرى والامصار فركب هؤلاء التجار خطرا كبيرا واخذوا الذهب معهم فاطلع عليهم الامناء فتبينت جراتهم على الاوامر زيادة على السرقة فلما اخذ منهم ذلك طلبوا الشرع فاجيبوا من انصافنا الحقي اليه ، لان المعول في الاموال عليه فغلبهم الحق بالشرع ولم يجدوا مقالا ولا عن الاذعان انتقالا فثبت عليهم الحق فهذه تفاسير قضاياهم فان رجعتم علاءنا وكاتبتم مقامنا فيهم بعد ان تبينت عندكم هذه الحقيقة واتضحت لكم الطريقة فما هو اعظم من ذلك خطرا واجل في الاعين والاسماع قدرا لا ترد لكم فيه شفاعة ولا تبخس من آمالكم بضاعة فيكون الرد عليهم حينئذ من مالنا لا من مالهم ومراعاة لامالكم لا لامالهم فاغراضكم بهذا المقام مقبولة وعلى كاهل المراعاة والايثار محمولة . وبهذا اجزموا وعليه في مقترحاتكم عولوا واعزموا وفيما تتعرفونه اننا نحتاج لمن يفرغ الانفاط فنريد ان تبعثوا لنا من يحسن ذلك والله يحرس جنابكم ويعمر بالوفود أبوابكم وهذا موجبه اليكم والسلام وبه كتب في الثاني من المحرم فاتح عام عشرين والف سنة (17 مارس سنة 1611) .

وبينما كان المبعوثان في صحبة هرسون بانجلترا مقيمين معه الى سنة 1612،

واذا بالعلاقة تتوتر بين المغرب وانجلترا ، وذلك بما كان يحدث بين رجال البحر من الطرفين .

وحيث ان زيدان امتنع لاسباب ، ان يفي بما وعد به السفير ، مصغيا الى ماكان ينصح به امين ماله ابراهيم بن واش ، فان جيمس الاول ارسل سفيره هرسون مرة اخرى الى زيدان ، وكان ذلك 1613 ، ولكن لما علم انه مضاد بالنائب المذكور ، الذي كان في سلوكه مدفوعا بهذا الوكيل ، فانه التحق به في الاراضي الواطئة ، حيث كان بلاش متداولا مع الحكومة العامة بها . فكانت النتيجة ان هرسون بقي منتظرا في «هوج» سبعة او ثمانية اشهر ، ولم يبحر الا في اليوم الثامن عشر أبريل سنة 1614 ، فوصل مع رفيقه ، الى آسفي في شهر مايه .

وبمقتضى محادثة بلاش مع الحكومة العامة ، فقد اتى اسطول من الاراضي الواطئة ، بقيادة ايفرتسن ، وكما طلب زيدان ، من قبل ، الى

مصب نهر سبو ، ويبدوا ان القبطان كان على اتفاق مع السفير الانجليز ، ذلك ان هرسون من قبل ان تكون له مقابلة مع زيدان ، التحق بنفس المكان ، الذي يبعد عن آسفي بمايزيد على 300 كيلومتر . وكان هدف القبطان ان يجلي القرصان الاوربيين عن المعمورة ، وكان من اهمهم هؤلاء الانجليز ، الذين اتخذوا لهم وكرا هناك ، بدون اذن من الحكومة اما زيدان وقد ادرك تماما ، ان هذا المرفأ سيحتل بواسطة الاسبان ، الذين كانوا قد احتلوا العرائش فانه اراد ان يحتل هو هذا المكان ، ويحصنه بمساعدة الاراضي الواطئة ، ولكن اليهودى ، افهم الحكومة العامة ان سيده سيمكنهم من هذا المرفا وحيث انه كان هناك كثير من قرصان الانجليز ، كما قلنا ، فانه كان من الضرورى للقبطان ، ان يتداول فى شأنهم مع السفير الانجليزى وبذلك فانه استغل فرصة وجود هرسون بآسفي ، فاستجاب له هذا ، وتداول هو المسألة مع القبطان الانجليزى بالمعمورة ، مظهرا له ما تقتضيه الصداقة بين انجلترا والاراضي الواطئة . وبينما كان ايفرتسن مطمئنا على الجانب الانجليزى وينتظر اوامر زيدان باحتلال المعمورة ، اذا باسطول اسبانى مكون من مائة سفينة يحتل هذا المرفأ ، على مرأى منه ، وبدون اطلاق اية قذيفة ، وذلك بتاريخ 6 غشت 1614 .

وهكذا شاهد السفير الانجليزى ثانى غزو اسبانى للشواطئ المغربية، احتلال العرائش على قدمته الاولى ، والمهدية على قدمته الثانية .

كانت المعمورة ، او المهدية ، قد اهمل امرها وصارت فى قبضة القرصان ، الذين كان اغلبهم من الانجليز ، بل ان هؤلاء الانجليز كانوا اصحاب الشأن فيها ، وعليهم كان الاسبان يعلقون املهم فى احتلال هذا المرفا ، وهذه وثيقة كتبها احد ربابنة الانجليز ، الذين تسلطوا على المرفأ ، كان قد بعث بها الى جيمس بتاريخ 1618 ، يعتذر عن موقفه ، ويبرز عمله فى تلك القرصنة المجرمة، وهذا الشخص هو السير هنرى مينورينغ (153) Sir Henry Manwaring لقد كان بجماعته قد تمكن من المعمورة ، ومعه تحدث جون هارسون – كما يبدو – ليقنعه بضرورة التخلى عنها الى القائد الفلمنكى ، يقول ذلك الربان فى تلك المذكرة :

الى سلطانى الربانى ، الذى يمثل فى الارض ملك السماء ، الذى رحمته تسع جميع الاعمال .

اذن لي ، انا عبدك الصميم الذي يتوسل الى غفرانك ، وما زال حديث العهد باحسانك اليه وفضلك عليه ، وعفوك على تلك الحياة التي كانت حبيسة القانون ، انه يتضرع اليك ان تمنحه الثقة به ، فهو المومن المخلص المطيع ، الشكور من كل قلبه ، الى جلالتك المفضلة عنده ، والتي اتقرب اليها بقرباني مستغفرا من ذنوبي ، كدلالة واضحة على محبتي الصادقة القلبية ، التي اضمرها لجلالتك وهي تشملني برعايتها ، فانا بعيدا جدا عن تزكية اعمالي ، وتبرير اخطائي التي ارتكبتها ، لا استطيع اسنادها الى هؤلاء الذين هم اعدائي الحقيقيين ، والتي ربما كانت مسموحا بها لرجل آخر غيري ، فلهذا اشعر بدون قصد مني ، او بدون حظ ، اني منساق الى هذه الدعوى ، التي استظهر بها ، ولو لمجرد تدعيم تلك الاعمال التي استطعت ان اؤديها الى هذه الدولة والتجار من بلادنا .

لقد كان هناك 30 بحارا من القراصنة في المعمور ، حينما كنت بها ، اما انا فما سعيت ابدا في الذهاب اليها ، او الخروج منها ، بل ان قصدي لم يكن لازعاج من احد رعايا جلالتك ، ولهذا فاني قد سالمت سلا ، التي كانت قد استولت على سفن صغيرة ، وباعت في الخارج رجالها ، وقضيت على قطع ثلاثة كانت للاتراك القراصنة ، وكانت احداها تصعد في التيمز بمقدمها ، وحررت الاسرى والعبيد ، وانقذت بعض سفن الانجليز والبضائع التي كانت عليها من اولئك الاتراك ، وسلمتها الى ملاكها الحقيقيين ، كما خلصتهم من قرصان آخرين .

وعقدت الصلح مع تونس لرعايا جلالتك ، وفي نفس الوقت اشتريت كثيرا من اسرى الانجليز ، الذين كلفوني نحو 5.000 دوكة وعوقت القلمنك عن المغامرة بنيوفند لند Newfoundeland (154) وكانوا على وشك ما ينتهون الى احداث الدمار بغرب انجلترا . وهيأت الفرصة لجميع السفن الانجليزية التي كانت في الممالك المسيحية لان تصبح اقل فزعا من ذي قبل .

واخيرا فقد امتنعت من القيام باي عمل مضر بأي شخص من رعايا جلالتك ، الشيء الذي به كان يمكنني ان اغني نفسي باكثر من 100.000 لبرة ، كما كانت لي احسن السفن التي تتاجر في المضيق وفي شواطئ اسبانيا والمغرب وكانت ايضا اخرى عديدة قد حصلت في قبضتي ، كل هذه الاشياء كان تجار لندن قد صادقوا عليها بتوقيع يدهم ، ويمكنني ان اطلع جلالتك على ذلك حين السماح لي به ولكني خشيت بالاحرى ان اتسبب في ازعاج جلالتكم اكثر من اكون مستقبلا من لدنها .

هذه الحقائق ، ولو انها لا يمكن ان تكفر عن ذنبي ، الا انها مع ذلك يمكن ان تخفف من ذنوب رجل غيري ، ويمكن ان تسمى جريمة جميلة Pulchrum scelus ولكنها بالنسبة الى قليلة جدا ، بحيث ان قوانين المسيحية والطبيعة لا تمنعني وتحرمني واستطيع بسهولة ان احضر حولي الشهود، والمحلفين والقاضي والجلادين لنفسي .

ولكني واثق في جلالتك انها لن تبخس حقي ، بل ربما تجلني اكثر، حيث اني قد رفضت التحرر والعفو التبرعي . وكانت لي العروض للوظائف الحسنة ، من الملوك الاخرين ، مثل دوق مدينا Duke of Medina الذي بعث الى بذلك ، اذ انا سلمت المعمورة الى ملك اسبانيا ، فكنت بهذا ساحصل على اعظم مبلغ من المال لي ولرفقائي ، مع السماح لسفننا بالتمتع بكل حرية ولبضائعنا بتصديرها ، ووظيفة عظيمة اذ انا توليت قيادة.سفن الملك .

ودوق سفوي Duke of Savoye كذلك ارسل الى ببرائتي ، وكذلك دوق فلورنس Duke of Florence ارسل الى ببرائتي واذن لسفني ان تظل معي الى ان اريد المجئ ، وهذا الذي فعله كان باعظم رغبة منه . اما داى تونس فانه كان ياكل الخبز والملح ويحلف براسه وهو اعظم قسم لهم اذ انا مكثت عنده فانه سيقسم معي على السوية حكومته . ولم يستملني أبدا لأنقلب تركيا (يريد مسلما) واذن لي بان أتوجه ، حيثما يطيب لجلالتك ويكون فيه رضاك عني وعفوك شاملا لي .

هذا ما يتعلق باعترافي واني سأعمل اكثر منه كثيرا ، ومنذ ان اتيت الى داري ، سمعت ان كندي بورتوليكرو (155) Condy of Portolegro بعد ما كنت قد أبحرت بخمسة بحارين من قراصنة ملك اسبانيا كنا في قتال معهم طيلة يوم من منتصف الصيف الاخير (156) وكنت قد حصلت فقط على اثنين منهم لنفسي ، قد عرض انه اذا خرج احد منها بعلمي ، فانه سيحصل لي على العفو ويعطيني 20.000 دوكة في كل سنة لاتوجه كقائد لذلك الاسطول .

ومسيو منتي (157) Mounsire Mantei قد لقيني في المضيق بحمايتي من دوق جوى (158) Duke of Guyse

واعفي نفسي من الكلام ، وكيف يريدني السفير الاسباني (159) مبديا لاخي ان سيده راغب ، على ذلك الحين ، في خدمتي ، وقد بعثه بمصادقة على العفو عني ، وبهذا يمكن ان يظهر لجلالتك اني ما قمت بعمل ،

من شأنه أن يعاقب عليه جميع الملوك المسيحيين ولكني كنت دائما من رعاياك المطيعين مفضلا خدمة بلادي وطاعتي الخالصة لشخصك الملكي على جميع مآربي الخاصة .

والى بهذا الاعتبار ، لا اشك في كون جلالتك قد وصلتها عدة انباء سيئة حولي ، من دول اخرى كانت نفسها مرفوضة ، ابتغاء الوصول الى النيل مني في حضرة جلالتك ، وان تجعلني غير اهل لذلك الفضل . ولكني ، وكلي خضوع ، اتوسل الى جلالتك ، لتدرك اني اعتبر الحياة والكرامة توأمين لا يقبلان التفرقة في كل نفس أبية ، حريصة على الشرف والعظمة ، فلعل فضلك الرحيم قد ادرك مني ذلك ، حتى يجعل الاخرين بفضلك مقبلين علي . وبهذا فانهم اما ان يحيوا او يموتوا معا بأمر جلالتك . ومع ان أسبابي وانا اعترف ، لم تكن شريفة ، فاني مع هذه الحال التي كانت موصوفة بالشقاء ، مسرور من انه ما زال الطريق الذي اسلكه يوصلني الى خدمة جلالتك ، ان كانت الفرص قد اتيحت لي من لدنها .

فهذا التعبير الوجيز لبرهان وحجة دامغة ، وان كان في تناوله خشونة ، ومما لا يجمل بمضمونه ان يحلى بعين جلالتك ، واني من نفسي لا اجرؤ على ان اتقدم بادئي ذي بدء ، ولكن عند الامر من جلالتكم فساكون احد خدام الجلالة اللائقين بهذه الخدمة ، وانا طوع الارادة .

ربي نعمة جلالتك الحديث : هنري مينوربنغ

معلومات وتجارب حول القرصنة وبدايتها والى أين انتهت

الفصل 4

هؤلاء قراصنة الجزائر ، يعملون في اغلب الجهات التي يتوصل اليها من غير المضيق ، و اذا هم تربصوا لهم في المضيق ، فهم اما ان يتجهوا الى راس غاط Capp Gatt ورأس بول Cap Paul اوراس مرتين Cap Martine (160) .

ونادرا ما ينحدرون الى اكثر من هذا ، تجاه المنحدر الذاهب في المضيق وهم يحتفظون بالطرق التي تؤدي الى شواطىء المغرب ، ولكنهم يخرجون متجهين الى الشواطىء المسيحية .

ففي تطوان اول مدينة على جانب المدخل البرى يتزود القرصان بالماء العذب من الخليج المتدفق كما يتزودون من مخازن البارود الذى ياتى بمعظمه التجار الانجليز والالمان ويبيعون هناك بضائعهم التى تفرغ وتنقل سريعا بواسطة مراكب البلدة غير انه لا توجد هناك قيادة المراكب الا ان يسار على مقتضى توجيهاتهم ، وقد يسلكون الاراضي الوحلة وعلى المراكب ان تقلع اذا ما هبت الرياح الشرقية للابيض المتوسط واهل المدينة امناء منصفون

وفى اصيلا ، بين راس سبرط Capp Spratt (161) ، وفي العرائش ، على الشاطىء المغربى ، يمكن ان يبيعوا السلع كما يجدرون هناك الزاد الطرى .

وفى سلا ، ان كان هناك طقس جميل ، فانهم يمكنهم ان يقطعوا مسافة قبل المد ويكون لهم الزاد والماء ، ويبيعون السلع جيدا ، ولكن فى اعظم الاجزاء يكون البحر مرتفع الموج ولهذا فانهم يعسر عليهم ان يجدوا الماء عند المد .

وفى فضالة ، يمكنهم ان يبعوا السلع جيدا ، ويجدون هناك ذخائر من الازودة ، والشاطىء محصو جدا ، والارض لائقة بالسفن بحيث انها مغمورة بتسع اقدام ، ولكن ليس هناك ماء ، والى جانب ذلك ، فان هبت الريح على الشمال المغربى ، فان المسلك يكون خطرا جدا ، ومع هذا فانهم يستعملون هذا الشاطىء كثيرا .

وفى تفتانا (162) فان الرجل الضئيل يمكنه ان يركب قريبا من الشاطىء ويتزود بالماء جيدا .

وفى آسفى ، فان الانسان يمكنه ان يبيع السلع جيدا ، ويتزود بالماء البارد والمئونة والميرة ، ولكن المسلك صعب ان هبت الريح نحو الجنوب الشرقي ، وحينئذ فان عليهم ان يقلعوا ومع هذا فان البحر سيخطرهم باى طقس عاصف ، والى جانب ذلك فان الحصن لا يمكن ان يحميهم ، ولهذا السبب فانه نادرا ما يمكثون هناك طويلا وان كانوا يرسون هناك ، وقد تتاح للسفن هنا ان تاخذ السلع التى تباع فى الاسواق الانجليزية والالمانية والفرنسية .

وفي موكدور يبيعون السلع جيدا ويتزودون بالميرة الطرية، ولكن لا ماء هناك . وعلى الجزر ، في وقت من السنة ، يكون هناك اعظم وفرة من الصقور والحمام ، التي ياكلونها عادة ، ويستعمل هذا الشاطىء كثيرا .

وفى سنتاكروز ، يمكنهم ان يجدوا الماء ، والخشب ، والحصى ، والزاد الطرى ، ويبيعون سلعهم ، ويركبون بسلامة تحت حماية الحصن والمسك جيد جدا ايضا ، ولهذا فانهم يمكثون هنا طويلا ويستعملون هذا المرسى كثيرا .

وفى ماسة ، التى تبعد عن سنتا كروز بخمس غلوات ، فانهم يبيعون سلعتهم حسنا جدا ، ويتزودون بالميرة الطرية والماء البارد ، ولكنهم يركبون مسافة بعيدة ، والطريق خطير ، ولهذا فان عليهم ان يكونوا فى رفقة المغاربة لتنقلهم (163) والا فانهم لا يمكنهم ان يعملوا شيئا ، وهذا ابعد مرسى فى ناحية الجنوب الذى يستطيعون ان يستعملوه بالمغرب ، وما عدا هذا فانه نادرا جدا ما يذهبون الى وادى الذهب (164) حيث لا يحصلون على شىء هناك الا الماء الخ (165) .

لنعد الى جون هرسون ، فنراه على قدمته الثانية ، يتجه الى معسكر زيدان ، الذى كان مقاما قريبا من مراكش ، حيث وصله فى نونبر 1614 ، فرحب به زيدان اعظم ترحيب ، واشاد بملكه وجدد له الوعد باعادة المبلغ المالى ، وتحرير الاسرى الانجليز . ثم سلمه رسالة منه الى جيمس ، يعززها شارحا برسالة شفوية ، كانت تهدف الى مشروع تشترك فيه انجلترا والاراضى الواطئة وهو عبارة عن حملة مشتركة منهم ، توجه بجلاء ضد الاسبان (166) .

ولما عاد هرسون الى آسفى ، وكان على وشك الابحار ، وصلته رسالة اخرى من زيدان مؤرخة ب 14 يناير سنة 1615 كانت موجهة الى الحكومة العامة ، للاراضى الواطئة ، وكان يطلب فيها زيدان من هذه الحكومة ان توسط ملك فرنسا ، لويس الثالث عشر ، فى ان يعمل على تحرير مكتبته ، التى كان قد وسقها فى سفينة فرنسية ، يملكها رجل اسمه كستلان ، بتاريخ يتيه سنة 1612 ، فاستولى عليها الاسبان وهى فى طريقها (167) فان هذا الحادث كان من اعظم ما يشغل بال زيدان ، وبناء على طلبه ، فقد قامت الحكومات العامة بعدة اتصالات مع الملك الفرنسى فى هذا الشان ولكن لم تكن لها اية نتيجة .

والرسالة الثانية منهما ، سلمت الى السفير ، ليقوم بتسليمها بنفسه الى الملك الفرنسى ، يدا بيد ، ويعضد بذلك مسعى الاراضى الواطئة ، وذلك بوجوده شخصيا فى البلاط الفرنسى (168) .

وبناء على ذلك ، فان هرسون بمجرد ان وصل الى لندن ، وسلم رسالة زيدان الى جيمس ، توجه الى فرنسا مقدما نفسه كرسول الى لويس الثالث عشر ، الذى استقبله ، ووعده كما يبدو خيرا ، وذلك مما ذكره هرسون فى قدمته التالية الى المغرب (169) .

اما رسالة زيدان الى جمس فكانت كما ياتى :

صدر هذا المكتوب الامامى الكريم المظفرى الناصرى الزيدانى الحسنى الفاطمى الهاشمى السلطانى عن الامر العالى النبوى الشريف العلوى الذى دانت بطاعته الكريمة الممالك الاسلامية وانقادات لدعوته الشريفة سائر الاقطار المغربية وخضعت لاوامره جبابرة الملوك السودانية واقطارها القاصية والدانية الى السلطان الذى له بين سلاطين الملل النصرانية والامم المسيحية القدر الشامخ والملك الذى له فى وراثة ملك ابائه واسلافه القدم الراسخ والعز الباذخ السلطان يعقوب صاحب مملكة انكلطرة .

اما بعد حمد الله الذى جعل بين ملوك الارض وان اختلفت فى الاديان وصلة تعتبرها باعتبار احكام السياسة وقوانين الرياسة الملوك والامراء والاعيان وتوجب لها الحق فى كل ما يدور بينها من المخاطبة والمراسلة فى الامور التى لها البال والشان .

فكتابنا هذا اليكم والاحوال والحمد لله فى جميع ممالكنا الشريفة السلطانية الزيدانية وسائر اقطار بلادنا المغربية والسودانية على ما يسر والحمد لله من كمال الطاعة والتمهيد وقطع دابر كل جاحد وعنيد واجتماع كلمة المسلمين على السمع والطاعة لاوامرنا العلية المطاعة فى كل قطر من ممالكنا الشريفة قريب وبعيد له الحمد وله الشكر .

هذا وانه ورد على مقامنا خديمكم الاثير المرضى النبيل جون هرشون ومعه كتابكم الذى كنتم خاطبتم به مقامنا الكريم فى مدة الفتن الفارطة مع المخذول بمحل الذى أدار الله عليه سوء الدائرة وقطع والمنية له بسيوفنا الظافرة دابره فلم يقدر الله بوصول هذا الكتاب الا بعد ان اراح الله من تلك الفتن واطمان الحال بنافى دار ملكنا ولله الحمد وله الشكر على ما اسدى من جزيل المنن والافضال رعيا لما لجنابكم عندنا من جميل الاعتبار فى كل حال وقد اطلعنا من كتابكم الواصل على ماكان قد تحرك منكم حينئذ من شديد الامتعاض والتنفس الذى تشتد به من الملوك الغيرة والنعرة على بعضهم لبعض فى كل قطر وارض لا سيما من يكون معه مثلكم قديم

الصداقة والمحبة الموروثة من عهد الاسلاف فشكرنا لمكانكم المكين ذلك شكرا جميلا واعتبرناه لكم اعتبارا جميلا واستنتجنا منه على صدق ودكم والوفاء بعهدكم برهانا واضحا ودليلا.

وحضر بين يدنا خادمكم المذكور انجده الله فالقى الى مسامعنا الكريمة كلا ما تلقيناه منه وقرره في مجلسنا فوجد منا لتلك صاغية واودعه منا اذنا واعية وقد القينا اليه ما يبثه من الكلام لديكم وينهيه مشافهة اليكم والمراد ان تعطوا له منكم مجلسا وفسحة حتى يقرر عليكم ذلك مستوفى ويبثه عندكم مستصفى، ان شاء الله وبه كتب في تاريخ اواخر شوال عام ثلاثة وعشرين والف (24) نونبر سنة 1614

ونلاحظ انه في هذه الرسالة يشير الى ابي محلي، الذي كانت له مع زيدان معارك طاحنة، استطاع اثر بعضها ان يستولى على مراكش، ولكن زيدان استطاع في النهاية ان يتغلب عليه، بمساعدة يحيى ابن عبد الله في 30 نونبر سنة 1613. وقد كتب كثير من الانجليز حول ابي محلي، الذي ادعى انه الفاطمي او المهدي المنتظر (170) واهم ما كتب حوله في الانجليزية، رسالة ممضية R. S. بعث بها تاجر من المغرب الى شهم جنتلمان، ويظن ان هذا الجنتلمان هو هرسون نفسه، فانه يوصف بانه منذ قريب كان عاملا بهذه البلاد لصاحب الجلالة جيمس، وكان آن كتابتها بلندن، وذلك في 9 شتنبر سنة 1612 وقد طبعت بلندن لارذر جنسن سنة 1613، وفيها نرى الكاتب يذكر ابا محلي بعبارة (ملكنا) كما ذكر انه كانت له مقابلة معه، وهذه ترجمتها:

سيدي الفاضل

من كل دواعي القلب، اتوجه اليك بتمنياتي لك بالصحة الجيدة، وكل ما يرضى رغائب فؤادك، فيحققها الله لك، آمين،

منذ رسالتي الاخيرة اليك، فانه كان هنا اعظم ثورة على هذه الدولة، واحسب انك كنت على علم بذلك من قبل، حيث ان السيدن، والسيد ف. قد كانا هنا، فسمعا ورأيا ماجرى، أعني ماراج من الحديث في تلك المداولة، لاني موقن من انهما سيزورانك، ومع هذا فاني اتوقع على ازعاجك، لانهي اليك بعض التفاصيل كما يلي:

في اليوم العاشر من مايه، كانت المعركة بين مولاى زيدان وبين ملكنا الجديد مولاى احمد بن عبد الله تدور رحاها قريبا من مراكش، بين

جبال المدينة ، وكان كلا الجانبين قويا جدا ، وان كان في حكم الانسان ، ان مولاي زيدان كان اقوى فرسانا ومشاتا ، متوفرا على ثلاثة وثلاثين ومعه قليل من رجال السلام ، وكان قوته الرئيسية تتكون من عرب الصحراء المكان الذي يبعد عنا بمسيرة عشرين يوما ، وكان هؤلاء مسلحين بالرماح والمزاريق والحراب (173) وكثير من العرب أتوا اليه ، سالكين السبل التي سلكها ، بعضهم قد اضطره الى ذلك ، وبعضهم كان عن طواعية .

وفي يوم المعركة ، ابتدأ رجاله يشعرون بالهلع ، مدركين ان مولاي زيدان كان قويا جدا ، لكنه شجعهم ، قائلا ، وكانوا قد وجدوا ما قاله لهم قد جرى في الايام السالفة حسب ما قال ، وعلى هذا فانهم املوا ان يروا المثل : ان عليهم الا يخشوا مدافعه ، فان ثلاثة من المدافع ستنطلق مرة ولن تحدث ضررا ، والباقي سيحرق ولكنها لا تلقي قنبرة ، وانه سيكون المتقدم ، والمواجه للمدافع ، وحينما وجدوا كلامه حقيقة ، فانهم حسب اوامره استعدوا للانقضاض على عدوه .

حينئذ وقد تمكن من اقناع رجاله بهذه النبوءة ، بعث عينا ليطلع على المكان الذي يمكث فيه مولاي زيدان ، فأتى بحقيقة ذلك ، مع جميع قواته ، وانه واقع في خطر ، من امر مولاي زيدان ، الذي أمر باطلاق النار ، ومعه المسلمون والمسيحيون الذين يحسنون استخدام مدافعه ، وهكذا كانت ثلاثة من المدافع تلقي قنابرها ، ولا تحدث اي ضرر ، ولكن القنابر كان لها صوت مدو في الاذان وارتفاع شاهق ، والباقي من المدافع اتقدت فيها النار واحرق البارود ولم تلق اية قذيفة وبقيت هكذا ، حينئذ اتى قريبا جدا منهم فالقى اصحاب البنادق الذين كانوا امامهم ، عليهم اربعة الاف عيار ناري ، ولكن لم يصب احد من رجاله .

وعلى ذلك هجموا عليهم ، فجد اصحاب زيدان في الفرار ، وتعقبهم هؤلاء وقتلوا مولاي عبد الله بن احمد (الزبدى) والقائد محمد ابن زبير (حاكم سنتاكروث) وكثيرا من القواد الاخرين (174) مع عدد يتراوح بين اربعة وخمسة آلاف رجل ، فمكن رجاله من مراكش ومكث هو في الميدان ، فلم يدخل مراكش ، ولا قصد اليها الى ان كان قد بدد شمل عدوه واقر الأمن في بلده ، حينئذ فر مولاي زيدان وانحدر ناجيا الى آسفي مع حاكمه عبد القادر (بن يزة) وعبد الصدوق (دبيرة) واليهودي ابن واش (ابراهيم) وأشخاص آخرين ، كان الى جانبهم أمة ونساؤه ومتاعه.

وهنا كان يقدر انه يستجمع قوته مرة اخرى ، ويجدد المعركة ، ولكن ذلك كان عبثا ، فقد تجمهر العرب واتوا اليه ، وتسلموا بعض المال والملابس والثياب القطنية منه ، ثم كانوا يخونونه .

وكان معه بعض أبناء أخيه مولاى الشيخ ، قصد استعطافه على أخيه واصلاح ما بينهما ، اذ كان الشيخ أرسل اليه أبناءه وكتب اليه في لطف عظيم ، فكان الصلح بينهما كما احسب ، ثم انه بقى هنا مدة طويلة بقدر ما استطاع ، لان مولاى ابا محلى تعقبه ، بحيث انه اضطر الى تاجير سفينة من سفن مرسيلية كانت راسية بالميناء مع سفير فرنسى (175) كان قد اتى اليه فى بعض المهام من فرنسا ، وأخرى فلمنكية عبر البحار فحملت ذخائره ومتاعه وبعض نسائه واطفاله وبعض قواده وخدمه ،وابن واش واتباعه واتجهت الى سنتاكروز ، وهناك رست فى السوس ، ومن هناك اتجهت الى تارودنت ، اما القوات التى كانت فى منواله فاتنا لانعرفها هنا على وجه التاكيد .

وبعد بضعة ايام من ارتحاله ، اتى ملكنا الى هذه الجهات ، على مسيرة نصف يوم من آسفى ، فاتى اليه جميع العرب وعرضوا انفسهم عليه ، فاستقبلهم بكل عطف ، وعفا عما كان قد جرى منهم ، لانه قال انه اتى لاقرار الامن ، وانه مرسل من الله ، لينقذهم من الحكم الفاسد الذى يجريه اولاد مولاى احمد الشريف ، وليقيم شعائر دين النبى ، الذى كان قد هتك ، وليقاتل النصارى ، ويخلص تلك الجهات من قبضة المملكة النصرانية التى عليها ملك اسبانيا ، فينقذ منه مثل غرناطة والاندلس وغيرها ، قائلا لرجاله ، انهم سيشاهدون اعظم حدث مدهش سيقع ، مما يجعلهم يؤمنون بانه مرسل من الله ، ووعدهم باسبانيا وايطاليا وفرنسا ، وانهم سيقرون الامن فى هذه البلاد ، وهناك لا محالة ان جسراسيبدو على فم المضيق ، ذلك الجسر الذى كان فى العهود السالفة (كما يذكر فى كتبهم وغرق فى البحر ، وسيبدو فى ايامه هذه لا بد ، فيعبر عليه المسلمون (62) ويستولون على هذه البلاد ، وسيملك اربعين سنة ، ثم ينزل المسيح ، الذى يدعونه سيدنا عيسى ، وسيسلمهم جميعا ، لانه سيحكم العالم بالتاكيد ، ثم يفنى الجميع وينتهى العالم ، ولكنهم بالنسبة الى انكلترا والاراضى الواطئة وجهات اخرى لا سبيل لهم عليهم ، بل انهم ستكون لهم مودة معنا ، ويرغبون فى ان تكون لهم معنا علاقة التجارة والمواصلة فى جو من المحبة والصداقة ، وستكون معجزته ورسالته واصلة الى اقطار العالم .

لقد كنت في محلته اول الامر ، طيلة اربعة ايام (176) فتحدثت معه ، وشاهدت سيرته ، فوجدته كثير التواضع واللطف ، مع كلام طيب جدا ، يتأسف للمتاعب التي يتحملها المسيحيون بسبب الحكم الجائر من سلفه او المغتصبين للسلطة ، كما يعتبرهم ، وهو رجل في نحو الست والثلاثين من العمر (177) مهذب جدا ، سهل السجية ، على راسه كور عمامة من (البفتة) الملونة ، يرتدي قميصا هولنديا وحائكا من نسيج شعر المعز والحرير المقصب (178) وعلى جنبه سيف صقيل ، معلق بحمالة بسيطة ، رجل على عقل عظيم وثقافة واسعة ، لا شبيه له بينهم ، وحسن في علم الهيئة، محنك جدا ، وقد انضم اليه القائد عزوز ، الذي سمعت عنه انه كان المستشار الرئيسي في البلاد ، والشيخ زنبي (179) والشيخ كلاوي واخرون كثيرون من الصلحاء ورؤساء القوم ، وعلى اتيانه تزوج ارملة مولاي ابي فارس ، ولهذا فان كثيرا من العشائر العربية القاطنة الخيام ضد مولاي زيدان وتصرفاته ، ويتوقع اقصى مصيبة ستحل به ، الى ان يضمحل هو وسلالته .

وفي تملكه لمراكش اقام حاكمه بها ليتمتع كل شخص بالامن (180) ، وهو رجل نزيه جدا في عدالته ، ولهذا فان مراكش متمتعة بالامن والهدوء ، وقد امر بين العرب باداء الضريبة (181) على القمح والافراس والمراشي والعين (من ذهب وفضة) قائلا لهم ، انه قد اتى لاقرار الامن بينهم ، لا لينهب متاعهم ولا ليضيع حقه ، ولن يعطيهم المرتبات ، بل يجبرهم على ان يؤدوا له الخدمة ، كلما كان يطلب حاجة ، فان لم يذعنوا الى تلك الشروط ، فان سيفه سيجبرهم على ذلك ، انه قد اتى اليهم كضيف ، كان مدعوا منهم الى الضيافة ، ولن يمكنهم من استغلال فضلهم (182) وبمثل هذا الكلام تحققت المعجزة ونفذت السياسة ، فجعلهم جميعا خاشعين ، حينئذ وضعهم جميعا في الهدوء ، وكان بعضهم عدوا انفسهم ، من الاعاظم في العهود السالفة ، فاتوا ليسمعوا ويروا ، فاظهروا الطاعة ولم يقولوا شيئا ، واخرون تقلبو مع الزمان ، وحصلوا على اعظم الوظائف واعترفوا له بالولاء ، متبرئين من سيدهم القديم ، وماذا تاتي به الاحداث ؟ لا ادري ، لاننا قد علمنا وقرانا ان قلوب الملوك في يدي الله ، يقلبها ، كما يحول انهر المياه ، حيث يشاء (183) .

ولكن لما كان في محلته ، يرى احوالها ، ونتائج اخلاصه وسياسته ، ممزوجة بمظهر من الرحمة ونوع من الحكم الصالح فاني اخشى ان ذلك

سينتهي كما في اساطير ايسوب Aesop (184) حينما اراد الضفادع لهم ملكا ، فرمى حجر في الماء ، فجعلهم تلاطم الماء لاول الامر يخافونه ، ولكن مكثوا على مكثه حتى صاروا اليفين معه ، فاصبحوا يتشمسون عليه ، ثم اصبحوا كارهين لـه ، فكان لهم اللقلاق (185) ، ولكن لما كان حتى الآن مرغوبا فيه فانهم يتمتعون حيث الامـن والعـدل مكفـولان .

فان استمر على هـذا ، فانه على وشك ان ينفجر بالفتن واراقة الدمـاء ، لان الناس هنا قـد شرعوا يتمردون ، والشبانات عائلـة مولاي زيـدان ، قـد اتـوا الى الجبال قـريبا من مـراكش ، ففاوضوا بعضا مـن هـؤلاء البـربـر (كما نسميهم) ليتخذوا معهـم ، ومولاى محمد بولاسد (186) فقام هؤلاء بالنهب على ابـواب مراكش ، حيث ان هذا الملك ارسل قواته لطردهم، ولكنهم وجدوهم اقـويـاء جـدا ، بحيث انهم لـم يجرؤوا على التحـرش بهم ، فـاضطر الى تـرحيل (187) محلتـه ، منذ خمسة عشر يومـا ، وذهب في اتجـاه الجبـال ، وهو الان قريب من فـروكـة (188) . وماذا قد حصل منذ ذلك ؟ لا ندري ، غير اننـا نتوقـع في كـل ساعـة ان نسمـع بعض الانبـاء الحسنة ، بانـه قـد تغلب ، ولكـن هنا مخـاوف عظيمـة ، حيث ان كثيرا من رجـاله قـد انفضوا عنـه ، وفـر اولئك العـرب الذيـن كان قـد اتى بهم من تلك الجهات فارتدوا اليهـا ، فان فقـد الاخـرين الذيـن كانوا اصدقـاء لمولاى زيدان فـان هـذا متوقـع ايضا .

ولكـن ابتداء نهـوض هـذا الملك وتصرفـه في منتهى الغـرابـة ، فهـو اعظـم ولي وفقيه شرعي ، كـان مقصودا مـن كثير من اعيان البلد ورؤسائهـا ملتمسـين بركتـه وفضله وحسب اعتقادهـم الخـرافي ، فـانـه وجـد في بعض الكتب القـديمـة مكتوبا لـه بنوع من النبوة وان رجـلا من ذلك المكان الذي يدعى ماسة ، حيث هو ينتمي ، واسمه مولاى محمد بن عبـد الله ، قـد ارسل اليهـم في هـذا الوقت ، لاقـرار الامـن في البلاد ، وينشر شريعتهم ، ويطرد سلالة مولاى زيدان واسم الشرفـاء ، فيحكـم اربعين سنة الى ان ياتي المسيح فيمتلك العالم ، فابتداء امـره لابـد ان يكـون ، وان يستهـل بطبـل سيجده في تلك الزاوية بسجلماسة ، وحينئذ سيجمع حوله الناس ليبايعـوه ملكـا ، وكيفية سلوكـه ومـاذا تكون المعارك التي سيخوضها ، وماذا وجـد مكتوبـا ، جميـع ذلك على اطـلاع بـه الطلبة (189) والمثقفون كما هو موجود في كتبهم ، وفي اول امـره كان مـع قواتـه في خيمة واحدة ومطبـخ ، ثـم لجـأ اليه شراقـة جماعة مقدسة في شريعتهم ، ولكـن بالعكس في سلوكهـم

متوحشون جـدا ، وهؤلاء اتوا اليـه بدون رواتب تؤدى لهـم ، وكانـوا فى عـددهـم 150 او 200 رجـل علـى الاكثـر ، فهـزم بهـم الحـاج المـبر (190) وعسكـره ، التابعـين لمـولاى زيـدان ، وكـانوا 5000 مـن الاشداء ، حينئـذ اتى اليـه آخـرون من شراقـة فى عـدد 5000 ، فهـزم بهـم وبقوم آخـريـن انضمـوا اليه فى طريقـه ، مولاى زيـدان وجيوشه ثلاث مـرات قبل المعركة.

حينئذ اتى الى بعض الامـاكن الحصينـة فى الجبـال ، مما لم تذعن ابـدا الى مولاى زيدان ولا الى ابيـه ، فقاومه هـؤلاء ولكنه تغلب عليهم ، وجعلهـم يـؤدون اليه ما يامرهـم بـه ، ويخدمونه ، ثـم اضطر رؤسـاء الشيـوخ فى البـلاد ان ياتـوا اليه مذعنـين وبعد هـذا ذهب الى مـراكش زاحفا ، وفى طريقه كان سيعبر نهـرا ، وفى يوم قبل ذلك ، وعظ رجـالـه فى عبـور ذلك النهـر ، يغترف احـد منهـم مـاء من ذلك النهـر ، فانـه يموت ان فعل ذلك ، وبعـد ما اتـوا الى النهـر فى تعب وحـر شديـد لـم يتذكـر كثير منهـم ذلك او لـم يرعـوا كلامـه ، فـاغترفوا المـاء بايديهـم وشربـوا ، فماتوا على اثـر ذلك ، وفـر الباقى جميعهم ، واعتصموا به وتمكـن منهم الخوف من ان يخالفوا امـره ، والاعتقاد انه كـان اكثر من كونـه رجلا ، لانهـم قالوا انه فاطميهـم المنتظر (191) .

وفى اليوم التالى فى قدومـه لمراكش ، توجـه اليه عـدة مـن الصلحـاء والشيوخ متجمهرين ، راغبين فى زيـارته ، حتى يروا ما هو عليه ، ويختبـروا ما اذا كـان قـد حدث أحقـا ما سمعـوه عنه ام لا ، وعلى هـذا فانهـم اتوا اليه وبعـد السلام ، قال لهـم انهـم قد جـاؤا للاختبار ويروا ما هى الاخبار ومـا هى الغـرائب التى فعلها ، ثـم هم بالانصراف ، والان حيث كانوا من اولئك الذيـن لهم خطرهـم وطلبة ، فانـه اراد ان يقنعهم ، حتى يقنعوا هم الاخرين فعـين لهـم وقتا آخـر للعودة اليه ، وان يحضروا بعض الكتب التى عينها لهم ولمـا فعلوا طلب منهـم ان يعودوا الى نفس المكـان ثـم يقـرؤا مـا عسى ان يجدوه مكتوبـا عنه ، ففعلوا ذلك ، فادركـوا كلا من اسمه وابتداء امـره والمهمة التى كـان عليه ان يتولاهـا ، ومـع كل ذلك وجدوا سبع عـلامـات خاصـة كان عليـه ان تكـون فى جسده ، وهى زائدة جلديـة فوق عينه اليمنى ، وسن سـوداء من ثناياه وعذق شعـرى نابت بـين كتفيـه ، وعـلامـة خـاتـم على راحـة يده اليمنى ، وعـلامـة مهماز خـارج فخـذه الايمن ولا اتذكـر الباقى، ولكنه اظهـر لهم هـذه العلامات والباقى منها ، فلما رأوا ذلك عظموه وبجلـوه وبايعوه على السمع والطـاعـة وان يحيو ويموتوا معه او فى سبيله .

حينئذ اتى الى مكان يسمى تدسي (192) وهو حصين جدا بالجبال ، حيث كان قد تجمع كثير من الناس على حربه ، فشرع بعض من رجاله يرتجف ويرتعد خوفا ، فاعلمهم الا خوف عليهم ، وعلى هذا فانهم قبل الصبح سيروا انه كان هناك معه اكثر مما هم ضده ، وفي تلك الليلة امر بتحرك المحلة والزحف نحو ذلك المكان من تدسي ، ففعلوا ذلك ، واستمروا كل الليل ، وفي اعتقاد جميع رجاله ، ان محلة اعظم من محلتهم كانت تمشي معهم ، تتقدمهم ، ذاهبة الى المكان تدسي ، فاختفت وفي هذا المشهد كان اعدؤهم يفرون منهزمين ، تاركين المكان وامتعتهم ، وغنائمهم وعلى ذلك اتوا هناك ، فغنموا الجميع بدون قتال ، هذا ما يحكيه ويقرره مواطننا .M.W مع حكايات اخرى مقسما يمينا مغلظة انه شاهدها

وفي اتيانه الى هذا المكان ، كنت مع آخرين ذاهبين اليه للترحيب به (193) فاكرمنا جد الاكرام ، وقال لنا انه سيظهر للانجليز ما يستطيع من فضل ، وأنه اذن لهم بالاتجار الحر ، راغبا منا ان ندرك انه مرسل من الله بتعيينه لتخليص الناس من الاضطهاد والضيق ، سواء منهم المسلمون (62) والاجانب المسيحيون وجميع الاجناس ، وما قد رايناه وسمعناه لنخبر به فاننا سنرى مع ذلك اكثر من هذه الحوادث الغريبة سيقع اكثر مما قد جرى ، وكان قصده ، ونحن مجتمعون ، هو فتح اسبانيا وفرنسا وايطاليا ، الفكرة التي يمتلك بها المسلمين المغفلين السذج ،

والان وانا المضجر باقلاقك بهذه الانباء كما سمح بها الوقت (وليس كلها بل جزء منها ما زال في ذاكرتي) فاني اتوسل اليك ان تاخذه الى حيز حسن ، تاركا الى عقلك الحصيف انتقاده ، اما من ناحيتي فاني مقتنع من انهم قد اضلهم الشيطان باعمال السحر والشعوذة ، وقد اذن الله فيهم ، بان يضلوا اكثر ويزدادوا عماية ، فالله يحفظنا نحن المسيحيين ويخلصنا منهم ، وينفحنا بالمعرفة الحق والعمل الصالح ، من كلمته المقدسة التي بشر بها في بلاد النصارى ، التي نحبها منا ، ويمتعنا بمائدته المقدسة ويرشدنا الى صالح العمل لختم ايماننا بعقيدة المسيح الكليم ، آمين الخ . ر. س. .R. S

لنعد الى هرسون فنجده في ينيه من سنة 1615 يعود الى مراكش ، ولكنه حينما وصل الى آسفي ، علم ان زيدان كان قد انسحب اليها ، فارا من وجه يحيى المتقدم الذكر ، والذي كان قد ثار عليه ، لما لم يعينه ، مقابل انجاده ومساعدته السالفة ، مستشاره الخاص ، فسر زيدان بمقدمه ، وكان في حالة سيئة مؤلمة ، واستقبل السفير الذي كان يحمل معه رسالة

من ملك انجلترا ، واخرى من ملك فرنسا ، وثالثة من حكام الاراضي الواطئة ، فاشاع مولاى زيدان ان سلطات هذه الاقطار قد قدمت اليه مساعدات حربية (194) وبذلك نفهم انه الى جانب مسالة المكتبة ، كان هناك موضوع آخر هو طلب المساعدة من حكومات الاراضى الواطئة ، كما ادعى زيدان على الاقل .

ومهما يكن ، فان زيدان رحب بالسفير جون هرسون وتداول معه موضوع السفارة ، ولكن الوضع سرعان ما تغير ، حيث ان المرابط طارد زيدان فأزاحه عن هذا المعسكر ، واجلاه عنه ، وكان مقاما على بعض الجبال . فبقى هرسون في آسفى ، فى انتظار مقابلة اخرى من زيدان او امره في الابحار عن آسفى (195) فعاد الى انجلترا ، بدون ان يحصل على طائل . وفى هذه المرة شاهد الصدمة الثالثة التى صدمت بها الدولة عند قدمته الثالثة هذه ، فكانه كان على موعد مع هذه الاحداث المؤلمة .

وفى السنة التالية ارسله جيمس الى زيدان مرة اخرى ، فلما وصل الى آسفى كتب رسالة الى زيدان ، وانتظر طويلا رده فلم يتلق منه شيئا ، فادرك انه لا فائدة من نزوله الى البر ، ومكث على قرب منه ، مستعملا السفن الانجليزية ، ومنتظرا ما تاتى به الاحداث ، وهذه هى المرة الرابعة التى اتى فيها الى المغرب ، فكان زيدان فيها يصير من سىء الى اسوء ، وانقطعت العلاقة بين جمس منذ هذه السنة .

وهكذا ظل بسفنه متنقلا من شاطىء الى آخر الى ان كانت سنة 1618 فاتجه الى تطوان (196) كما نشرنا فيما قبل بعدة سنوات ، وفيها اتصل باحمد النقسيس ، الذى كان تابعا لملك فاس ، عبد الله بن الشيخ ، وبذلك يكون هرسون قد تحول الى ملك آخر ، كما حصل من قبل (197) غير أنه لم يكن هناك موضوع للمداولة معه ، ثم عاد الى لندن ، حاملا معه رسالة من المقدم الى الملك المغربى ، ولكنه فى غيبته ، حدثت مشكلة ، ذلك ان بحارة انجليز استولوا على سفن لاولاد المقدم ، باعوها باسبانيا كما باعوا بعض رجالها ، فانتقم منهم بان استولى على أخرى فى طريقها الى تطوان ، وعليها بعض البحارين من الانجليز ، فحاول ، هرسون ان يجد لذلك حلا مرضيا ، ومن ثم استحكمت العلاقات الانجليزية مع هذه العائلة ، وراجت فى ذلك رسائل تجد النقسيس قد بعث باحداها الى سفير انجلترا باسبانيا Walter Aston فى الموضوع المتقدم وذلك فى حضور جون دوبا John Duppa .

كان جون دوبا قد وصل الى تطوان ، مكلفا من قبل الامير البحري ، روبرت منسل ، لمعالجة مبادلة الاسرى الاندلسيين الذين وقعوا في ايدي بحارة من الانجليز ، وهم في عرض البحر ، ومن قبل ، كان التفاوض قد اجرى بواسطة سير روبرت المذكور ، الذي كان قد اتى الى تطوان بقسم من اسطوله ، وقدم الى مقدم تطوان طلبا حول موضوع القبطان جورج فريزويل ، الذي كان في الاسرى فاجاب المقدم بأن الأسر وقع على القبطان ، مقابل ما حدث لسفينة يملكها أبناؤه ، وفيما يتعلق بتبادل الاسرى الاندلسيين ، الذين كانوا عند روبرت في سفينته ، مقابل الاسرى الانجليز ، فان المقدم قد اقام حجة لم تقبل منه ، ففصل الادميرال من القنت حيث باع 21 من اسراه ، ثم توجه الى انجلترا ، تاركا اخرين بقادس ، في عهد جون طوبا ، بينما فدى المقدم بعضا من هؤلاء ، بثمانية من اسرى الانجليز عارضا ان هؤلاء يقع بهم تبادل ستة عشر من الاندلسيين ، الذين تركوا في قادس ، ويطلب ان يتم الاجراء في هذا بمدينة سبتة ، وفي الوقت نفسه وضع مشروعا للتعامل كما ياتي :

1 – ان بيع وشراء الرعايا الانجليز يمنعان بتاتا بتطوان

2 – وهؤلاء الذين ياتون حاملين الجواز بذلك ، يمكنهم ان يتاجروا بحرية

3 – ان حمولة كل سفينة عطبت تؤول الى السلطان ، ولكن النوتية يحررون

4 – ان السلع التي تشحن الى تطوان ، يمكن ان تباع هناك ويؤدى عنها العشر

5 – كل السفن الانجليزية التي تاتي الى تطوان ، يمكنها ان تتزود بالماء والطعام منها .

واخيرا طلب المقدم من سفير انجلترا باسبانيا ، ووتر استون ، ان ياذن لجون دوبا في عقد هذا الاتفاق ، الذي يكون احسن وسيلة تتقوى بها العلاقة الودية بين الشعبين وحرر في تطوان 21 دجنبر سنة 1621 .

لنقف عند هذا الحد من التاريخ السياسي ، ولنختم هذه الوثائق المعاصرة لذلك العهد ، بترجمة اهم واغرب وثيقة ، وهي عبارة عن مذكرة كتبها انجليزي معاصر كذلك ، يدعى وليم لنكو (198) وتتصل بوصف البلاد والحالة الاجتماعية والعمرانية التي كانت عليها بعض جهات من المغرب ، على ذلك الحين كما ادعى الكاتب وقد كتبت هذه المذكرة ما بين سنة 1615 وبين سنة 1616 ، يقول صاحبها :

والان كان من حظى هنا بعد 12 يوما من نزولي بالجزائر ان أتقابل مع الجوهري الفرنسي موسيو شاتيلة المولود في Aire du Provance والذي كان يقصد الى زيارة فاس فالتحق برفقتي التي كانت مع تجار شهيرين بالجزائر وذهبنا من هناك ثلاثين مسافرا واثنين من الانكشارية وترجمان ..

واوغلنا في الطريق وكان بعضنا يمتطي البغال وبعضنا يمشي على رجليه كما كان بعض الحمير تحمل امتعتنا ، وما كان لنا من زاد . فتركنا المدينتين البحريتين «سلا» و «تطوان» جانبا وتوجهنا داخل البربر فسرنا ثلاثة ايام في ارض ذات فاكهة كثيرة آهلة بسكانها .

والمغاربة من السكان كانوا يبدون رهيبين في ملامحهم الابية (109) ، ومع هذا فاننا ذهبنا في هدوء وحرية من اداء الاتاوة ، حيث انه لم يكن هناك شيء منهم مما اعتيد فرضه على الفرنسيين ، كما يفعل الاتراك والمسلمون (62) في آسيا . بل انهم لم يعرفوا حتى من نحن ، وقد كنا مرتدين في رفقة على نمطهم ماعدا تلك الخلقة التي اقامت ارتسامات على وجهي ، اجمل مما لهم ، وكنت غالبا ما اتمنى ان اكون اسمر وان تكون تقاطعي كتقاطيعهم البشيعة ، وفي هذا الارتحال المزيج بالالم والحبور ، كنا نجد في كل مكان الخمور المركزة ، والخبز الفاخر الوفير ، والدجاج العظيم وكان مربى يدرج على الارض الى كثير من التين ، والفواكه الاخرى ، والزيتون والزيت اللذيذ الطعم . نعم كان هذا في قرى عديدة لا تحصى ، وهي ذات الدور التي كانت منيعة مبنية بالاجر ومرصوفة سطوحها ، كما هي في آسيا وفي جميع افريقية وفي اليوم الرابع اجتزنا السهول ، واقتحمنا التلال الجبلية ، ومع هذا ففيها توجد المرعى ، كما كنت اشاهد فيها سحبا من الخيام ، والحقول التي كانت عامرة باهل البحار ، الذين كانوا يهرعون اليها من سواحل البحار طلبا للهواء الطلق المنعش .

وعلى هذه التلال المبهجة الظليلة ، شاهدت الحقول المكسوة بقطعان الغنم والمعز ، وكانت تلك في منتهى الضخامة ، لها أردافها وأوراكها العريضة السميكة الذيول التي كانت مدلاة على الارض ، ولما بيع بعض منها ووزن كان وزنه بين 16 و 18 وعشرين رطلا ، واكثر . وهنا بين الجبال ، كانت جماعتنا ، على خبرة جيدة بالبلاد ومعرفة بها ، فاتخذوا احسن مسالك للطريق .

وفي اليوم السابع ، صباحا كنا قد وصلنا الى مدينة فاس المدينة العظيمة حيث اقتادنا أنا ورفيقي الفرنسي بعض رفقائنا الى حانة عظيمة

مغربيـة او خمارة ، وهناك استقبلنا ، وكنا نعامـل بمنتهى اللطف والاحتـرام مما لـم اره في اي بلد من بـلاد الاتـراك التي كنا قـد غـادرناها قـريبا ، ولا في امبراطـوريـة مراكش المغـرب .

ومدينة فاس هـذه ، تقـع على رابتين تواجهـان سفحـا ينحـدر اليه من جهتين ، كما هي غـرناطة في اندلسية باسبانيا ، ويشق هـذا السفح الوادي الفاصل بينهما ، حيث يجري نهـر ام الربيع (200) الجـاري نحو الجنوب ، واقعـا في الوسط من المكـان الرئيسي ، وهو القسـم الاعظـم والأكبر عمـارة بالناس ، من تلك المدينـة . اما موقع المدينة فـانـه يـوجـد تمـامـا تحت مـدار السرطـان .

وفـوق ذلك النهـر ، وفي هـذا القـرار ، هناك سبعة وستون جسرا كلها مبنيـة بالحجـارة والخشب ، وكـل واحـد منها يفضي الى شارع نافـذ مـن كـلا الطرفـين ، قد تصل مساحته الى ميلـين طولا ، ونصف ميل عـرضـا . ويوجـد الى جانب ذلك خمسة من الاسواق او اكثر ، وهي اماكـن فسيحة ، وعظيمـة ، وبها المساجد ، والمدارس والمشافي ، ومئات من الخانـات الفخمـة ، التي يمكن ان تاوي قافلـة ملوكية ، واغلب هـذه المباني يحتوي على ثـلاثـة واربعـة من الغـرف العاليـة العظيمـة ، المزينة بالنوافذ الواسعة المفتـوحـة والأروقة الطـويلـة ، وبهـا ابهـاء فسيحـة ، وبنايـات اخـرى مسطحـة ، وارصفـة رحبيـة .

والشوارع مسقفة تتخللها مصانـع بسيطـة لها مناور واسعـة على جوانب سطـوحهـا ، وهي في كل مكـان من المدينة ، وفيهـا الدكاكين الواطئة او الحجـر التي توجد بها تجـارة لا نهاية لها وفيها بضائع معروضة للبيـع مـن جميع الأصنـاف .

والناس من كلا الجنسين يرتدون ملابس طويلة، ويلبس النساء خلاخل (201) مـع احذيـة حمـراء او صفـراء ، منتعلين الحديـد في الكعوب ، وعلى مقـدم الحذاء قـرن ابيض ، وهـم يرتدون على اكتافهم اردية طـويلة مـن الكتـان الخالص او المزدوج ، كما يرتدون معاطف حريرية ، من مختلف الالوان ، وسلوك العـامـة دنيء جـدا نحـو الاجانب اكثر مما هو في القسطنطينيـة ، او اي مكـان آخـر في المملكـة التركيـة ، والنساء هنا يسرن في الشوارع مـن غير حجـاب ، لابسات على رؤوسهن غطاءات عـريضة دائـرة ، مصنوعـة مـن القش، او قصب رقيق ليقين وجوههن لفح الشمس ، وهن شبقـات لعينـات ،

مستعدات في كل حين لارضاء شهوة الرجال المترفين ، فلسن خفرات تماما كالنساء التركيات ، ويذهبن حيث يردون .

وهناك نحو اثني عشر الفا من بيوت الدعارة ، مسموحا بها في هذه المدينة ، ومعدة بزوانيها المهندمات باتقان ، واسبوعيا يكشف عنهن الاطباء . (202) ولكن الاشنع من الجميع ما يكون ايام الصيف فانهم على نمط مكشوف يرخصون لثلاثة آلاف طفل من اطفالهم باللواط ، نعم فقد رايت بعيني ، في كل مكان مطروق جدا بالسوق ، ان القوم يلوطون بهذه الجيف القذرة ، وبدون حياء من الناس او عقاب من الدولة يذهبون بحرية لذلك .

وهناك عدة محاكم للسماع (ولو انه لا احد يستنكر هذه البهيمية) يجلس بها القضاة وحكام الاقاليم ، وذلك مرتين في كل اسبوع ، فتسمع فيها كل الخصومات والشكاوى ، ورئيسهم الشريف او النقيب ، يرسل اليهم من مراكش ، ويعاد الى هناك مرة على راس كل ثلاثة اعوام .

والرابيتان تقعان على كلا الجانبين للمدينة المخططة بينهما ، شرقا وغربا . وهذه المدينة مليئة بالشوارع والدور التى هي بارتفاع دورين في غالبها ، وهي جميلة ايضا ، الى حدائق انيقة وخططها متكافئة الابعاد . وفيها عدد من المساجد وابراج الرقابة التى ترتفع ، ارتفاعا شاهقا وتستدير حول المدينة ، كما تقع هنا ثلاث مائة طاحونة ، وفي اغلب الاماكن التى تكتظ بالمساجد يوجد هناك مدرستان عظيمتان ، شيدتا لتعليم الصبيان الشريعة المحمدية ، وقد كلفت احدى الاكدميات ، الملك ابا عنان الذى امر ببنائها ، اربع مائة وستين الف دوكة .

وقد قسم يعقوب بن عبد الحق ، اول ملك من ملوك المرينيين ، فاسا الى ثلاثة اقسام ، على كل قسم من الثلاثة اسوار . الا انها الان محاطة بسور واحد، وقد تحطم في عدة اجزاء منه .

والمسجد الرئيسى هناك يدعى القرويين . تقام فيه الصلوات المحمدية ، وهو مقام على ميل ايطالى فى استدارة ، وقد زين بسبع عشرة مسلة (203) راسخة البناء في ارتفاع وكمال ، الى جانب الابراج والماذن وله اربع وثلاثون بوابة للدخول اليه وهو حصين فى داخله ، وعلى طوله توجد ثمان واربعون سارية وفي عرضه توجد ثلاث وعشرون سارية اخرى ، هذا الى جانب عدة كراسى للوعظ ، وغرف مستديرة الشكل وفى كل سارية هناك

مصباح يوقد بالزيت من مخزن هناك ، كما هو في كل المساجد هناك ، وكل ليلة يوقد به تسع مائة مصباح ، وهو مزود بمائة حلقة وكراسي الوعظ ، وتصل نفقاته الى مائتي دوكة يوميا (204) .

ومع ذلك فهناك في المدينة الى جانب ذلك المسجد ، اكثر من ستين واربع مائة مسجد ، خمسون منها يؤمها الناس كثيرا ، ومزخرفة بفخامة، في داخلها وخارجها ، وتدل تلك الزخرفة على مهارة رائعة خارقة للعادة وكذلك سقوفها جميعها مزخرفة بالفسيفساء في الداخل ومنقوشة بالذهب العجيب ، وحيطانها واساطينها مصنوعة من رخام بهيج اللون ، مجزع بالمرمر الابيض (205) ، كما هو في الجامع الرئيسي ، الذي كان مسيو كاتلين Chatelline وانا لنا ثلاث عوادات مختلفة اليه ، مصحوبين بمضيفنا المغربي ، الذي حصل لنا من سدنته اذنا بذلك .

وهذه المدينة مزودة بجميع انواع الذخائر ، مما يصلح للانسان او الحيوان ، وهي اجمل ما يوجد في جميع شمال افريقية من مدن ، وتحتوي على عشرين ومائة الف دار جميلة فاخرة ، وفيها مليون نسمة، فالحقيقة انه عالم في مدينة ، ويمكن ان تكون بالاحرى المدينة الثانية في عظمتها فهي كالقاهرة المدينة العظيمة الثانية ، بل انها تقارن بالقسطنطينة ، وهي في جمالها أحسن . أما في العظمة فتقارن بحلب أيضا (206) ، ولهذا فهذه المدن هي اربع مدن عظمى في العالم ، مما قد شاهدته فيه ، سواء في الداخل او الخارج ، والاهالي هنا بسطاء جدا وغيورون متحمسون في اداء طقوسهم، بل انهم يرقصون جدا ويقصفون في مواسمهم المقدسة التي تكون لهم فيها مصارعة الثيران ، ويتنكرون بقناع الاوجه المستعارة (207) ويغنون على قافية على واحدة معينة وفي مركب من كهانهم .

وكان للمغاربة في عهودهم القديمة ، بفاس ومراكش ، شخصيات عديدة عظيمة جدا ، في العلم والحضارة ، كما كان لهم ملوك عظماء بين ملوك المسلمين ، وان الانسان لا يمكنه ان يجد كثيرا من بين هؤلاء مثل الملك المنصور وعبد المومن ، ويوسف (208) الذين كانوا اعظم الرجال في تاريخهم ، ففي ايامهم ازدهرت العلوم الطبيعية واشتهرت كذلك الفلسفة ورجالها بين الوثنيين (209) مثل ابن سينا ، وابن رشد والرازي وأبي معشر (210) وغيرهم ممن كانوا في عددهم العظيم يعضدهم ملوك المغرب ، الذين كانت لهم المكانة والرياسة في جميع بلاد المغرب واسبانيا ، ويمكن ان يشاهد ذلك الاثر في اسبانيا ، حتى الان . ولو ان

هؤلاء قد سقطوا الان في الانحطاط وعطلوا عددا عظيما من مدارسهم ، مظهرين انهم اعظم المحبين لدينهم واخلصهم لعقيدتهم . وهكذا هم الان كذلك في هذه الايام واستثني فقط شربهم للخمر ، المحرمة بقرءانهم ، نعم كذلك كانوا عظماء جدا في الرياضة الروحية ، والرياضة البدنية ، وخرط الاخشاب ومصارعة الثيران ، مما تحافظ عليه اسبانيا هذه الايام . فكانوا هكذا مثل الرومان معلمين لغيرهم ، ومخلفين كثيرا من اتباعهم .

وفي فاس كان هناك عدد عظيم من الشعراء الذين نظموا كثيرا من الاشعار المختلفة الموضوعات ، خصوصا حول الغرام والمغرمين الذين يسمونهم صراحة في قصائدهم ، بدون لوم يتعرضون له او حياء . فيجتمع اولئك الشعراء ، مرة في كل سنة ، على مولد محمد ، فينشدون القصائد في مدحه ، وبعد الظهر من ذلك اليوم من العيد يحشر جميع الشعراء في الاسواق ، حيث يقام كرسي يكون مهيئا لهم ، فيعتلونه ، الواحد تلو الاخر ، فيرتلون قصائدهم عليه ، بمحضر جمهور من الناس . ويكون لهؤلاء الحكم لاحسنهم بالتوق ، فيظل بهذا الشاعر طول السنة مفضلا على الاخرين ويمنح له هذا اللقب امير الشعراء . كما انه يجازى من قبل النقيب واهل المدينة بجوائز عظيمة ، ولكن ايام الملوك المرينيين ، كان الملك في ذلك اليوم يحشد جميع الاعالي في قصره ، ويقيم حفلة العيد في محضره فيحتفل بجميع الشعراء المحسنين ، ويجعل كل واحد منهم ينشد القصائد في مدح محمد امامه ، قائما على دكة عالية . ثم يمنح من اعتقد انه يفوق الاخرين ، منحته الملكية التي تكون 100 دينار ذهبي سلطاني (211) وفرسا ، وجارية وكساء طويلا ، مما يكون يرتديه هو في تلك الساعة ، كما انه يامر بخمسين دينارا سلطانيا الى كل واحد من الشعراء الباقين ، وعلى هذا فكل واحد من هؤلاء الشعراء ينال جائزة على ما سطر قلمه ، وحقيقة انها للفتة قيمة ، لو ان ملوكنا الاوربيين عملوا بها ففعلوا ما يماثل هذا لأحسنوا ، خصوصا في هذه الجزيرة . وبذلك يشجعون المواهب ويستحثون الدراسات العقلية ، ويعملون على ان يبرزوا العبقريات الرائعة ، فتبدوا بأساليبها الممتازة وابتكاراتها الخصبة ، وهي الآن خاسفة ومنزلقة الى الحضيض ، لانهم في عصرنا هذا ، لا تشجع انتاجاتهم ولا يكافاون على ما تسطره اقلامهم البارعة بكتبهم كانت فاس تسمى قديما سيلدا (212) وكانت مملكتها تلي الاطلس ، جنوبا ، ويحدها نهر أبي رقراق الى الشرق وتلمسان ، ومراكش الى الغرب وتخوم ورغلة ، وجهات من البحر شمالا .

وقـد قضينا في فاس 17 يومـا ، كنا في كل ذلك الوقت نتصل يوميـا ببعض المسيحيين الحبشة ، والمولدين ، او الاثيوبيـين ، وكـان بعض منهم تجارا واخـرون رجـال ديـن ، وكـان مسيو كتلـين غـير موفـق في عملـه ، وهو يبحث عـن اليمند والاحجار الكريمـة لشرائها . ثـم كانوا يرشدونـه ويحملون اهتمامه على الذهـاب الى آروان ، واحـة بالصحـراء ، وهي مدينة عظيمة على الحـدود مـن شمال أثيـوبيا ، حيث يمكن ان يجد وفـرة مـن ذلك بـوسيلـة سهلـة ، معطينه اتجاهـا مستقيمـا لسفره الى هناك ، يستغـرق 20 يـومـا سفـرا . وقـد ضمن مشروعه نصائحهم هذه كما اغـراني بنفس الاهتمـام ، فسملت بذلك ، حالت كوني ، الرئيس الاعلى ، مـع الرغبة الطـامعـة فـي مشـاهـدات اكثـر .

وهكـذا في توجيهنا ، استاجـرنا تـرجمانـا مغـربيـا ، كـان يتكلـم الايطـالية ، ليكـون المعبـر عنا ، ومعـه خيمـة وخادمـان مغربيـان يقومان بالاعمال الشاقة في دلالتنا ، وحراستنا ، ويتوليان القيام على خدمتنا بالطريق مقابـل ثمانية وخمسين سلطانيا ذهبا ، وهي ثمـان عشرة لبرة واربـع شلنات انجليزيـة ، وكـان معهـم ستة من رجالهم واقربائهم ، عهـد اليهم القيام برفـع «السنجـق» العلم القـانوني الذي يحفظ حياتنـا وحريتنا وما لنـا .

وعلى هـذا ، وقد تزودنا لنفسنا بكل الضروريـات من الاشياء ، والبغال لتحمل زادنا ، والمـاء والمتاع ، كنا نئودي ما كان في ذمتنـا بعشريـن اقجـة (عملـة تركية من الفئة الصغيرة) عـن كـل يـوم للـرجـل ، فكـانت اربعـة وثلاثـين شلينا عن كـل واحـد منا ، وقد هدينا الى طريقنا بواسطة المولدين الحـراطـين المسيحين المـذكـوريـن ، الذين صحبونا بضعة فـراسخ ، ثـم غادرناهم بتشكـرات واجبة ، واستانفنا سيرنـا مصعدين في رحلتنا ، وخـلال سبعـة ايـام كاملة لـم نر فيهـا متاعب شاقـة في اي شيء باستثناء حـرارة عظيمة ، واجدين اصحاب الخيام والقرى المنتشرة في كل الطريق ، امـا اليوم الثامـن فان الطريق كان متعبـا وصخريا ، فتعب كتلين من مشيه على قدميه، ولـم يستطع ان يستمـر لانـه لـم يكن معتـادا السير مشيـا على الاقـدام ، ومـن اجـل السرعـة لنا والاراحة لـه ، فقد اركبناه فـوق متاعنا ، واخـيرا وصلنا الى اهتسو (213) حيث توقفنا للاستراحة وكـان ابعد واقصى مـدينـة جنوب مملكـة فاس ، كانت هذه المدينة تحتوي على الف دار جميلـة ، محصنة جـدا باسوار، مـع حامية مغربية هناك ، من رعايـا امبراطور مراكش ، وكـان الفرنسي طـول اليوم مريضا ، وبحـرارة ملتهبة ، بحيث اننا مكثنا خمسة ايام،

متوقعين موته ، وكان مرضه يزداد من سوء الى سوء أعظم وصمم على العودة، التى لم اكن استطيعها ، فتركته في حفظ المحجر ، ومعه احد خدامنا ليقوم على خدمته ، متحملا عهدة الاخرين اللذين كانا معي ، حسب ما سلف ، فتوجهت الى قصدى ، الذى تحول الى حزن وندم طويل .

لقد تركنا اهتسو خلفنا ، ودخلنا بلاد اكروس (214) فوجدنا السكان المتوحشين نصف مكسوين ، والشعب عراة ، والبلاد خالية من القرى ، والانهار والزراعة ، ولكن النفوس وصلت الى البهيمية ، مع وفرة من الغنم والمعز، والجمال ، والهجان والافراس الجيدة للسفر (215) .

التعاليق

(1) قدم ابو حسون ، ومعه باشا الجزائر العاصمة : صالح الرايس التركماني ، وما هزم لاول مرة محمد الشيخ وطرده من فاس ، حتى استغل ذلك الباشا المذكور لمباشرة العلاقات معه ، ولكن هذا كان صارما في موقفه ، يرى وجود الاتراك بالمغرب ، مما لا يرتاح اليه فبادر بأداء ما اتفق معهم عليه من المال وامرهم بمغادرة فاس ، ولما عاد محمد الشيخ الى فاس ، وتمكن من الاستيلاء عليها والقضاء على ابي حسون ، حاول هؤلاء الاتراك استغلاله ، لكنه ابى ذلك واحتل تلمسان وطرد منها هؤلاء الاتراك (نزهة حالادي ، والاستقصا) .

(2) كان هؤلاء جنودا مشاة ، من الحرس الخاص بالسلطان العثماني ، الذي كان يطلق عليه يكي (تنطق الكاف نونا) شاري ، اى صاحب الشارة الجديدة ، وكان هؤلاء من اولاد النصارى المسبين الذين ، يربون تربية خاصة ، ويصبحون فيما بعد الحرس الخاص بالسلطان

(3) كان اغتياله على يد كبير عسكره هؤلاء ، صالح الكاهية ، بعد ما عاد رسول باشا الجزائر الجديد ، حسن بن خير الدين بربروس .

(4) تزوج جوان الثالث اخت كرلوس الخامس الاميرة كتلينا ، ولما توفي سنة 1557 انتقل الملك الى حفيده سيبستيان تحت وصاية جدته كتالينا ، وهو ابن خوانا بنت كرلوس الخامس واخت فليبى الثانى ، اما ابوه فانه دون جوان الذي تزوج خوانا ابنة خاله 1550 .

(5) من مواليد الجزائر التى كانت امه ازابيل دى لوكيانوا سبية بها وقد فداه دوق ميدينا سيدونيا فتثقف في اشبيلية ، ثم تقلب في عدة وظائف هامة ، مثل سكرتير مجلس التفتيش ، وعضو فى المجلس الاستشارى الملكى ، وغير ذلك توفى سنة 1591 .

(6) يريد دوق البا ، كان حاكما للاراضي الواطئة ، وهو المعروف باسم : Fernando Alvarez de Toledo y Pimentel III Duque de Alba أما المركيز فهو el Marqués de Velez .

(7) هو فرنتشيسكو دى ثوتييكا اى طبيا ، كان فليبى الثانى قد وجهه الى فاس ، حينما كان كبريت يقوم بمهمة التفاوض ، وقد وجه مذكرة الى فيلبى بما راج مع مولاى عبد الملك (عن ديكسترى)

(8) فيما يتصل بمحاولة فليبى الثانى صرف ابن اخته عن مشروع محاربة مولاى عبد الملك ، هناك عدة وثائق تثبت ثبت ذلك وهى منشورة فى السلسلتين الانجليزية والفرنسية من دوكسترى .

(9) السفير الذي سبق لنا ان نشرنا له وعنه كثيرا في الاعداد السالفة من المجلة ، وكانت مهمته حل تلك المشاكل التجارية التي كانت تعترض التجار الانجليز بالمغرب وكان هؤلاء التجار قد كتبوا تقارير حول مشاكلهم التجارية بالمغرب ، وسبق ان كنا نشرنا ترجمة لها بالعدد السادس من مجلتنا

ومن المفيد ان نعرض على القارىء ملخصا لما كان بين انجلترا والبرتغال من مشاكل حول التجارة في القارة الافريقية والمغرب منها بالخصوص ، وهذا هو التلخيص مترجما عن ديكستري :

كان البرتغاليون يستندون على رخصة التوزيع البابوية التي قسمت ملكية العوالم الجديدة بينهم وبين الاسبانيين ، فجعلوا يحاولون الاحتفاظ باحتكار التجارة في البرازيل والهند الشرقية وفي جميع الاقاليم الافريقية الواقعة جنوب الجزر الخالدات . وقد كان الانكليزيون من جهة اخرى قد اخذوا يشعرون بروح الحرص على توسيع تجارتهم البحرية منذ ان تولت اسرة تودور Tudor عرش البلاد ، اذ ان تجارتهم كانت لحد هذا الوقت مقصورة على الاراضي الواطئة واسبانيا باعتبارهما اهم الاسواق . وقد ورد ذكر السفرتين اللتين قام بهما الى المغرب طوماس واندام Thomas Windham سنتي 1551 و 1552 اما في السنة التالية فقد وصل الى شواطىء غينيا التي سبق للسيد ويليام هوكينز Williams Hawkins ان زارها حوالي سنة 1528 . وكان كثير من التجار الانجلز ينظمون ارساليات جديدة الى هذه الشواطىء نفسها في اعوام 1554 و 1555 و 1556 . وقد كان سير ويليام غارارد Sir William Gerrard و بنجامان غونسون . Benjamin Gonson امين مال البحرية ، يفكران في اقامة حصن بناحية المينا Elmina وفي اواخر السنة التالية شخص جون هوكينس John Hawkins امام سيير اليون Sierra León فاستولى على مائات من الزنوج السود ليبيعهم كالرقيق ، كما استولى على عدة بواخر برتغالية . وقد اخذت لهجة احتجاجات البرتغال تشتد مرة بعد اخرى . وصار في نفس الوقت يعارض كل تجارة تقوم بين رعايا ايصابيل والجهات الافريقية ، كما كان يحتج على الاتلاف التي كان القراصنة الانجليز يسببونها ، اما المفاوضات التي اجراها السفير البرتغالي مانويل درانجو Manuel Daranjo في انجلترا سنة 1561 فانها لم تنته الى اى حل مضبوط مدقق . وفي سنة 1562 ارسل دون سيبستيان D. Sebastian الى لندن سفيره لدى قصر فرنسا ، ج ب دامطاس J.P. Damtas بمهمة العودة الى اثارة القضايا التي يقوم الخلاف حولها . وقد دار النقاش بصورة رئيسية حول غينيا ، اما المغرب فلم يرد ذكره الا عرضا ، الا ان الجانبين لم يتفاهما مطلقا ، فقد تجددت في الاعوام التالية الشكايات وتكررت الاهانات حتى ادت اعمال الانتقام المتبادلة بين الطرفين الى قطع التجارة بين القطرين سنة 1569 . ومع ذلك فقد بذل مجهود جديد لبلوغ

اتفاق ما . وفي اواخر سنة 1571 واوائل السنة التي تليها جعل السفير البرتغالي، فرانسيسكو جيرالدي ، ووليام سيسل William Cecil — Francesco Giraldi يجتهدان في وضع مشروع للاتفاق . الا ان المغرب قد ظهر في هذه المرة في المكانة الاولى بعد ان كان فيما سبق مغفلا . وقد قبلت انجلترا ان تضحي بغينيا . ، الا ان تجارها كانوا يلحون على الاهمية القصوى لتجارتهم في المغرب لدرجة أنهم انتهوا الى القول بانهم يفضلون ان يحرم عليهم ولوج البرتغال على ان يمنعوا من هذه المملكة ، وفي هذه الظروف وتحت وطأة هذه المشاغل ، قام ستة وعشرون من اولائك التجار بتحرير صيغة هذا التصريح . اما المفاوضات فقد استمرت مدة طويلة جدا ، ثم ان المعاهدة التي ابرمت في نهايتها بتاريخ 29 اكتوبر 1576 من طرف فرانسيسكو جرلدي و فرانسيس والسينجام Francis Walsingham — Francesco Giraldi قد تنكبت هذه القضية ، اذ ان الاتفاق قد وقع خاصة على اعادة الاملاك التي اغتصبها كل من الجانبين ، ثم على انواع الترضية التي يجب ان تعطى لمختلف الاهانات ، كما وقع الاتفاق على ان يتاجر البرتغاليون مع انجلترا وايرلندا وان يتاجر الانجليز مع البرتغال والغرب ، وجزر ماديرة والازور Azores ، Madera ، Algarve وقد ورد ذكر الملك دون سيبستيان D. Sebastian ملقبا في ديباجة الاتفاق بانه سيد غينيا والحبشة ، اما المغرب فلم يرد له ذكر ، وجاء ضم البرتغال من طرف فليبي الثاني فسوى هذه الصعوبات

(10) كان فراي لويس Frai Luis de Sandoval الاشبيلي الراهب الفرنسسكي كاتبا لمولاى عبد الملك وكانت الرسائل الاسبانية تمضى في بعض الاحيان باسمه وفي احيان اخرى تمضي باسم عبد الملك الذي كان يستعمل الحروف اللاتينية في امضائه هذا ، فلعله كان يحسن بها الكتابة .

(11) لا ندرى من هو هذا الشخص ، فلعله احد تجار اليهود الكبار .

(12) المكان الذى يقع به البلاط الانجليزى .

(13) سبق ان اشرنا الى هذه النقطة الهامة التى كانت اليزابث حريصة عليها حتى لا تغضب الاسبان والبرتغال بصفة خاصة .

(14) تقدمت الاشارة اليه والى اخويه في العدد السالف .

(15) كان حسن اغا البندقي الاسلامي مولى للعلج على الذى تاتي ترجمته ، توفي سنة 1590 بعد تقلبه في وظائف سامية .

(16) هو العلج علي باشا الجزائر من سنة 1568 الى سنة 1571 وسنة 1581 والقائد الاعلى للاسطول التركي من سنة 1571 الى ان توفي سنة 1587 .

(17) كاهية ، وكاخيا ، وكتخدا معناه الوكيل والمعتمد والامين ، ويقال ان الكلمة التركية الاولى وهي الثانية ماخوذة من الاخيرة الفارسية

(18) كان وزيرا لفليبي الثاني .

(19) من كبار حشم أم دون سيبستيان

(20) يريد واد القاهرة الذى كانت تتجمع به جيوش مراكش وسوس (312 ـ السلسلة الانجليزية)

(21) ربما يكون المقصود مدينة عمير البعيدة عن ازمور بسبعة فراسخ ؟

(22) هوكيوم بيررد احد الفرنسيين السائحين الوكلاء ؟

(23) لعله يريد بهم المعروفين عندنا بجبالة

(24) ورد الاسم فى النص هكذا Abdenu ؟

(25) فى النص Ulendeta .

(26) ربما يكون المقصود القائد ابراهيم السفيانى

(27) هكذا وردت الكلمة Bezenin وفى الترجمة الانجليزية Bessanine ؟

(28) ورد ذكره فى تقرير وليم بلين من الشخصيات التى عينت لتكون فى معية الملك .

(29) محمد (فتحا) بن عيسى كان من كتاب مولاى عبد الملك كما في نزهة الحادى والاستقصا وترجم له العباس ابن ابراهيم نقلا عن الفشتالي لاصطحاب الملك سيبستيان ، دوق بركنسي ودون ادوار المعركة وآخرون

(30) الوثيقة منشورة بدكستر بلغة اسبانية عتيقة وقد صاغها فى الاسلوب الحديث زميلي الدكتور مريانوا أريباس ثم ترجم ذلك صديقى السيد عبد اللطيف الخطيب

(31) سبق ان اشرنا الى ان هذه المعركة كانت تكتسى صفة حرب صليبية ، ولهذا شارك فيها العالم المسيحى ، بما فيهم الانجليز ، ومن الوثائق التى ورد فيها هؤلاء الانجليز ، وثيقة وليم بلين التى سبقت الاشارة اليها ، وهى منشورة بالسلسلة الانجليزية الجزء الاول صفحات 207 ـ 299

(32) ورد الاسم هكذا Bibon ولعله المقصود به المكان الواقع فى الطريق الرئيسى بين مراكش وتارودانت .

(33) هما مولاى عبد الملك ومولاى عبد المومن .

(34) النص هكذا taking to his wife a bondwoman, that was a blacke negro وكان اسمها الخيزران أو الجوهرة كما فى نزهة الحادى .

(35) انظر نزهة الحادى والاستقصا والجيش العرموم .

(36) وكانت هذه الجيوش من القوات التى كانت للترك بالجزائر .

(37) ذكر ديكسترى تفصيلا لهذه القوات فى التعليق 3 ص 294 — 293 من الجزء الاول السلسلة الانجليزية نقلا عن بربوسا متشادو .

(38) ورد هذا الاسم هكـذا كويكسينا كما وردت باقى الاسماء محـرفة، فلعلـه تصحيف فى الطبـع .

(39) ربمـا كان الاصل طنجـة بدل فاس ، كما يتبادر

(40) هو خوان دى ايسونسا كان امينـا عاما او قيما للاسطول الاسبانى

(41) هـو المعـروف بلقب Seigneur de Lansac, Guy de Saint-Gelais قائد فرنسى مغامر ، قـام بادوار بـين فليبى الثانى ومولاى عبد الملك ، وكـان يعتمـد عليه الملك الاسبانى ، فى الاستيلاء على العرائش ، وهو الحلم الاسبانى الـذى عملـوا على تحقيقه فى اكثـر مـن منـاسبـة (انظر الجـزء الاول مـن السلسلـة الفـرنسيـة)

(42) شخصية تروج فى الوثائق المعاصرة ؟

(43) حاكـم مليلية وسفيـر اسبانيـا الى المغـرب

(44) الافرنسى المغامر الذى تقدم ذكره فى الوثائق المنشورة بالعدد الماضى

(45) هو القبطان ديلكـروا كان يعمل مع لانساك (انظر تعليق 1 صفحـة 345 من الجـزء الاول الانجليزى)

(46) Brouage ?

(47) Torine ?

(48) تقدمت الاشارة اليه والى اخويـه

(49) يريد مولاى اسماعيل بن عبد الملك ، وقد تقدمت الاشارة اليـه فى العـدد السالف من المجلـة

(50) يـريـد اخـا ملك فـرنسا ؟

(51) منشورة بديكسترى الجزء الثانى من السلسلة الانجليزية ، ولجورج هـذا رسائل اخـرى قيمـة منها رسالة كتبهـا لروبرت المذكور بتاريخ 9 نونبر سنـة 1603 ، نـرى لاهميتها أن نلخصها فيمـا يلى :

ذهب مولاى احمد الى فاس سنة 1602 لاخضاع الشيخ فاعتقله بمحلتـه . وبعـد ما مكث الملك هناك اثنى عشر شهرا رجع الى مراكش وتوفى . وكان الملك قـد جعـل لابنـه من فـاس الى وادى العبيد ومن ثم لابنـه الـوليد . ولـما

توفي المنصور حدثت الحروب لان زيدان قال اما ان يكون الملك وحده واما لا ملك . وكان هذا اعقل وامرس للحرب ، واحب الى الشعب لاسباب منها انه ابن حرة ، الا ان ابا فارس كان قد تمكن من بيت المال الذى استمال به الجيش ، فجعل لهم ثلاث شقنات مرتبا شهريا ، وادى لهم ثمانية اشهر متاخرة وستة متقدمة ، ومع هذا فان زيدان تمكن من نصفه بواسطة امه التى حضرت موت المنصور مع بعض نسوة ، فاعلن انه من بقي يؤدى له ومن أراد الذهاب الى مراكش فلا ، وكان القواد ذوو الشان هم عزوز والمومن بوكرزية وبنكوز وعبد الصادق وعبد الواحد ابن سعيد واخاه والباشا جؤذر ، واحمد بن منصور ، وهؤلاء كانوا مجلس المنصور ، وكان المنصور قد تزوج بأخت المومن بوكرزية ، وكان جؤذر قائد العلوج جميعا ، اما القائد منصور فكان قائدا على الاندلسيين وهؤلاء وان كانوا بمراكش الا ان اغلبهم يحبون زيدان ، وكان مع أبى فارس القائد مسعود النبيلي ، وأخوه الذى تزوج بنت عزوز ، وسيدى كووى الاخ الاصغر للمومن بوكرزية ، وكان فى مجلس الملك يهودى اسمه ابراهيم بن واش ، كان موضع سره وثقته ، وان كان الشعب يشكو مظالمه الوثيقة بديكستري 230 ج 2

(52) سنجد هذا مثبتا في بعض الوثائق التى ستاتي واهمها رسالة جورج طمسن التى ارسلها الى روبرت سيسل بتاريخ 9 أو 19 غشت 1598 .

(53) سبق ان اشرنا الى هذه الثورة التى أثارها في الواقع فليبى الثاني وكانت كارثة على الدولة السعدية التى لم تقم لها قائمة بعدها ، وان كان المنصور تغلب عليها ، الا انها كانت مشجعة فيما بعد لابنه الشيخ على تمرده كما سنرى (انظر مناهل الصفا)

(54) اخواله الشبانات فان امه السيدة عائشة بنت ابى بكر الشبانى

(55) اختلف فيه الا انه على كل حال من ولد محمد الشيخ المهدي منهم من يقول انه محمد بن عبد المومن بن محمد الشيخ ، وآخرون يجعله محمد بن علي بن احمد الاعرج . يقول مولاي زيدان في رسالته الى ابى زكرياء الحاحى ، « ثم خرجت الى السوس مرة اخرى وأوقعت بولد مولاى احمد الشريف وجموع مراكش ، فهو اذن من ولد السلطان ابى العباس الاعرج اخى الشيخ ونقل عن زهرة الشماريخ ان اسمه ابو حسون (انظر الاستقصا)

(56) تقدم فى الوثائق التى نشرناها ذكر طمسن وسيسل هذا

(57) بلتسار بولو Balthasar Polo .

(58) تقدمت الاشارة الى هذا فيما نشرناه ، وانظر نزهة الحادى فيه

(59) المراد بقوله : Her Ma[ties] sworne servante Squier .

(60) ورد الصنفان في النص هكـذا : Connyes, hares

(61) في النص هكـذا : palmites

(62) غالبا ما يعبرون في الوثائق الانجليزيـة المعاصرة، عـن المسلمـين بكلمـة «مـور» « Moores » .

(63) لعلـه يـريد مليليـة وحجـر بادس .

(64) في النص Erganie والمـراد اركـين Arguin الموجودة في مريطانيا، قـد اقيـم على هـذا الخليج من المحيط الاطلسي

(65) اذكـر انه كان كـذا the Wise mad king .

(66) كما سنرى وهذه الوثيقة محفوظـة بادارة الوثائق العامـة بلندن، اطلعت عليها سنة 1959 تحت رقم St. Pa. 102/4 fol. 34

وقد ترجم المهـم منهـا بالانجليزية وهو الذي نشر بالسلسلة الانجليزية .

(67) يوجد نص الرسالة الاسباني ، منشورا بديكسترى ص 284 ـ 285 مـن الجـزء الثاني

(68) كان فليبي الثالث مهتما جـدا بهذا الهجوم الذي عـالجه انطـون شرلي ، ولكن مسعـاه كان خياليا الى اقصى حـد ، وقـد ادرك هـذا السفـير الانجليزي بمدريـد ، الذي كتب الى لندن تقريرا عن اطون شرلي ، فـوصفـه بـانـه دجـال مشعـوذ .

فكيف كان يمكن ان يتصور من ملك ضعيف تتوالي عليه الهزائـم ، ويطارد مـن جهة الى اخـرى ، ان يستعان بـه في حـرب دولة عتيـدة قوية كالـدولة العثمانيـة آنـذاك ، فالمسالة كما يظهر كانت تهويشا تلعب ادواره من اواسط الشرق حيث الصفويون اصحاب ايران الى اقصى الغرب حيث هـؤلاء

(69) من وثيقته المنشورة في الجزء الثاني من السلسلـة الانجليـزيـة بالصفحات 267 ـ 273 ، وقـد اتي بملخص لترجمته ص 266

(70) كما سناتي بذلك عند ترجمـة فصوله الخمسة عشر

(71) المنشورة بديكسترى الجزء الثاني صفحتي 306 ـ 307 .

(72) وهذا نصه : The report goath of 600 Englishmen, such as were uppon the coast, did one the part of the King of Fesse great sevice, and by whom cheifly he obtaynned the victory .

(73) كما سيرد ذلك في الفصل الخامس عشر من وثيقة RO.C .

(74) الترجمة الانجليزية منشورة بديكسترى الجزء الثاني من السلسلة الانجليزيـة بصفحات 418 ـ 421 ويظهـر انهـا ترجمت عن الايطاليـة

(75) وليم بدول عالم وراهب انجليزى كانت له معرفة باللغات الشرقية ، التى درسها بالشام ، توفى عن سن تناهز السبعين ، وذلك بتاريخ 5 مايه سنة 1632 ، ويعتبر هذا المستشرق من اول المستشرقين الانجليز ، وقد تناولـه بالدرس الدكتور هوت المدرس بقسم الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن ، وذلك فى احدى المجلات الجامعية بانجلترا ، وذكر لى سنة 1959 ـ حينما ناولنى فصلته عنه ـ ان هذا المستشرق كان قد دعى للترجمة عن سفير مغربى ، فلم يستطع فهمه ، وعلل هذا بانه ربما كان لا يحسن من الدارجة الا الشامية ، وهذا معقول ، وان كانت هناك اسباب أخرى لا محالة .

(76) قام ديكسترى بدراسة حول هذه الوثيقة وصاحبها ، ولاهيتها ننشرها فيما يلى :

ان التقرير المعنون باسم الحديث التاريخى الحق ، لثورة مولاى احمد على الممالك الثلاث ، مراكش وفاس وسوس ، تقع حوله مشكلة عظيمة من حيث صاحبه ، فان هذا التقرير ورد فى الواقع ، غفلا من الاسم تماما ، وان كان صاحبه ذكر اسمه رامزا لنفسه برو س. كما هو فى نهاية الرسالة التى بعث بها الى السير برط كتنجتون ، يقدم اليه بها تقريره هذا ، الا انه مع ذلك له اهمية تاريخية ، فقبل ان يتخذ اى راى علمى فانه يبدو معقولا ، للشخصية الدارسة ، ويحق له أن يباشر كمادة وصفية لهذا ، وكتحليل لما يتضمنه .

والتقرير الذى نحن بصدده، لعدة دواع، يحمل كما قلنا حروف رو. س. وهو تقرير سنة 1609 ، الفه صاحبه ككتاب صغير يحتوى على 74 صفحة ، غير مرقمة ، قد طبعت سنة 1609 بلندن بمطبعة طومس برفوت Thomas Purfoot لمكتبة كلمنت نيت Clement Knight وقد تضمن الكتاب الأقسام الرئيسية الآتية:

مملكة احمد المنصور

الحروب الاهلية بين اولاده

الدين والحكم

مخاطرة انطونى شرلى Anthony Sherley .

واهداء التقرير ، الذى علينا ان نرجع اليه ، عبارة عن رسالة وجيزة مختصرة فى عباراتها ، حاملة صفة صداقة أكثر من كونها تحمل تبجيلا فالانسان لا يلاحظ الطابع الخاضع الذى غالبا ما يتصف به الخلق الادبى آنذاك.

وهذا التقرير مقسم الى فصول ، فالاول مخصص لاصل السعديين الملوك ، والثانى لعظمة ملك احمد المنصور ، والفصول من الثالث الى السابع عشر ، هى الفصول الاساسية فى هذا التقرير ، فهى تغطى تاريخ خمس سنوات من الفتن والاضطرابات ، التى تلت موت احمد المنصور ، وجميع

الفصل الحادي عشر واهم قسم من الفصل السابع عشر ، مخصص لتاريخ المخاطرة التي قام بها انطوني شرلي في المغرب ، اما الفصول العشرة الاخرى ، فتعالج مسائل الدين والحكم ، ولم يكن المؤلف موفقا فيها باحكامه التي اتخذها ازاء عدد منها .

والقسم التاريخي منه ، باستثناء الفصل الاول ، الذي هو حول اصل البيت السعدي ، محقق تماما ، ويستطيع الدارس ان يدرك ذلك ، اذا ما قارنه مع المراسلات القيمة التي قام بها ب. ميرتنزي ، وكو ، نائب الاراضي الواطئة بالمغرب ، حيث كان هناك من سنة 1605 الى سنة 1609 ، فالتقريران معا كلاهما يتمم الآخر ، ويلقيان ضوءا واضحا على هذا العصر من عصور المغرب .

ولكن اذا كان ب. ميرتينزي وكو ، في بعض الاحيان اتبعا في تنقلهما المحلة الشريفة ، وكانا شاهدي عيان لتلك الاحداث التي يقصانها ، فان صاحبنا ليس اقبل منهما ، وكمؤرخ ، اي مؤلف قصة 1609 . والقارىء المتمعن في صنيعه يجعلنا نعتقد انه لم يكن نفسه قاطنا بالمغرب ، فانه لم يكتب عن مشاهدة ،ولكن بالسماع متحملا الوثائق المماثلة ، التي كانت تاتيه من الوكلاء الانجليز ، الذين كانت لهم تجارب عن البلاد طويلة ثم انه ، الى جانب ذلك لا يميل الى ان يصدق كل ما ورد عليه من هؤلاء الانجليز بل يتبين بنفسه ، فيهتدي في عدة قضايا ، ويكتب الاخبار المتتالية ويسندها الى صاحبها ، فيقول : قال محدثي ، او قريني او مواطننا ، وقد وقف بقصته عند تاريخ ينيه سنة 1608 لانه يقول : ان الكتابة بدون الاعتماد على الاخبار الصحيحة تفضي الى المخاطرة .

فمن هو الكاتب الموصوف بهذه الصفات، ومن هو الذي اودعه هذه الرسائل والوثائق ، التي كان لها بعض الاحيان صفات رسمية ، فالف القصة الشبه غفلة، والتي تهمنا ؟ ان مقارنة يقظة مع قصة جرج ويلكينس George Wilkins تجعلنا نظن انه كان الرجل الذي اختير لهذا العمل

كان جرج ويلكينس من الكتاب الثانويين ، وان كان يزامل شيكشبير، الا انه اضطر ، لمركزه المضطرب، أن يتعيش بقلمه ، فاصبح لهذا مهتما بالمغرب ، حيث قدم تقريرا كتبه سنة 1604 ، وهي ثلاث مصائب المغرب ، وذلك الذي كتبه سنة 1607 ، وهو قصة تاريخية ، للحرب الاهلية . وقد ذكرناها له ، وكان له الى جانب ذلك ، اتصال مع اعضاء الشركة البربرية ، ويعرف بصفة خاصة ارنولد طومسن، أحد التجار الانجليز بمراكش، وأحد اخوة جورج طومسن ، مراسل روبرت سيسل . والنتيجة أن جورج ولكنس كان مشهورا جدا باتخاذه للتاليف مستعينا بتلك المواد التي كانت احداها وقد ارسلت اليه ، تاريخ او قصة عصر الاضطراب لتاريخ المغرب .

والآن فان كان أحد يقارن ، بين التقارير العديدة ، في النوع والموضوع فان تقرير سنة 1609 ، يصح أن يقارنه مع سنة 1604 ، اذ كلاهما يتصل بنفس

الطبيعة ، التي يتقدمان بها معا ، كما ان التاليف والاسلوب ، له خاصية فكهة ، ونفس الاقتباسات اللاتينية ، خالية في بعض الاعمدة من اثبات لشخصية أصحابها .

ولهذا فانه معقول جدا أن يكون جدرج ويكينس هو الكاتب لهذا التقرير 1609 . ولكن ، الى جانب ذلك ، او بالاحرى اشرافا على هذا الكاتب فانه يبدو أن هناك شخصا كان الباعث والملهم لهذا العمل ، ولكن من هو ؟ ولاشك أننا في غير حاجة الى أن نتوقف في صفات هذا المؤلف الذي قد اكتفى بان يوقع بالاحرف الاولى من اسمه ، وهي رو، س، « RO.C. » .

هذا الرجل يبدو انه روبرت سيسل ، كونت سلسبري ، وسكرتير الدولة لجمس الاول ، فقد كان روبرت سيسل يتابع باهتمام احداث المغرب، وليس ذلك لانه ، حسب مركزه السياسي الانجليزي فقط ، ولكن ايضا لسبب آخر يخصه ويهمه ، فاننا نراه ما بين سنتي 1597 و 1598 يبعث الى المغرب سفينة من سفنه ، تدعى (ترولف True Love) الحب الصحيح ، لتقوم بالاتجار والقرصنة في آن واحد ، وكان جرج طومسن مراسله ، ويكاتبه بانتظام ، ويمده بتقارير عن جميع الاحداث المغربية ، فهذه الرسائل تبدو بوضوح انها عناصر رئيسية استعملت في تاليف هذه القصة، لسنة 1609 ، ويظهر ان جرج طومسن كان المعني للمؤلف رو. س. في قصته ، بقوله (محدثي) .

واخيرا ، فانه يمكن ان يضاف الى هذه الحجج برهان آخر مستقى من رسالة التقديم ، الموضوعة عند بداية قصة 1609 ، فهي موجهة كما راينا ، الى السر روبرت كوتنجتون ، وهي تتضمن بتعبيرها وجود محبة بينه وبين المؤلف ، وقد اطلعنا على توصيات روبرت سيسل سنة 1605 ، على الشاب فرنسيس كوتنجتون لشرل كوروليس ، الذي استصحبه كسكرتير ، خلال سفارته الى مدريد .

والمتضلعون في معرفة الكتب والخطوط ، لا يظهرون انهم قد بحثوا الى مدى بعيد ليحققوا شخصية مؤلف قصة سنة 1609 وانطوني وود ينسب لانطوني شرلي تاليفا معنونا باسم قصة نهوض م ، أحمد بمملكة مراكش وفاس الخ ، طبع في لندن 1609 وهذا التاليف الذي وصفه ، بدون شك هو ما ندرسه ، فهذه النسبة الخاطئة في أثبات الكتب ، نتجت من niceron الذي اكتفى بنفسه لترجمة العنوان ، واخيرا فان لمبرت بليفر Playfair يفيد ان مؤلف القصة ، هو السر روبرت كوتنكتون ، الذي قد قدم القصة الى نفسه (ترجم هذا الى الانجليزية اخونا في الله Maclain) ترجمة حرفية حتى لا تلتبس بابنه الشيخ .

(77) استعمل الكلمة الاسبانية : « negra » .

(78) وهي عائشة بنت ابى بكر الشباني

(79) هو المذكور في رسالة جورج طومسن المؤرخة ب 10 غشت من سنة 1598 ، وهناك مصطفى اخر كان فى خدمة مولاى زيدان وقتل فى سابع ربيع الثانى عام ثمانية عشر والف كما فى نزهة الحادى وهو يطارد عبد الله وعمه ابا فارس

(80) يستعمل التعبير olde king ولكننا راينا الا نترجم كلمة old

(81) انظر نزهة الحادى

(82) انظر رسالة جورج طومسن المؤرخة ب 9 نونبر سنة 1603 او 30 اكتوبر منها

(83) يريد زاوية مولاى ابى الشتاء ببلاد فشتالة قرب نهر ورغة حيث كان مولاى الشيخ قد التجا يوم 31 من اكتوبر سنة 1602 كما فى نزهة الحادى

(84) مدينة كان مولاى زيدان قد شرع فى بنائها على وادى ام الربيع على بعد 5 كيلو من وادى واد درنة ، ، وقد هدمها جؤذر سنة 1603 .

(85) انظر السلسلة الاسبانية الأولى حيث توجد مذكرة حاكم الجديدة المؤرخة ب 27 نونبر سنة 1603 (دوكسترى)

(86) حسب التقويم الجديد يوم الاحد 24 غشت سنة 1603 وفى نزهة الحادى انه مرض يوم الاربعاء 20 وتوفى يوم الاثنين 25

(87) اعلن مولاى زيدان عن تملكه فى نفس اليوم الذى توفى فيه ابوه وهو يوم الاثنين السادس عشر من ربيع الاول سنة اثنى عشر والف الموافق 25 غشت كما ذكر فى النزهة

(88) أو الخيزران كما تقدم عن (نزهة الحادى)

(89) اعلن مولاى ابو فارس عن تملكه يوم الجمعة الموالى للتاريخ المذكور (الموافق 29 من غشت 1603) كما فى النزهة ايضا

(90) كان موت مولاى الناصر في شهر مارس سنة 1604

(91) فيما يتصل بذهاب القائد احمد بن منصور العلج الى مراكش ومبايعته ابا فارس بها انظر نزهة الحادى نقلا عن شرح زهرة الشماريخ

(92) هو المومن الذى سيفر الى أبى فارس

(93) Gowie كان اخا عبد المومن المذكور

(94) انظر تعليق اعلى الصفحة 336 من الجزء الثانى للسلسلة الانجليزية

(95) فى 25 دجنبر 1603 فوصل يوم الجمعة فاتح 1604

(96) المراد بهم عندنا العباد والزهاد او اتباع الطرق الصوفية وقد كتب في الحاشية ما يلي : Fokers are men of good life, which only given to peace

(97) انظر 25 دجنبر 1603 ص 241 تعليق 5 و 341 تعليق 4

(98) المحلة في عرفنا المعسكر كما كتب عليه : « Almohalla is a campe » . ينـاير سنة 1604 ، بل كان 8 منـه Neled .

(99) سجل التاريخ بعد تقويم جريجرى ، فلـم يكن يوم الجمعة فاتـح ينايـر سنـة 1605 بـل كـان 8 منه

(100) عبد الـواحـد عنـورى

(101) فى النص هكـذا (Weled Entid) .

(102) حفيد القـائد عزوز انظر النزهة السالفة الـذكـر .

(103) انظر حـول حـدو الطبيب سلسلـة الأراضى الـواطئـة الأولى الصفحـات 573،639،640،643

(104) انظر حولهم السلسلة الأولى الفـرنسيـة الجـزء الثـالث 579 تعليـق 2

(105) اقليم جنـوبى وادى درعـة

(106) وادى آقـة مصرف جبل بنى .

(107) سيدى عبد الله بن مبارك المرابط كان له اعظم سلطان على سوس على وادى نـون الى وادى درعـة انظر النزهـة

(108) العبارة هكذا : making a faire pretence to gverne but as Vizeroy .

(109) كانت له علاقة مع دوق تسكانا العظيم فردنند الاول دى ميديسس Ferdinand I^er وتعليق 5 و 25 فبراير وغيرها 1604

(110) سيدى جورى او كويا ملـوك انظر حوله سلسلة الاراضى الواطئة الأولى صفحة 476 ـ 477 وتعليق 1 من صفحة 341 ـ 232 .

(111) أصل العبارة هكذا : His attendence was better then aprivate man, though somewhat wanting of the person from whom he was sent.

(112) ابن رتشرد اللورد رتش واخو روبرت رتش كنت وارويك

(113) وردت الكلمة هكذا quarter وهو مكيال يعادل 908 و 2 هيكتولتر ، وفى الوزن يعادل 12،7 كيلـو جـرام .

(114) هو انطونيو دى سلدانيا Antonio de Saldanha انظر صفحة 290 تعليق 2 وكان نائبا من سنة 1600 الى 1604

(115) هو بيدرو سيزار دى سا Pedro Cezar d'Eça .

(116) وصل شيرلى الى لشبونة اوائل شهر شتنبر .

(117) عهد الدوق الاعظم فرديننذ الاول الى القبطان بومبلو بريتى Pompilio Peretti بالتوجه بسفينة الى العرائش لحملة والعودة الى توسكانا، فوصل القبطان الى العرائش يوم 17 شتنبر من سنة 1606 ، ولكن مهمته كانت لا فائدة تحتها ، لان تقهقر عبد الملك غير الخطة فى 8 دجنبر 1606 فتاخر القبطان بالعرائش ثم اتجه الى المعمورة .

(118) وحول معركة 8 دجنبر بين مولاى عبد الله ومولاى عبد الملك، دخل مولاى عبد الله مراكش فى العشرين من شعبان سنة خمس عشرة والف (الموافق يوم 10 منه) انظر النزهة

(119) انظر السلسلة الاسبانية الأولى بتاريخ 20 ابريل سنة 1606

(120) كان القبطان قد وصل الى المعمورة 6 دجنبر 1606 .

(121) انظر هذه الشخصية في صفحة 233 تعليق 7

(122) يعني لما كان معه من قبل والنص هكذا shee was suspected to have lived in incest with her father, after his enterance into Moruccos he never enquired father after her.

(123) انظر صفحة 66 تعليق 1

(124) هو الاخ الاصغر للقائد مومن بوكرزية

(125) هذا الاسم غامض

(126) كانت معركة جنان بكار 25 فبراير 1607 وفيها قتل المراكشيون كثيرا من اصحاب عبد الله كما فى نزهة الحادى

(127) كانت قصبة مراكش قصرا للملك وتقع في نهاية جنوب المدينة

(128) انظر سلسلة الاراضى الواطئة الأولى صفحة 217 .

(129) يعنى جامع المنصور الواقع بباب اكناو وهو ليعقوب المنصور الموحدى .

(130) كان الباشا رئيسا لفرسان مولاى احمد المنصور ثم حاكما للسودان 18 مايه 1600 الى يليه 1604 ثم اغتيل 12 مايه 1607 انظر صفحة 371 تعليق 1

(131) Lege Talionis .

(132) القائد احمد بن ابراهيم السفياني انظر صفحة 374 و 396

(133) انظر نزهة الحادي .

(134) كان انتصار مولاي عبد الله قد دفع به الى الزحف على مراكش فخرج له اهلها في نحو ستة وثلاثين ألف مقاتل (النزهة) فانهزموا ودخل عبد الله مراكش .

(135) كانت المعركة يوم 2 اكتوبر سنة 1607 بموضع يقال له وادي تفلفلت (تفلت) على طريق الرباط يبعد عن مكناس بنحو 70 كيلو متر وكان على رأس الزيدانيين مصطفى العلج ، فوقعت الهزيمة على مصطفى هذا كما في النزهة .

(136) شطر لهوراس Horace .

(137) انظر ص 365 تعليق 2

(138) العبارة في النص هكذا : Part of these fledde with the bodie of the armie backe to Morruecos.

(139) كان احمد المنصور له فرقتان من شراقة (الزهة)

(140) فصل الباشا سليمان يوم 10 مايه سنة 1607 انظر سلسلة الاراضي الواطئة جزء 1 ص 468

(141) القبطان John Giffard كان يعمل للاراضي الواطئة ، بامر السير ، فرنسيس فرر ، ثم سخط عليه الملك جميس ، فالتحق بخدمة الدوق الاعظم لتوسكانا فردنند الاول دي ميديسيس ، حيث قام بمهمته في حملة الجزائر ، فتمكن من التسرب الى مينائها سنة 1604 واحرق سفن القرصنة بها ، فكافاه الدوق على ذلك ومنحه الثقة ، التي جعلته يتولى قيادة سفينة تجارية ، لكنه بعد ما قام بالرحلة الاولى ووفق فيها ، احتفظ بتلك السفينة وبمبلغ 12.000 سكودو كان ملكا للدوق المذكور (دو كستري) .

(142) كانت معركة راس العين البعيد عن مراكش شمالا في شرق بـ 50 كيلو متر ، سادس دجنبر سنة 1607 وفي التقويم الجديد يوم 26 نونبر ولم يعين لنا صاحب النزهة تاريخا الا انها وقعت اثر معركة وادي تفلفلت كما ذكر

(143) وكان دخوله يوم 10 دجنبر سنة 1607

(144) المشهور أنه محمد ، ولكن الكاتب ذكره هكذا Hamett كما ذكر محمد المهدي بذلك .

(145) بعث مولاى عبد الله القائد علي بن منصور كوتيرز Gutierrez لصد ابى حسون فانتصر عليه لاول الامر، ولكنه في ثاني مرة تغلب عليه وتمكن من مراكش فى الحادى والعشرين من يناير سنة 1608 ، ففتحت ابوابها له .

(146) كان مولاى ابو فارس لما هزمه زيدان وبالغ فى طلبه وهو مستكن عند ابن سعيد التجا الى مولاى الشيخ فلم يزل مع ابنه مولاى عبد الله الى ان قتله فى جمادى الاولى سنة ثمان عشرة والف (موافق أواخر يليه سنة 1609) كما فى الاستقصا ونقله عن النزهة

(147) انظر نزهة الحادى .

(148) كان ذلك يوم 28 مايه سنة 1608 .

(149) انظر فيما كان بينهما على عهد أخيه عبد الملك «نزهة الحادى»

(150) جون ايتناجيانيتينو مورطارا John Enyna Gianettino Mortara كان قد اتى الى فاس ليعرض على الشيخ بعض الجواهر والاحجار الكريمة ، وذلك فى سنة 1605 ، على حين كان وكيل لاسبانيا يتفاوض مع الشيخ ، وفيما بعد نجده يحدث علاقات بين الشيخ وبين فلورنسيين هما نقولو جونى وسبستيلنو اكيستى ، وكانا مبعوثين من الدوق الاعظم لتوسكانا سنة 1606 ، وكان من ذى قبل له علاقة بالشيخ ، فانتهز دوق مدينا سيدونيا هذا ونصح الشريف بان يحمل جونى وكيستى متاعه ويتوجه الى توسكانا ولكن جينتينو المذكور نصح بالا يفعل ، على حين كان فليبى الثالث يتذرع بالدوق الاعظم ليكتب الى الشيخ يعرض عليه سفنا يتوجه بها الى اسبانيا عند الحاجة ، فكتب اليه بتاريخ 25 يناير سنة 1607 بهذا العرض

وفى اوائل سنة 1608 كان جيانيتينو يحمل رسالة من الشيخ الى فيلبى الثالث ، فسجلت اقامته بمدريد 15 مارس من هذه السنة ، غير ان مهمته لم تكن فى حال من الاحوال تتصل بالمفاوضة حول التخلي عن العرائش لفليبى او اية ميناء اخرى من المغرب ، بل كانت تتصل باعلام ملك اسبانيا بالانتصار الذى احرز عليه ابنه فى موقعة راس العين يوم 6 دجنبر سنة 1607 ، ثم طلب الجواز للشيخ الى اسبانيا فى حالة ما اذا اضطر الى ذلك ، لكن جينتينو تفاوض مع فليبى على اساس التخلى عن العرائش له ، وذلك بواسطة تفاوضه مع دوق مدينا سيدونيا ، من غير ما كان للشيخ علم بهذا التنازل ، فرجع الى المغرب فى شهر يتيه سنة 1608 وبناء على هذا التفاوض ، فان فليبى الثالث، جهز حملة قادها مركز سنتاكروز نحو المغرب لاحتلال العرائش ، التى قال له جينتينو انها خالية من الرجال والعتاد ، ولما وصل الاسطول الى العرائش فى 6 شتنبر سنة 1608 انزل الى البر 200 رجل ، الا ان حالة الجو لم تكن تسمح باستمرار الاسطول هناك ، فاعاد اولائك الرجال اليه ، وبعد يومين ابحر عائدا الى قادس .

أما مولاى الشيخ فانه لما علم بمحاولة الاسبان وبما فعل معهم جينتيينو غضب غضبا شديدا ، وزج بجيانيتينو في السجن ، حيث ظل به الى سنة 1609 ، حينما انهزم عبد الله في وقعة وادي ابي رقراق 27 يناير من السنة (من دوكستري) .

(152) هو القائد الكرني الذي كان قد ارسله الشيخ الى العرائش ليخليها من سكانها ولما امتنعوا عليه قتل جماعة منهم ، ثم اخلوها مكرهين فبقي بها هذا الجرني حتى سلمها فيما بعد الى الاسبان كما في النزهة والاستقصا وذلك في رابع رمضان سنة تسع عشرة والف موافق غشت سنة 1610

(153) القرصان Henry Mainwaring على راس القراصنة الانجليز الذين كانوا بالمعمورة ، ولما احتلت هذه سنة 1614 ، غادرها بسفنه التي نراه بها سنة 1615 يتعامل مع السفن الاسبانية والبرتغالية ، وما كانت سنة 1616 حتى نال العفو من ملكه جمس الاول ، وبعد ذلك بسنتين نراه يلتحق بخدمة البندقية التي سرعان ما مل منها ، وفي السنة التالية حصل على لقب ملازم ثان لقصر دوفر واستمر كذلك الى سنة 1620 حيث صار قبطان للبحرية الملكية ثم اصبح عضوا في البرلمان عن دوفر وظل كذلك ، يحمل لقب سير الى سنة 1623 وهو من عائلة كانت تحمل لقب كنت تشتر Count of Chester .

(154) Newfondland جزيرة بالشمال الاطلسي منفصلة عن كندا

(155) يريد به دوق برطاليكري Diego de Silva — Coundy of Portalegro .

(156) يوم القديس سان جون هو 24 من ينيه

(157) Antonio de Sallettes كان قد ارسل على سفينة من دوق سفوا الى المعمورة سنة 1614 وكانت مهمته الاتصال بقراصنتها حتى يعترفوا بسلطان الدوق ، غير أنه ما وصلها حتى كان الاسبان يحتلونها في 7 غشت من هذه السنة، فاجه هو الى داخل المغرب فقبض عليه وسجن ، ثم اطلق سراحه واصبح يعمل مهندسا في خدمة مولاى زيدان ، ويظهر انه لم يسر بهذه الخدمة فحاول الهرب من المغرب ، لكنه لم يوفق في محاولته ، وقتل سنة 1626 .

(158) شرل دو لرين هو دوق گيس Charles de Lorraine Duke of Guyse الرابع كان حاكما لبروفنس Provence سنة 1595 وبعد بعض الاحداث الاغتيالية التجأ الى سفوا Savoie سنة 1611 .

(159) دييكو سرمييتطو دي اكونيا ودوق كند ومار ، كان سفيرا لاسبانيا بلندن D. Diego Sarmiento .

(160) راس كاتا Cap de Gata وراس بالو Cap de Palos Cap San-Martin . وكلها في الساحل الشرقي لاسبانيا .

(161) راس سبرتل Cap Spartel .

(162) تفتانا Teftana .

(163) في الاصل nossaveries هو no-savories .

(164) المراد به Rio d'Ore كما هو في الوثيقة او Rio de Oro كما هو معروف في الاسبانية ، ويقع اقليمه في الجنوب المغربي من المغرب، على الشاطىء الأطلسي ، وينقسم الى قسمين في احداهما الساقية الحمراء ، ومساحته نحو 283.650 كيلو متر مربع .

(165) وينتهي بهذا الفصل الرابع من التقرير ، ويليه الفصل الخامس الخاص بعبارات الخضوع والاعتذارات المالوفة .

(166) من مقدمة ديكسترى الجزء الثاني من السلسلة الانجليزية صفحة 442 .

(167) وذلك حينما كان يطارده ابو محلي كما سيرد ذكر ذلك في رسالة ر. س. الآتية

(168) من تقرير جون هرسون الذى سننشر ترجمته قريبا ان شاء الله .

(169) سنة 1615 .

(170) لابى محلي رسالة قيمة في هذا ، اطلعني عليها وقرأ لي منها مضمنها ، صديقي الاستاذ محمد ابراهيم الكتاني .

(171) ورد الاسم هكذا : Om Homet وفي رسالة زيدان السالفة ، وجدناه هكذا : بمحل ، وان كان هذا كنيته

(172) كتب على الهامش : Larbies are the country people dwelling in tents. Brebers those that inhabit the mountaines.

(173) كتب عليه في الهامش : Azagies are de kind of darts .

(174) ورد ذكر لذلك في رسالة توجد بالسلسلة الاسبانية الاولى التى لما تطبع ، وذلك بتاريخ 22 ينيه 1612 .

(175) هو القنصو كستيلان Castellane .

(176) النص هكذا : I was in his almahalla at first, fowre dayes .

(177) بل كان في الثانية والخمسين من عمره ، اذ ولد سنة 1560 كما يستفاد ذلك من نزهة الحادى وقد نقلت عن كتابه اصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت ان ولادته كانت بسجلماسة عام سبعة وستين وتسع مائة

(178) العبارة هكذا : an alheick of lile grogman .

(179) ربما كان المقصود به قائد آيت زينب ، وبالكلاوى قائد كلاوة

(180) نص العبارة : for his government at Morocus, placed his Hackam .

(181) يريد الـزكاة الشرعية .

(182) أصل العبارة هكذا : not to give them to gaine their favour .

(183) من الحكـم المـاثـورة .

(184) هذه القصص كتبت في القرن السادس ق م وبعضها أقدم من ذلك

(185) أصل العبارة هكذا : a blocke was throwne downe into the water, which dash at the first made them feare him, but, lying still, they grew familiar, and sunned themselves upon him and grew in dislike ; so had the storke.

(186) لا ندرى من هـو Bolassad ?

(187) استعمل الكلمة العربية مشتقا منها هكذا : where upon was forced: to rehal his almahalla.

(188) بـالاصـل « Frugo » .

(189) وردت الكلمـة هكذا : talbies فهو يستعمـل الكلمات العـربيـة المحلية ، يشرحها أحيانا ولا يفعل أحيانا اخرى :

(190) هو القائد الحاج المير قائـد سجماسة مـن قبـل مـولاى زيـدان (انظر نـزهة الحادى) .

(191) أصـل الـعـبـارة هـكـذا : for they say he is their Fatamie,: that is a Saviour

(192) جنوبي وادى درعـة في اقليـم طرنـاطـة .

(193) كان ذلك في الثاني عشر من يليه 1612 .

(194) من مقـدمـة ديكسترى السالفـة .

(195) مـن تقـريـر جـون هرسون .

(196) نشرنا عدة وثائق في هـذا في المجلات والصحف المغـربية ، مـن أولهـا مجلـة الانيس 1950 وآخـرها صحيفة الامـة 1957 .

(197) حيث تحـول جمس عـن أبي فارس الى زيدان .

(198) ولد في لنرك باسكوت لندا Lanark in Scotland فنشا من المغامرين الذين قاموا بعدة رحلات، لكنه لم يكن في كتابة رحلاته ثقة يعتمد عليه .

وقد ذكر انه كان بتونس سنة 1615 ومن هناك توجه الى الجزائر والمغرب ، ولما عاد الى بلاده سنة 1617 ظل بها الى سنة 1620 حيث توجه الى اسبانيا فقبض عليه بمالقة بتهمة التجسس فعذب وسجن ثم اطلق سراحه سنة 1621 وفي سنة 1622 حصل له شجار مع السفير الاسباني كندى دي كوند ورمار فزج به السجن لذلك ولم يطلق سراحه الا سنة 1624 وصار اسمه يخفت حتى اختفى نهائيا سنة 1645 حيث يظن انه مات .

اما رحلته فقد نشرها مختصرة سنة 1614 ثم زاد فيها ونشرها لاول مرة بهذه الزيادة سنة 1632 ثم سنة 1640 وفيما بين ايدينا من هذا المختصر بعض الشبه .

اولا ـ وصفه لمدينة فاس مستقى في مغلبه من كتاب ليون الافريقي ، كما تجد ذلك في الترجمة الاسبانية الملخصة .

ثانيا ـ ذكر انه كان يوجد بكل قرية توقف فيها نبيذ جيد ، فيظهر انه يريد بذلك ما هو معروف عندنا بالصامت ، والا فيستبعد ان يكون النبيذ موجودا في كل قرية توقف فيها ، وليس من المستحيل ان يكون هذا النبيذ المسكر قد وجد في بعض القرى ، ويحدثنا بعض الشيوخ ان الصامت كان يقدم في حفلات الزفاف ، بدل الشاي ، وان منه ما كان مسكرا ، يتناوله بعض الشبان ، على عكس غير المسكر الذى كان يقدم للعموم وللشيوخ بصفة خاصة ، وعلى هذا فلا يتجه تكذيب ديكستي للمؤلف في هذه القضية

ثالثا ـ ذكر وادى ام الربيع على اساس انه المخترق لفاس ، وهذا يمكن ان يحمل على الخطأ .

رابعا ـ يذكر ان نساء فاس كن يضعن على رؤوسهن ما يعرف عندنا بالشمريرو ـ اخذا للكلمة الاسبانية sombrero القبعة المظللة ـ وهذا متخذ عند نساء اهل الجبال المعروفين عندنا بجباله على الخصوص دون غيرهن ويظهر أن هؤلاء جلبن ذلك من الاندلس في الهجرات الاخيرة للموريسكوس ، اذ ان الشمريرو لا يوجد الا في أحواز سبتة وتطوان وطنجة ، المواطن الجبلية التى هاجر اليها القوم واستقروا بها بصفة عامة ، وكانوا كما يظهر فلاحين فسكنوا البادية مفضلينها على سكنى المدن ، التى لاتلبس نساؤها هذا «المظلل sombrero كما لا تلبسن وقايات السيقان عند العمل في الغاب ، «الطربق» التى هي كلمة « traba » ولهذا لا يوجد شيء من ذلك في المدن التي اختص بها هؤلاء المهاجرون ولا في غيرها : لانه لا داعى فيها للشمريرو ولا للطربق .

خامسا ـ يذكـر انه كان يتردد على زيـارة القرويـين هو ورفيق له فرنسي، وذلك بـرخصة لهمـا ، مع انـه ذكـر انه ورفيقه كانا يلبسان الملابس المغربية حتى يخفى امرهما على المسلمين ، واذا كان ذلك كذلك ، فلـم يكـن لرخصتهما معنى في هذا التردد على المسجـد .

سادسا ـ بالـغ في عدد المساجد ، كما بالـغ في وصف المفاسد التي كان يعج بهـا المجتمـع الفاسي ، ومسالة الكشف الطبي لا يمكـن ان نصدقهـا ، فهذا ما عـرفه المغـرب الا بعـد فـرض الحماية الاوربية عليه ، كمـا ان مصـارعـة الثـيران مشكوك فيها ، ووصف الاحـذيـة كذلك .

سابعا ـ فيما يتعلق بالتاريخ ، فقـد استقى من ليون معلومـات حول ابي عنـان وغـيره من ملوك المغـرب ، وخلط في بعض الشخصيـات فجعـل مثـلا ابن سينـا من رجـال المغـرب ، كما خلط في بعض اسماء المدن ، وانبهم عليـه مدلولات بعض الكلمات مثل السنجق ، وان كان هذا يلتمس له بعض التاويل .

والنتيجة ان المؤلف لا يستبعـد ان يكون قـد زار المغرب حقيقـة فسجـل رحلته على ذلك الوجـه ، الـذي اختلطت فيه بعض المعلومات ، او استقيت فيه اخـرى من مؤلفـات سابقـة مثل كتاب الوزان او ليون الافريقي

(199) تصرفنا في هذه العبارة : the people barbarous and disdainefull countenances were awfull.

(200) بـل هـو نهـر «سبـو»

(201) ورد الوصف هكذا : the people of both kinds are clothed in long breeches ande bare ancles, with red or yellow shooes shod with iron on the heeles, and on the toes with white horne.

(202) كذا يقول الكاتب : « and weekely well looked to by physicians » وهو ما لا نصدقه لما فيه من كذب فاحش كمـا لا نصدق مـا ادعاه بعيـد هـذا ولا شك ان الكاتب اطلع العنان لخياله المغرض .

(203) يقـول : the chiefest mosque in it is called Mammo-Currarad, signifying « The glory of Mahomet » being an Italian mile in compasse, and beautified with seventeene high ground steeples.

(204) نـص الـوصف هكـذا : And to maintaine them and hundred totsecks and preaching talsumans, the rent of it extendeth to two hundred duccats a day.

(205) ربمـا استعـار هـذه الاوصاف من ليـون الافريقي كمـا يـرى ديكستـرى عمـومـا .

(206) نص العبارة هكذا : Truely this is a world for a city, and may rather second Grand Caire than subjoyne itselfe to Constantinople, being farre superior in greatnesse with Aleppo.

(207) لعله يريد بـذلك ما كان ، ومـا زال في بعض الجهـات ، يعـرف باسـم «بـوجلـود» .

(208) لا ندري مـن يعني بهـذا الاسـم .

(209) الكلمـة هكـذا Pagans وهو يعينا بهـا .

(210) ذكر ابن سينا وأبي معشر خلط من الكاتب .

(211) عملة تركية مثل ماجيـدى نسبة الى عبد المجيد ، ومثل ما كـان معروفـا عندنا بالحسني نسبة الى مولاى الحسن (الاول) ويماثل سلطاني كلمة ريـال التي كانت في أصلها نسبة الى Rey الاسبانية .

(212) ورد الاسـم هكـذا : Sylda ?

(213) هكـذا Ahetzo ولا ندرى مـوقـع ذلك .

(214) Agaroes فلعلـه يريـد بذلك أجـربس Agaroes قبيلـة تسكـن بصحـراء افريقيـة (عن المعجـم الجغرافى العالمى لفـرنـنـدو فيبالبا وروبيـو (Fernando Villalba y Rubio) .

(215) منشـورة بـديكستـرى للـجـزء الثـانـى مـن السلسلـة الانجليـزيـة 491 — 499 .

محمد ابراهيم الكتاني

العثور على خمس مخطوطات من (البيان المغرب) بمكتبة القصر الملكي بالرباط لم تكن معروفة من قبل .

اثناء تنظيمنا لمكتبة القصر الملكي بالرباط ـ وجل مخطوطاتها مما نقل اخيرا من فاس ـ عثرنا على خمس نسخ من (البيان المغرب) لابن عذاري لم تكن معروفة من قبل لدى الباحثين .

وقد اصبحت تحمل ـ بعد التنظيم ـ الارقام التالية :

334 ، 336 ، 777 ، 2150 5212 .

فأما رقم 334 فقد كان ـ عند العثور عليه ـ في مجلد واحد ضخم يضم :

1) الجزء الاول : ويتناول تاريخ المغرب العربي منذ الفتح الاسلامي الى قيام دولة المرابطين ، وفي اوله : قال الشيخ الاجل ، الاثير الاكمل، الراوية المطلع الحسيب الافضل ، ابو العباس احمد بن محمد بن عذاري ، رحمه الله : (الحمد لله مصرف الاقدار ... الخ) ويقع في 58 ورقة وعلى اول ورقة منه تملكان احدهما مؤرخ سنة 1262 هـ .

2) الجزء الثاني : ويتناول تاريخ الاندلس الى موت المنصور ابي عامر وجاء في اخر الجزء الثاني : كمل السفر الاول ! بحمد الله تعالى وحسن عونه ، وتوفيقه الجميل ويمنه . ويقع في 69 ورقة .

3) جزء اخر كتب على اوله : السفر الثالث ـ وهو الاخير ـ من البيان المغرب في اخبار ملوك الاندلس والمغرب ، وزاد كاتب اخر بقلم مغاير كلمة ! افريقية ، بين الاندلس والمغرب ، تاليف الشيخ الاجل ، الاثير الافضل الراوية المطلع الحسيب الاكمل ، ابن العباس احمد بن محمد ابن عذاري ، رحمه الله امين .

واول هذا السفر الثالث : (اختصار الخبر بحركة تاشفين الى الجبل برسم قتال الموحدين ... الخ) وينتهي بذكر مقتل ابي دبوس 668 .

وفى آخره : انتهى ما وجد من السفر الاخير من البيان المغرب ، فى اختصار أخبار ملوك الاندلس والمغرب ، لأبى العباس احمد بن محمد ابن عذارى رحمه الله ، بحمد الله حمدا كثيرا ، وصلى الله على نبيه المبعوث بشيرا ونذيرا .

ويقع هذا السفر الثالث فى 118 ورقة وتختلف سطور أوراقه بين 28 و 29 وهو بخط مغربى متوسط ملون العناوين بالاحمر ، وبهوامشه توقيفات وتعاليق وقد خرقت الارضة بعض صفحاته .

وكل من السفر الاول ـ بجزأيه ـ والسفر الثالث ، خال من تاريخ النسخ ومن تسمية الناسخ .

وجميع هذه الاقسام بخط واحد وحجم واحد ، طول 28 س عرض 21

ويلاحظ ان تسمية الكتاب وردت ثلاث مرات فى هذه النسخة : فى مقدمة الكتاب أثناء كلام المؤلف ، وعلى اول صفحة من السفر الثالث وفى اخره وكلها فيها : (البيان المغرب) ـ بالغين المعجمة ، ـ ولكن كاتبا اخر عمد كل مرة الى جعل نقطة الغين سكونا تتحول به الغين المعجمة الى عين مهملة ! كما يلاحظ ان الكاتب يستعمل عبارتين مختلفتين : سفر وجزء ، فالسفر الاول ينقسم الى جزئين ، والسفر الثالث ، ومعنى ذلك ان هناك سفرا ثانيا بين السفر الاول والثالث ، غير موجود ، وهو بالطبع غير الجزء الثانى من السفر الاول . فاذا رجعنا الى مقدمة المؤلف التى كتبها بعد الفراغ من تاليف الكتاب ـ وجدناه يذكر انه جزأ الكتاب ثلاثة اجزاء كل جزء منها قائم بنفسه :

الجزء الاول فى تاريخ المغرب العربى من الفتح الاسلامى الى حين ابتداء الدولة اللمتونية المرابطيه .

الجزء الثانى فى اخبار الاندلس من الفتح الاسلامى الى سنة 478 ثمان وسبعين واربعمائة .

الجزء الثالث فى اخبار المغرب العربى والاندلس منذ ابتداء الدولة المرابطية الى عام سبعة وستين وستمائة .

ويتضح من هذه المقارنة بين ماذكره المؤلف فى المقدمة وما هو موجود فى هذه النسخة :

1) ان الجزء الاول من السفر الاول يتفق مع ما ذكره المؤلف في المقدمة .

2) وان الجزء الثاني من السفر الاول هو القسم الاول من الجزء الثاني .

3) وان بقية تاريخ الاندلس من موت المنصور بن ابي عامر الى سنة 478 وتاريخ المرابطين لا يوجدان في هذه النسخة ، فلعل احد النساخ غير تجزئة المؤلف فاضاف القسم الاول من السفر الثاني الى الجزء الاول ، واضاف القسم الثاني من الجزء الثاني الى القسم المتعلق بالمرابطين من الجزء الثالث وكون منهما السفر الثاني ولكن مجلد هذه النسخة لما لم يجد هذا السفر الثاني اكتفى بتجليد السفرين الاول والثالث مع بعضهما !

واذا نحن رجعنا الى ماهو معروف من نسخ أجزاء (البيان المغرب) نجد :

1) ان السفر الاول الذي طبعه دوزي بليدن 1848 و 1849 ثم اعاد طبعه بروفا نصال وكولان 1948 و 1951 يتفق مع هذا المخطوط في انه هو ايضا يتكون من جزءين ، وينتهي الجزء الثاني منهما بموت ابن ابي عامر ، وفي ءاخره انتهى السفر الاول !

2) ان الجزء الثالث الذي عثرنا عليه بتا مكروت يبتدىء هو ايضا ـ مثل السفر الثالث من هذا المخطوط ، باختصار الخبر بحركة تاشفين الخ) كما تتفق في هذا ايضا نسخ مكتبة القصر الاربع الآتية .

3) ان الجزء الذي طبعه ليفي بروفنصال بباريس سنة 1930 عن مخطوطة فريدة عثر عليها بفاس متضمنا تاريخ الاندلس من موت المنصور بن ابي عامر الى سنة ستين واربعمائة 460 وسماه الجزء الثالث ! هو القسم الثاني من الجزء الثاني من تجزئة المؤلف ، وينقصه ما يتعلق بتاريخ الفترة التي بين سنتي 460 ـ 487 .

4) وان القطعة المتعلقة بتاريخ المرابطين والتي نشرها المستشرق الاسباني امبروسي ويثي ميراندا سنة 1961 في مجلة اسبيريس تمودا التي تصدرها كلية الآداب بجامعة الرباط عن مصورة للمخطوطة الفريدة ـ المبتورة الاول ـ التي كانت بخزانة جامعة القرويين بفاس والتي كان استعارها بروفا نصال ولم يردها ، تكون قطعة من الجزء الثالث ـ حسب تجزئة المؤلف التي اشار اليها في المقدمة ـ وقد تكون قطعة من السفر الثاني حسب الفرض الذي اشرنا اليه .

والخلاصة انه لا تزال تنقصنا القطعة الخاصة بتاريخ الاندلس فيما بين 460 ـ 478 كما تنقصنا اوائل القطعة المتعلقة بالمرابطين . لتتم لنا نسخة كاملة من الكتاب .

2) واما رقم 336 فيوجد منه الجزء الثالث فقط ، ويتفق مع النسخة السابقة في الابتداء بحركة تاشفين الى الجبل ، وفي الانتهاء ، بمقتل ابي دبوس 668 .

وبآخره : انتهى بحمد الله تعالى وحسن عونه ، وصلى الله على سيدنا محمد وسلم ، وكان الفراغ منه بين صلاة الظهرين من يوم الاثنين 20 شعبان 1165 .

وهو خال من تسمية الكتاب والمؤلف ، سواء في اوله او ءاخره او على اول صفحة منه ، كما انه خال من تسمية الكتاب وتاريخ النسخ ، ويقع هذا الجزء في 230 ورقة ، وهو بخط مغربي جميل ، مذهب وملون ، وفيه بياض في صفحتين ، طول 28 س عرض 19 سطوره 21 .

3) واما رقم 777 فيوجد منه ايضا الجزء الثالث فقط ، وقد كتب على الصفحة الاولى : السفر الاخير من البيان المعرب ، في اخبار ملوك المغرب ، ثم أقحم كاتب ءاخر كلمة (الاندلس) بين ملوك والمغرب تاليف ابي العباس احمد بن محمد بن عداري رحمه الله ورضي عنه ، وكتب كاتب ءاخر بجانب تسمية الكتاب ما يلي : كان مؤلفه في قيد الحياة سنة 712 .

ويلاحظ ان (المعرب) في هذه النسخة بالعين المهملة ، وكذلك الدال في اسم المؤلف غير معجم .

وهذه النسخة تتفق مع النسختين السابقتين في الابتداء وفي الانتهاء ، ولكنها خالية من التنصيص على انتهاء الكتاب ، ومن تسمية الناسخ وتاريخ النسخ !

وهي نسخة مغربية قديمة ملونة .

ويقع هذا السفر في 182 ورقة طول 29 س عرض 21 ونصف سطوره 32

4) واما الرقم 1250 فيوجد منه الجزء الثالث فقط ايضا ، ويتفق مع النسخ الثلاثة السابقة في الابتداء وفي الانتهاء .

وهو خال من تسمية الكتاب والمؤلف ، سواء في الاول او الآخر او على اول صفحة منه ، كما انه خال من تسمية الناسخ ومن تاريخ النسخ، وهو امشه خالية من اى تعليق او تصحيح او توقيف ، وعلى اول صفحة منه تملك سيدي محمد بن امير المومنين) اواخر جمادى الثانية 1138 وسماه كاتب التملك المجلد المشتمل على اخبار الموحدين !

وهو في 232 ورقة ، بخط مغربى جميل ، ملون العناوين ، ولكن الخط تغير في الاخر عنه في الاول . طول 29 عرض 22 سطور 23 .

واما رقم 5212 فاوله : اختصار الخبر بحركة تاشفين ... الخ وينتهى بمفتتح عام 668 وفيها البياضات التى فى اواخر النسخ الاخرى وهى نسخة حديثة فى الجملة في حجم رباعى ، خالية من تاريخ النسخ ومن تسمية المؤلف والناسخ . وكتب اسم الكتاب بخط مغاير لخط الكتاب هكذا : «البيان المعرب فى اختبار (كذا) ملوك المغرب . وقد فتكت الارضة بالورقتين الاخيرتين

وهكذا تتفق النسخ الاربع الاولى مع نسخة تامكروت (1) فى اعتبار هذا الجزء الثالث لا ـ القطعة التى طبعها بروفانصال ـ كما تتفق النسخ الخمس مع نسخة تامكروت في الابتداء بحركة تاشفين الى الجبل، وان كانت نسخة تامكروت تنقصها الورقات وتتفق النسخ الخمس فى الانتهاء الاخيرة .

وتتفق الارقام : 336 و 2150 و 5212 مع نسخة تامكروت في عدم تسمية الكتاب والمؤلف ويتفق الرقمان 334 و 777 فى تسمية المؤلف بابى العباس احمد بن محمد بن عذارى ويختلفان فى ان 334 فيها الذال معجمة و 777 فيها الدال مهملة .

---

(1) راجع وصف نسخة تامكروت فى اول الجزء الذى طبعته كلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط وساهم في اخراجه : المستعرب الاسبانى ويثي ميراندة ومحمد ابن تاويت التطوانى ومحمد ابراهيم الكتانى ، ص. 8 ـ 9

محمد بن تاويت

بلغة الامنية ومقصد اللبيب
فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من
مدرس واستاذ وطبيب

وهذا كتاب آخر يتعلق بسبتة . ننشره بعد ما نشرنا كتاب اختصار الاخبار عما كان بثغر سبتة من سنى الاثار . وقد اعتمدنا فى نشره على مخطوطتين ، احداهما محفوظة بقسم المخطوطات من الخزانة العامة بالرباط في مجموع كان بالخزانة الكتانية وقد اختلطت اوراق هذه النسخة باوراق من مخطوطة اخرى من كتاب السلسل العذب للحضرمى وتنقصها اوراق من اولها وآخرها .

والثانية تبتدىء من منتصف الترجمة الرابعة التى هى لعبد الله بن عبد المنعم . وذلك عند ابن خميس قال وكان له الخ . وهذه المخطوطة للسيد اليزيد ابن صالح ، ضمن مجموع يضمها والجزء الاول من شرح الحماسة لابى عبد الله محمد ابن زاكور وقد هدانا الى ان الكتاب ، هو ما ذكر بعنوانه سلفا ما هو مثبت اخر المخطوط حيث ذكر انه وجد بالاصل المقيد بهذه الورقات مانصه كمل المختصر الموسوم ببلغة الامنية فى يوم الخميس الحادى والعشرين لشعبان المكرم من عام اربعة وعشرين وثمان مائة والحمد لله حق حمده وصلى الله على سيدنا محمد ورسوله وعبده وعلى آله المؤمنين بعدهما وجد كما وجد ، وما هو منقول عنه بنصه فى بعض التراجم (I)

اذن فالكتاب هو «بلغة الامنية» كما ذكر فى النسخة التى انتهى من نسخها بعد أربع سنوات من الانتهاء من تاليف الكتاب وكما يدل ما ورد فيه من ذكر المدرسين والاساتذة والاطباء على انه مقصد اللبيب فيمن كان بسبتة فى الدولة المرينية من مدرس واستاذ وطبيب ، فان أولئك المذكورين فيه بتراجمهم كلهم عاصروا الدولة المرينية ، وبعد هذا كله ، النقل الوارد بنصه عنه .

وفي نهاية المخطوط المذكور يذكر انه احتوى على سبعة واربعين رجلا وامرأة واحدة .

ومعنى هذا انه سقط مما بيدنا من مخطوط خمس تراجم للرجال

وبقي ان نتساءل من هو مؤلف بلغة الامنية هذه .

ويجيبنا بعضهم بانه نفس مؤلف كتاب اختصار الاخبار المذكور ويرى آخرون انه الحضرمي صاحب الكوكب الوقاد .

ولعلهم في هذه النسبة ، يستانسون باشياء ، منها ان الكتابين معا ، يحيل مؤلفهما على كتابه الكواكب ، وان الانتهاء منه متقارب التاريخ ، فهذا كما تقدم كان الانتهاء منه سنة عشرين بعد الثمانمائة ، والاخر كان سنة خمس وعشرين بعدها ، وان كثيرا من اولئك الذين ترجم لهم في هذا الكتاب ، ذكر لهم قبورهم أو مزاراتهم في كتابه الاخر ، مثل الوادي لاوي ، وابن وشاش ، وابن مسلم القصري وابي عثمان الانجري ، وابي عبد الله بن خميس

ولما ذكر الكواكب في ترجمة ابن وشاش كتب في طرة ابن صالح عليه : «الكوكب الوقاد في من دفن بسبتة من الفقهاء والزهاد» فالكوكب الوقاد والكواكب اسمان لمسمى واحد ، بل هي اسماء عديدة .

ويعارض هذا ، انه نص في كتابه الاختصار على ان كتاب الاعلام ـ في تراجم علماء سبتة ـ من جملة كتبه التي الفها ، كما ذكر منها آخر هو (بغية السامع) ولم يشر بالمرة الى كتابنا الذي بأيدينا ، (2) مع انه متقدم التاليف عن ذلك ، بل انه ذكر فيه ان ابن خميس ، هو مؤلف كتاب الاعلام

فهل هناك كتابان بهذا العنوان ، اشتركا كلاهما في موضوع واحد ؟ (3)

هذا بعيد كما نرى

والنتيجة التي انتهينا اليها هي

ان الكتاب ، بلغة الامنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس واستاذ وطبيب ، وان هذا الكتاب ، تنقصه من تراجمه خمس على الارجح ، كما تنقصه مقدمته ، التي نظن ان اسم الكتاب قد ذكر بها وان مؤلف الكتاب ، لا يمكن حتى الان ان يقطع بكونه هو مؤلف كتاب اختصار الاخبار عما كان بثغر سبتة من سني الاثار ، وهو محمد بن القاسم ابن محمد بن محمد بن احمد بن عبد الملك الانصاري السبتي .

وبعد فهذا ما عثرنا عليه من الكتاب :

ابو علي ابن رشيق الثعلبي مرسي عالم مصنف بارع الخط شاعر نزل المرية وخدم لاميرها من بني الاحمر الرئيس ابي الحسن علي بن يوسف ابن نصر ولاخيه الاصغر ابي عبد الله محمد من بعده ثم انتقل عنها الى سبتة فولي قضاءها لابي القاسم العزفي وتوفي بتازى من بلاد المغرب ودفن يوم الاربعاء تاسع المحرم سنة ست وتسعين وستمائة في وفد اهل سبتة المتوجه للقاء السلطان ابي سعيد بن ابي يوسف ومرض جل ذلك الوفد بالحما ومات منه من قضى الله عز وجل بوفاته وذكره ابن خميس في الاعلام .

ابو عبد الله بن هاني اللخمي الشهيد سبتي عالم منصف شاعر بارع الخط وكان موضع اقرائه بمسجد القفال من سبتة فكان رضي الله عنه يدير ظهره الى جدار القبلة من بعد صلاة الصبح ويمشي دولة اثر دولة في الفنون العلمية الى ان تزول الشمس وفي بعض الاوقات يقول له الطلبة ياسيدي هذه جنازة قد اتي بها فينصرف وكان كبار طلبته اذا فرغ احدهم من الفن الذي اعتاد قراءته عليه يقوم منصرفا الى مسجد فيدرس به العلم ولما هم الطاغية بحصر جبل الفتح اجتاز اليه من سبتة فاستشهد في حصاره بحجر منجنيق اصاب بعض راسه وكتفه فاوقص عنقه ومات بتيسير (4) ودفن بالجزيرة الخضراء بروضة بني خمسين في آخر ذي القعدة عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة رحمه الله ونفع به .

ابو عبد الله بن عبد المنعم الصنهاجي سبتي حافظ للغات العرب متفنن يقول الشعر واتفق له انه توجه الى حضرة فاس في وفد اهل سبتة في ايام السلطان ابي الحسن وكان قد تقرر لديه حفظه فذكر ذلك لبعض كتبته فاراد الكاتب ان يغض منه فقال له نصركم الله ان الرجل يحفظ لغة حوشية وان شئت ان تعرفها عنده فاخترع له اسما وسله عن معناه فقال له السلطان وما يكون الاسم فقال يامولاي سله عن التمر كل (5) ففعل فقال مجيبا هو التلفع في الكساء واستشهد له عليه بشواهد للعرب فعرف السلطان مكانته من الحفظ وقام الدليل عنده على ذلك رحمه الله **وحدثني عنه الشيخ** الحسيب العدل ابو عبد الله الزيات رحمة الله عليه انه كان يقرىء الطلبة في المجلس الواحد دولا في علوم شتى قال وآخر ذلك دولة في الطب قال فكنت ارى بعض الطلبة ممن طال به المجلس خارجا من المسجد ويدخل اليه اصحاب العلل والزمنى (6) شيوخا وكهولا لحضور دولته الطبية وذكره ابن خميس قال وكان له قيام على الاصول

والنحو وسوى ذلك قال وكان يحكم قراءة كتاب سيبويه اتم احكام ويستظهر شواهده كلها ويطرح ما عداه من مصنفات فنه (7) قال وكان يقدم صحاح الجوهري على سواها من كتب اللغة ويستظهر شواهدها ايضا ويقدم جواهر ابن (8) شاس في الفقه على غيرها من كتبه وانسيت ما قاله في اختياره من كتب الاصول قال ويذكر عنه انه اكل البلاذر في صغره وتلقيت انا ممن اثق بحديثه من جلة اصحابنا الطلبة انه اخذ البلاذر ونقعه في الماء مع القمح حتى سرى فعله اليه واطعم ذلك الحب دجاجة ثم انه ذبحها وطبخ لحمها ووقف في صهريج مملوء ماء عريانا واكل اللحم وشرب المرق على تلك الحالة قال وان جسده ليشتعل من شدة حرارته قال فكان (9) دابه بعد ذلك السؤال عن مقتضيات الالفاظ والبحث عن معانيها وتاويلها قال فبقي على ذلك مدة ثم اعتدل مزاجه وتنبل عقله واشتد حفظه قال ابن خميس ويذكر عنه انه كان يلعب الشطرنج في حال صغره ظاهرا ويغالب فيه الاقوياء من قبله وكان موضع اقرائه بالمسجد الذي بازاء زقاق الفضل على المصر الاعظم ، وتوفي رحمة الله عليه بسبتة في احد شهور عام خمسين وسبعمائة ، وقد ذكرناه في الكواكب .

ابو عبد الله بن هارون الاموي استاذ المدرسة الجديدة سبتي متفنن في المعارف بارع الخط مصنف شاعر وهو من مشيخة شيخنا الخطيب الصالح ابي عبد الله بن عدل الكناني نفع الله به وكان ابن هارون هذا زوجا (10) لخالته وتوفي سنة خمسين وسبعمائة رحمه الله .

ابو عبد الله ابن (11) **خميس** الانصاري الجزيري الخطيب بجامع سبتة متفنن مصنف بارع الخط شاعر وتوفي بسبتة سنة خمسين في الوبا وقد مر التعريف به في الكواكب وهو صاحب الاعلام .

ابو عبد الله الزرعي الجذميوي السبتي التاريخي الحافظ امام متصرف شاعر بارع الوراقة مصنف وتاريخه في نحو من اربعين سفرا مرتب على حروف المعجم في اخبار العلماء والادباء والتعريف بهم وفي ضمن ذلك من بليغ النظم والنثر والحكايات والفوائد والنذرات (12) مالا يوصف وكان موضع اقرائه بمسجد مقبرة زجلو (13) وفي سماط الموثقين الذي بازاء المسجد هناك كان يعقد الشروط وكان من اصدقاء ابي القاسم التجيبي ولا اتحقق الان تاريخ وفاته .

واخوه المكتب هو احد الوراقين المشهورين ببراعة الخط بسبتة رحمة الله عليهما .

ابو القاسم التجيبي السبتي الحاج الراوية صاحب الرحلة المذكورة آنفا محدث ناقد للاسانيد (14) حسن الخط متقن للضبط ويقول الشعر وكان السلطان ابو سعيد يعظمه ويجله وخرج له من مروياته اربعين حديثا في فضل الجهاد والحث عليه وتوفي بسبتة عام ثلاثين وسبعمائة ودفن بالميناء وذكر لي الشيخ ابو عبد الله الزيات انه كان يقعد لاسماع الحديث بمسجد زقاق ابن الشراك (15) وخطه حجة عند من اعتمد عليه وذكره ابن خميس في الاعلام وقال هو ممن عرف بنسبه رحمه الله .

ابو عبد الله بن حريث العبدري امام الفريضة بجامع سبتة من اهلها فقيه مشارك صالح جليل القدر حسن الخط وهو الذي كان قدم الشيخ الفقيه الولي ابا الحسن بن وشاش للصلاة بالجامع المذكور حين هم بالتوجه الى المشرق وكان يقول في دعائه اللهم ابدلني خيرا من هذا الجامع وابدله خيرا مني فأجاب الله دعاءه وابدله من جامع سبتة امامة المسجد الحرام وابدل الله جامع سبتة ابا الحسن وتوفي بمكة شرفها الله تعالى قبل عام خمسين رحمه الله ونفع به

ابو الحسن ابن وشاش المذكور فقيه تقي ورع ولي من اولياء الله عز وجل اتى سبتة زائرا اليه الشيخ الولي ابو يعقوب البادسي (16) فلما التقى به بساحل بحر ابي السول (17) وسلم كل واحد منهما على صاحبه كر راجعا من حينه بعد ان عرض عليه الشيخ ابو الحسن النهوض معه فقال له ما الى هذا اتيت وقد حصل المطلوب وكان الشيخ الفقيه ابو الحسن الصغير يعظمه ويعترف له بالفضل ولقد استفتي في نازلة من سبتة فقال رحمه الله أتستفتوني وبين اظهركم اخي بالميناء وقد ذكرناه في الكواكب .

ابو عبد الله الغافقي سبتي وهو ابن الشيخ القاضي الاستاذ النحوي ابي اسحاق شارح الجمل استاذ المدرسة القديمة مدرسة الشيخ المحدث الرواية ابي الحسن الشاري (18) والناظر في كتب خزانتها العلمية الشهيرة (19) فقيه راوية مشارك حسن الوراقة كثير التقييد والاطلاع على الفنون العلمية وهو احد اشياخ الخطيب ابن عدل المذكور وتوفي قبل عام خمسين .

ابو القاسم بن عمران الحضرمي المقرىء سبتي حاج رحال مصنف راوية يحمل صحيح البخاري عن الحجار وهو سند عال متصل السماع لا نظير له في المغرب وله معرفة بالقراءات والعربية وكان ناظرا في خزانة الجامع الاعظم ايام كون الشيخ ابي الحسن ابن وشاش اماما به وممن اخذ عن ابن (20) عمران هذا الخطيب ابو عبد الله ابن خميس الانصاري والخطيب ابو عبد الله

بن عدل الكنانى وقاضى الجماعة بحضرة غرناطة وخطيبها ابـو الحسـن (21) ابن الحسن الجذامى المالقى الشهير بالنباهى شيخنا لقيـه بسبتـة سنة ست واربعين واجازه جميع مروياتـه واخذ عنه تاليفه المرسوم بالشافى فى اختصار التيسـير والكافى وكانت وفاته عام خمسين وسبعمائة .

ابـو عبـد الله بـن زيـد السمـار سبتى فقيه مشارك حسن الذات والهيئة والملبس تصـدر لكتب الوثائق بالسماط وقعـد للاقـراء بالمسجـد الاسفـل من زقاق ابى يحيى حيث كان سكنـاه ثـم تـرك ذلك كلـه واناب وتـزهـد وانتقـل الى لباس الخمـول والسعى فى طلب الحلال من وجوهه الجـائـزة فكان يسمـر الدواب ولا يتعـرض لتسميـر الخيل والبغال خشية ان يقصد بذلك الامـراء ولا يبالى فى تصرفـاته بـاحد وقـد صغـرت لـديـه النفس وهانت عليه وكان الشيخ الزاهد الورع الاشهـر ابـو عبد الله الحلفاوى مـن صلحـاء فـاس من اصحابه فلما علم حاله ومـا هـو عليـه مـن المجاهدة (23) والصبر استدعاه الى السكنى معه فانتقل اليه من سبتة باهلها وولده الى فاس واقام هنالك فى جواره الى ان توفى بها بعد خمسين وكان ربيبا لخالة والدى نفعـه الله ونفـع بـه .

ابـو محمـد الـزكـنـدرى (24) القاضى بسبتة والاستاذ بالمدرسة الجديدة منها ، مراكشى ذكى الطبـع حسن الهيئة ظريف الملبس فقيه محدث قرأ عليـه جماعـة من طلبة سبتة وانتفعوا بـه وهو احـد اشياخ شيخنا ابى محمد قاسم بن ابى حجـة تفقه فى كتاب مسلم بـن الحجـاج بـين يديـه بموضع اقرائـه من المدرسة المذكورة وكان يصفه بالحلـم والاغضاء ويذكـر مـن شانـه (25) وداره معروفة باعلى زقاق الوراق من سبتة وصرف عن قضائها فلحق ببلـده .

وكان فى طبقـة هؤلاء الفضلاء بسبتة ابن مدعينة (26) وموضع اقـرائـه مسجد مقبـرة زجلـو وابـن النكى ومـوضـع اقـرائـه مسجـد الغـزاليـن وكان يقـول انـا لا يقـرأ على أولا يحضر مجلسى الا مـن يكـون شاعرا خطاطا وكـان لا يتحلى بحليـة الطلبـة من الارتداء ومـا فى معنـاه ويقول اى شيء يزيـد هذا صاحبـه او فاعله يعنى اذا لـم تكن لديه معـرفـة . وابن قـاسـم النحوى وموضع اقـرائه مسجد رحبـة الوزان حيث كان يدرس الاستاذ ابـو بكـر بن عبيدة شارح جمـل ابى القاسم وهو شرح نبيل فى سفرين ، وابـن نبيل الحسابى ولـمـا قـدم السلطـان ابو الحسن سبتة نـزل عليـه الشيـخ الاصلى العلامـة الاعـرف المحقق ابو عبد الله الابلى العبدرى التلمسانى بداره من زقـاق ابن (27) عبد الله وهى معروفـة الى اليوم واخذ عن ابن نبيل هـذا

علم الحساب من اهل فاس الشيخ ابو العباس بن الشماع احد اشياخ شيخنا القاضي الشريف ابى بكر الحسنى رحمه الله .

الطبقة الثانية (28)

ابو عبد الله بن بيش العبدرى (29) نحو لغوى حافظ راوية لقيه شيخنا القاضي ابو الحسن رضا ابن رضا من اهل الحمة بسبتة فى عام اثنين وخمسين وسبعمائة وأجازه والوزير ابو عبد الله بن الخطيب بدار الانشاء منها وذكره فى الكتيبة الكامنة وساق من نظمه هناك رحمه الله وكان موثقا وموضع اقرائه مسجد زقاق الفضل وعليه قرا الشيخ ابو عبد الله بن الاصفر النحوى .

ابو عبد الله عامر الانصارى استاذ المدرسة الجديدة المذكورة وخطيب جامع الربض الاسفل سبتى امام فى العربية والاصول وسوى ذلك من الفنون كاتب بارع الخط ناظم ناثر قرا عليه جماعة من كبار سبتة وصدور طلبتها وانتفعوا به وكان وجيها عند السلطن ابى عنان وتوفى بالينبوع من الحجاز الشريف منصرفه من الحج عام خمسة وستين وسبع مائة (30) رحمة الله عليه

ابو عبد الله الجناتى فقيه مفتى حافظ مشهور ولى قضاء سبتة والتدريس بمدرستها بعد الاستاذ ابى عبد الله بن عامر وتوفى فيما اظنه عام ثمانية وسبعين

ابو عبد الله الوادى لاوى السعيدى الغمارى فقيه متفنن يقول الشعر حاج شديد الورع ولى صاحب كرامات وفضايل من ذلك انه اخبر رجلا (31) ان عمره يطول فعاش الرجل بعد ذلك سنين كثيرة ومات وقد ناهز المائة وهو سالم السمع والبصر محفوظ القوى لم ينتقص منه شىء عاينته على ما وصفته هنا ومن ذلك انه راى فى المرض الذى توفى منه مكتوبا فى طرفردائه يافلان اعمل على لقاء الله فقال لاهله الان نعيت الى نفسى ومن ذلك انه كان شديد الايثار للشرفاء والتعظيم لهم وله فى ذلك خبر معروف اودعناه تاليفا المسمى بالكواكب وكان يرى النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه ليلة كل جمعة وما ذلك الابركة تعظيمه لاهل البيت نفعنا الله بمحبتهم ومما يوثر عنه انه حضر بعض المجالس الفروعية بسبتة فرافى المدرس (32) يتكلم على قول ابى سعيد البراذعى (33) فى التهذيب لم يوقت ملك المسئلة فلما اخذ يتكلم فى الاعتراض الوارد على قوله وقد

اختلفت الاثار في التوقيت وبلغ ما نقله عبد الحق في ذلك وهو اول مسئلة اختصرها ابو سعيد في كتابه اخطأ في نقلها قام من فوره فقيل له في ذلك فقال هذه غيبة وهذا لايحتاج اليه وصدق رضي الله عنه اذ لم يزل الشراح يتلطفون في الرد ويخرجونه على احسن الوجه مثل يريد أو انما اراد او انظر كلامه في غير هذا الموضع الى غير ذلك رحمة الله عليهم وكان يدرس المدونة في مسجد مقبرة زجلو ويتحرى نقل الشيوخ فكان الطلبة يمسكون الشروحات بين يديه ويملي هو من حفظه كاللخمي وابن يونس والمقدمات وما في معنى ذلك وكان مولعا بالرمي ملازما للرباط وتوفي رحمه الله ونفع به بقرية بنيونش في اواسط ذي الحجة عام اثنين وسبعين ودفن بالمنية

ابو محمد ابن مسلم الانصاري القصري قاضي سبتة واستاذ مدرستها وخطيب القصبة بها فقيه مقرى راوية حاج رحال كثير الاطلاع والاجتهاد في نشر العلم والتقييد لمسايله وله شرح على رجز ابن برى وتقييد على جمل ابى القاسم وبرنامج جمع فيه مشيخته ومروياته اخذ عنه من اشياخنا القاضي ابو الحسن بن رضا المذكور والعدل ابو عبد الله القمارشي السبتي وكان مهيبا مغلظا على الظلمة وتوفي رحمة الله عليه في ذى الحجة عام ثلاثة وسبعين

ابو عبد الله الطرطوطي نزيل مالقة حافظ متفنن فقيه درس العلم كثيرا بسبتة بمسجد مقبرة زجلو وغيره وجال في العدوتين واشتهر في البلاد وكان مقداما رابط الجاشي وتوفي رحمة الله عليه بمالقة خطيبا بربضها عام سبعة وستين تخمينا لا يقينا

ابو عبد الله بن المجراد الفنزاري (34) السلوى محدث حافظ راوية له معرفة بالرجال والمغازى والسير وكان رجلا صالحا حسن السريرة صادق اللهجة وانتفع به الناس وظهرت بركة نيته الصالحة على كل من عرفه او لازم مجلسه او قرأ عليه من صغير وكبير وذلك معروف عندنا بسبتة مشهور رحمه الله وهو احد اشياخ شيخنا الخطيب ابى عبد الله بن عدل وتوفي ببلده . سلا في حدود عام ثمانية وسبعين نفع الله به

ابو عثمان الصنهاجي الانجرى امام المدرسة فقيه مفتي مقيد مجتهد وكان يدرس الفقه والحديث بمسجد القفال وبالجامع الاعظم اثر صلاة الجمعة وسما قدره بسبتة واحتاج الناس اليه وخرف آخر عمره الى ان توفي وقد نيف على التسعين في المحرم سنة تسع وثمانين رحمه الله

ابو العباس التاميسي استاذ المدرسة المذكورة نحوى فرضي حسابي متفنن وكان صدرا من صدور سماط الموثقين ببلده سبتة مقدما في تلك الطريقة مع وقار وحسن سمت وقد ذكرناه في الكواكب وكانت وفاته في الطاعون النازل بسبتة سنة ثنتين وتسعين وقد قارب السبعين من عمره ودفن بالمنية

ابو العباس احمد بن الشيخ الصالح المكتب ابى الحسن على الشريف الحسيني سبتي جليل القدر نحوى مشارك وكان يقوم على الفية ابن مالك قياما حسنا رحمة الله عليه

ابو عبد الله المهنى الشاعر نحوى وكان موضع اقرائه بمسجد القفال وتوفى بمدينة فاس وقد بلغ من السن خمسا وتسعين سنة فى اواخر المائة الثامنة عفا الله عنه

ابو الحسن الانجرى فقيه صالح كثير العبادة لا يبالى باحد ولا على اى حالة يكون من لباس وغيره يرصد الخلوات فكان ياوى فى اكثر الاوقات فى الربطة التى بالسوانى من اعلا زقاق شوار الاسفل وفى قالة البسابس (35) من ناحية الحافة ويلتقط البقل من المزابل ويتصدى لغير المناكر والاغلاظ على اهل الباطل وكان يدرس الفروع بمسجد مقبرة زجلو ومسجد زقاق الحرة وبجامع التبانين من الربض الاسفل وكان جهير الصوت شديدا فى دينه موسوسا فى الطهارة وفى عقد النية فى صلاة الفريضة وتوفى بفاس فى ربيع الاول عام اربعة عشر

ابو عبد الله بن الاصفر شيخ صالح نحوىمن اهل سبتة وكان يقرأ عليه اولاد اكابرها وكف بصره •اخر عمره

ابو سرحان الزواوي نحوى اصلى له مشاركة فى الفقه وعمل الفرائض ورد على سبتة فتصدر للاقراء بمسجد القفال منها ثم ولاه السلطان ابو العباس المخلوع قضاها والتدريس بمدرستها حين عودته الى المغرب واستقراره بدار ملكه ثم صرف عن ذلك كله فلحق ببلاد الاندلس فدخل غرناطة ولقى اعلامها وولى خطابة المنكب مدة ثم عاد الى المغرب فاوطن تازى الى ان توفى بها فى احواز عام ثلاثة رحمه الله

ابو عبد الله البطيئي اللخمى المكتب نحوى وكان موضع اقرائه بالمسجد المحاذى لزقاق الفضل وبالمسجد الاعلى من زقاق ابن عيسى وكان مجتهدا فى طريقته ناصحا فيها وكان الامراء وذوو الاقدار يقصدونه باولادهم

واستظهر عليه القرءان الكريم جماعة كبيرة من طلبة سبتة بحسن نيته رحمة الله عليه وتوفي عام اثنين وتسعين وقد مر ذكره في الكواكب

ابو عبد الله العباسي الخطيب بجامع «افراك واختطب بجامع القصبة من بني العباس بن عبد المطلب نحوي نجب عليه جماعة من طلبة بلده سبتة وموضع اقرائه مسجد رحبة الوزان وحضرت عليه آخر امره بمسجد القاضي ابي الفضل عياض وكان الشيخ العباسي هذا يسكن بدار القاضي المذكور وتوفي عن سن عال وقد ذكرنا ذلك في الكواكب

ابو يوسف يعقوب القصري المجكسي شيخ صالح متقشف عارف بالقراءات السبع مخالط للعربية قدم على سبتة واقرا بمسجد القفال منها وكان فصيح اللسان حسن الالقاء والتعليم وكانت العامة تجله وتعظمه وتتبرك بصالح دعائه وتوفي ليلة الخميس الرابع عشر لجمادى الاخرى من عام اثنى عشر رحمه الله

ابو العباس الشعار استاذ مسجد مقبرة زجلو نحوي لغوي مقرىء كاتب شاعر متفنن بارع الخط حضرت اقراءه في التفسير لكتاب الله عز وجل واحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم والفقه والتصوف كاحياء علوم الدين لابي حامد الغزالي ورعاية المحاسبي وسوى ذلك ومن العربية والاداب المجمل والفية ابن مالك والجزولية ومقامات الحريري وتدربت في الاعراب بين يديه في اشعار الستة الجاهلية وشعر ابي الطيب المتنبي وغير ذلك وكان له تقدم في القراءات ومعرفة برسم المصحف رحمه الله وهو مذكور في الكواكب وهناك تاريخ وفاته

ابو محمد قاسم بن ابي حجة الانصاري استاذ المدرسة الجديدة بعد ابي العباس التاميسي سبتي شيخ (36) عالي الهمة حسن الشارة جميل الوجه ذكي الطبع فصيح الكلام متقدم في المحافل فقيه محدث صوفي فرضي حسابي مشارك في اصول الدين والنحو والتاريخ ماهر في علم التعديل كاتب موثق حسن الخط نسخ كثيرا وقيد واجتهد ورحل الى المشرق حاجا فادى الفريضة وجاور بمكة شرفها الله ولقي الناس وذاكر العلماء وكان متواضعا سليم الصدر ناصحا مشفقا سريع العبرة يسرد الصوم وله أوراد مرتبة من الليل من صلاة وقراءة حضرت عليه رحمه الله دروسا من التفسير بمسجد العطار الذي باعلا زقاق بير الخير وهو المسجد الذي كان يؤم به المولى الزاهد ابو الحسين بن الصائغ وفي الفقه والحديث

والعربية بالمدرسة حيث رسم اقرائه وكان متوددا للطلبة مباسطا لهم حسن التعليم والالقاء حريصا على الافادة نفعه الله وتوفى بفاس مغربا عن وطنه سبتة فى ذى الحجة عام اثنين وثمانمائة

(37) **ابو القاسم محمد الأنجرى** ولد بسبتة ونشأ بها وقرا على شيخها امام الفريضة بالمدرسة الجديدة بعد ابيه الشيخ الفقيه ابن عثمن المتقدم الذكر فقيه حافظ يستظهر ابن الحاجب الفرعى نبيل متوقد الذهن فصيح اللسان رابط الجاش وكان يدرس بمسجد القفال الفقه والحديث والعربية واشعار العرب اما قراءته لكتاب مسلم بن الحجاج فلا يقرع سمعك مثلها كان رحمه الله ينص اكمال القاضى أبى الفضل حرفا حرفا وكذا سير (38) ابن اسحاق بفصاحة منطق وحسن القاء من غير توقف ولا تلعثم ولا ترجيع ولا تكرار الا ان يقصده يسمع الدانى والقاصى من غير اخلال بحرف ولا تغيير لمعنى وان دق وأما اقراؤه لعقيدة الرسالة لابن ابى زيد فمثل ذلك من استيفاء كلام الاصوليين وحسن العبارة ورفع الابهام وازالة الاشكال وحل المقفل وكذلك كلامه على سائر ابواب الفقه (39) وعلى هذا النحو من الاقراء كان ختمه للكتابين وكانت عنده قوة حافظة يحصل بها ما ينصه من ذلك لاول وهلة واقرب وقت وكان فى اول امره كثير الحركة مباشرا لأمور أزعجته عن بلده فلحق بالمغرب وتجول فى بلاده ثم اجتاز الى الاندلس فى ايام السلطان الشهير ابى عبد الله محمد بن يوسف ابن الاحمر فدخل غرناطة ولقى مشيختها وقرأ عليهم واجازوه كالأستاذ المفتى الاعرف أبى سعيد بن لب والشيخ المحدث أبى عبد الله الحفار والقاضى أبى عبد الله بن بكر وسواهم وكتب له كل بذلك خط يده ثم عاد الى سبتة واجتمع بها باهله وولده فتقدم للصلاة بالمدرسة الجديدة وتصدر للاقراء بمسجد القفال حسبما ذكرناه ولزم حانوته بالموثقين فكان بها فى عيش رغد ونعمة تامة ومكانة لدى اميرها الى ان اصابه ناصور بين السبيلين وتفاحش داؤه فالزمه ذلك الفراش مدة من نحو سنة فحسنت لاجل ذلك طول تلك الايام حاله فكان يبعث الى من وقع بينه وبينه كلام او شيء فيتغافر معه ويبكى لم يزل ذلك دأبه فى زمانته الى ان توفى فى العشر الاخر لشهر ربيع الاول عام ثلاثة وثمان مائة وقد نحل جسمه ورق عظمه نفعه الله ودفن بمقبرة احجار السودان حيث قبر الولى ابى مروان اليحانسى جعل الله اجورنا تحت العافية بمنه

ابو العباس القباب الجذامى القاضى من اهل فاس امام فى الاصلين قايم على الفروع عارف بالأحكام حافظ للنوازل مشارك فيما سوى ذلك حسن

الخط كثير الاجتهاد والتقييد ولي قضاء سبتة ودرس بها بمسجد زقاق ابن عيسى الاعلا سمعته في حال الصغر يتكلم على موطأ مالك وانا مجتاز على باب المسجد وكان شديد السطوة في احكامه مغلظا على الظلمة مهينا لهم وتخلى عن القضاء فروجع فيه فابا الا ان يترك سبيله فكان ذلك وانصرف الى بلده فاس وذلك في اواخر عام ثلاثة وتسعين وبها كانت وفاته رحمه الله

شيخنا ابو يحيى محمد بن السكاك العياضي القاضي بسبتة فاس امام في الاصول وعلم البيان ويشارك في غير ذلك بنفوذ ذهنه وذكاء طبعه نشا بمدينة تلمسان وقرأ بها على الامام العالم الشهير ابي عبد الله الشريف التلمساني والشيخ الامام المتبحر في المعارف المحقق لمدارك العلوم ابي عبد الله الابلي العبدري وولي القضاء بسبتة ثم قضاء الجماعة بحضرة فاس في ايام السلطان موسى ابن ابي عنان ثم عاد الى قضاء سبتة فكان يدرس بها في ولايته الاولى بمسجد مقبرة زجلو وفي الثانية بالمدرسة الجديدة بعد شيخنا ابي محمد ابن ابي حجة وبمسجد زقاق ابن عيسى الاسفل وفي بعض الاحيان بالجامع الاعظم التفسير والاصول والفروع وغير ذلك حضرت اقراءه التفسير فكان يتكلم على معاني القرءان وبلاغته المعجزة بافصح لسان واحسن عبارة وينص كلام شرف الدين الطيبي في تفسيره وكان يستظهر التبيان في علم البيان له وياتي بكلام ابي القاسم الزمخشر في الكشاف ويقال فيه الكاشف وينبه على ما يتعلق به من الاعتزال الى غير ذلك وفي الاصول ابن الحاجب الاصلي والاصطلاح والمستصفى للغزالي بقراءة صاحبنا ابي زيد بن ابي حجة وختمها عليه تفقها رحمه الله وفي الفقه الجواهر لابن شاس والوثائق لابن القاسم وسوى ذلك وكان شيخنا ذكي الطبع كثير النادر والحكايات محببا في الطلبة حسن العهد منصفا من نفسه مع سكون ووقار وحسن هيئة وسمت وكانت وفاته قدس الله روحه بسبتة في شهر الله المحرم فاتح عام ثمانمائة وقد مر ذكره في الكواكب

شيخنا ابو يحيى ابو بكر الشريف الحسني الادريسي قاضي سبتة امام في العربية والقراءات السبع والحساب والفرائض مشارك فيما سوى ذلك ولي قضاء سبتة والتدريس بالمدرسة الجديدة فيها بعد وفاة شيخنا القاضي ابي يحيى بن السكاك واختطب بجامعها بعض ايام عند تعذر الخطيب فحمدت سيرته وسما قدره فكان يقرىء من كتب العربية جمل ابي القاسم والفية ابن مالك وياتي بكلام الطايفة الشلوبنية ابن ابي الربيع وابن عصفور وابن الضائع وابن خروف وسواهم ويوجه الاقوال وينفصل عن الاعتراضات ويقرب

العبارات الى افهام المبتدئين من الطلبة ويبر بمن تظهر عليه النجابة منهم ولسان حاله ينشد

وفي شربة لو كان علمي سقيتكم ولم اخف عنكم ذلك العلم بالذخر

ومن الفقه الرسالة والتهذيب وابن الجلاب ومن كتب الحساب والفرائض رفع الحجاب (40) والتلخيص لابن البنا والجبر والمقابلة لابن بدر وفرائض عبد الوهاب علما وعملا ومن كتب التصوف بداية الهداية ومنهاج العابدين للغزالى وغير ذلك ومن كتب القراءات حرز الامانى فى القراءات السبع والدرر اللوامع فى حرف نافع وكان له اهتمام عظيم بتفسير كتاب الله عز وجل وتقدم فى اعرابه حضرت اقراءه التفسير فى مسجد مقبرة زجلو ومسجد القفال والمدرسة الجديدة وقرات عليه بلفظى كتاب الجمل تفقها على الوصف المتقدم من اوله الى ءاخر باب المقصور والممدود منه وكتاب الرسالة كذلك الى البيوع وقرات عليه من اوله موطا مالك بن انس امام دار الهجرة قراءة ضبط وتصحيح وهو يمسك على اصل سماعه الى كتاب الحج وكان يحمله عن ابن عمر عن ابن سليمن بسنده وعاق عن اكمال ذلك كله طلبه الاستعفا من قضاء سبتة لمنازعة وقعت بينه وبين أميرها فعوفى وترك لى رحمة الله عليه اصله فعارضت به مابقى لى من الموطا ثم ولى قضاء قصر كتامة بعد ذلك فاستدعانى لاكماله بالقراءة فصرفت عن ذلك صوارف وعاقت عنه عوائق وكان رحمه الله شيخا ذكيا حسن الوجه نقى الشيب جميل الهيئة والملبس والمركب سخيا جوادا سليم الصدر رحيما مشفقا رقيق النفس سريع العبرة له اوراد من صلاة وصيام وقراءة ذاكرا لنصوص الصوفية واخبار الصالحين معظما لطلاب العلم بمنح جاهه وبذل معروفه مغلظا على الظلمة مهينا لهم لا تاخذه فى الله لومة لائم وكان كثيرا ما يتمثل بهذين البيتين

لا تاسفن لفرقة الدنيا فما تلقاه فى اخراك عنها يشغل
لا تبك اشفاقا لما استدبرته ولتبك اشفاقا لما تستقبل

وكانت له عناية باقتناء الكتب العلمية وبحث عن اصولها العتيقة وكان قدس الله روحه ونور ضريحه يوثرنى ويكرمنى ويبالغ فى نصحى جزاه الله عنى خيرا واثابه الجنة برحمته وتوفى قاضيا بالقصر المذكور فى شهر رمضان المعظم من سنة تسع وثمانى مائة ودفن قريبا من قبر الولى ابى يحى بن الملاح ليس بينهما الاقبران اثنان لا غير ورأى فى عالم النوم قبل موته بيسير منشدا ينشده

تعز فلا شيء على الارض باقيا ولا وزر مما قضى الله واقيا

فلما استيقظ اعلم اصحابه بما راى وقال لهم ان نفسي قد نعيت وان الاجل قد قرب فلم يعش بعدها الا يومين او ثلاثة ومات رحمة الله عليه وقد مر ذكره في **برنامج مروياتنا** رضي الله عنه ونفع به

وممن كان في هذه الطبقة من الاطباء بسبتة

الطبيب الماهر الاشهر ابو عبد الله الشريشي المعروف عند العامة بحكيم الرعاء كان رحمه الله ممن له تقدم في صناعة الطب ومعرفة بما يرجع اليها من علم وعمل وكانت مكانته مكينة عند الامراء والملوك مع رصانة العقل وحسن الشارة وصباحة الوجه استدعاه السلطان ابو عنان الى حضرته فاجتمع هنالك مع جماعة من الاطباء ونظر في شكيته فاستحسنه غاية الاستحسان واجزل عطاءه وكان السلطن يقول بعد ذلك في كلامه اختصت سبتة باربعة رجال دون سائر بلاد المغرب كملوا في عصرهم خلقا وخلقا وسماهم من جملتهم الطبيب ابو عبد الله هذا وكان له سلف في طريقته وحانوته برحبة الوزان من سبتة معروف الى اليوم وتوفي في عام احد وسبعين

الطبيب ابو عبد الله ابن مقاتل بصير بالطب وما يرجع اليه استدعته الملوك وسما قدره ـ وكان مدبرا ـ وصل الى مالم يصل اليه احد في عصره وحانوته بالصفاح من مقبرة زجلو امام المسجد الكبير هنالك معروف وتوفي عام اربعة وستين رحمه الله

الطبيب ابو عبد الله بن مبارك الازدي تلميذه شيخ نحيف البدن ظريف الطبع مشهورا بالدين ناصحا في طريقته عالما بها متصرفا فيها وكانت له مكانة من الشيخ الشريف الصدر الاشهر ابي العباس الحسيني لما خبره من نصحه ومعرفته في شكيته فكان يجيزه على ذلك بالكسا والهدايا ومافي معنى ذلك وتوفي يوم الاربعاء الرابع والعشرين لشعبان المكرم من عام احد وتسعين من علة الزمته الفراش مدة من شهر وكان يقسم انه لا يعيش منها وان وفاته يوم الاربعاء فكان كذلك عفا الله عنه

الطبيب ابو عبد الله الجياني شيخ عاقل ابي الهمة عارف بالطب مشارك في ما سواه وكان مهندسا ذا بصر من اهل النجدة ممارسا للحروب الجهادية رابط الجاش مهيبا قدمه السلطن ابو العباس بن ابي سالم المتقدم ذكره ناظرا على البناء بسبتة فظهرت نصيحته وشكرت معرفته وكان حانوته بالسوق الكبير يقصده فيه اهل العلل واصحاب الامراض وكانت العامة تعظمه لرفقه

ونصيحته وتوفى اما فى اواخر عام تسعة وثمانين واما فى اول عام تسعين رحمه الله

الطبيب ابو عبد الله المعز الصنهاجي كان موثقا بسماط العدول مع معرفته بالطريقة الطبية واشتهاره بها وتقدم في بعض اعمال سبتة ايام السلطن ابى عبد الله بن الاحمر ونكب حين قيمة العامة على عاملة بها يحيى بن شعيب الصنهاجي وخلعهم لطاعته القيمة المشهورة وكان ذلك ليلة الجمعة ثالث عيد الاضحى سنة ثمان وثمانين وسبعماية فنهب منزله واستخرجت ذخائره وكتبه وغرب فى جملة من غرب من اكابر سبتة الى فاس فتوفي بها فجئة فى أحد جمادى عام اثنين وتسعين نفعه الله

الطبيب ابو عبد الله بن مروان المعافرى شيخ نحيف البدن معتدل القامة اسيل الوجه اشم الانف ازرق العينين اصهب الشعر متوقدالذهن نبيل العقل ذاكرا لايام الناس واخبارهم كثير المخالطة للطب والاطلاع على دواوينه وكتبه مستحضرا لنصوص علمائه من المقدمين كدياسقوريدوس (41) وابقراط وجالنيوس ومن المتاخرين كالرازى والزهراوى وابن سيناء وابن طفيل وسواهم عارفا بالعلل والشكيات بصيرا بالعقاقير والاعشاب والنبات ينص ما يسال عنه من ذلك لاول وهلة ويفتى فيه املاء من حفظه على البديهة من غير روية وكان يثنى على كلام حنين بن اسحاق في البول ويحفظ كثيرا من رجز ابن ابى الطفيل (42) الطبى وهو ازيد من ثلاثة الاف بيت وياتى باخبار وحكايات من طبقات الاطباء لابن جلجل ويحسن التراكيب والتدابير ويعرف خواص الاحجار سخيا بما يعلمه من ذلك لا يحسد (42) فيه احدا ولا يلتفت الى أخذ أجر عليه بل يبادر الى اجابته السائل ويقدمها على أشغاله ومهماته مع احتياجه وعدم غناه طبعا طبع عليه نفعه الله وولى «اخر عمره أحباس سبتة والنظر فى كتب الخزانة الشهيرة التى بشرقى صحن الجامع العتيق منها فانتفع الطلبة مدة نظره بكتبها الطبية بسبب ارشاده وافادته وكانت بينى وبينه قرابة رحمة الله عليه وتوفى زمن الطاعون فى عشر ذى الحجة من عام سبعة عشر وثمان ماية وقد جاء ان المطعون احد الشهداء

الطبيبة عائشة ابنة الشيخ الكاتب الوجيه ابى عبد الله بن الجيار المحتسب بسبتة قرات علم الطب على صهرها الشيخ الشهير ابى عبد الله الشريشى المذكور ونبغت فيه ادركتها رحمة الله عليها وقد بلغت من السن نحوا من سبعين سنة وكانت امراة عاقلة عالية الهمة نزيهة

النفس معروفة القدر لمكان بيتها لها تقدم بالطبع وجزالة فى الكلام عارفة بالطب والعقاقير وما يرجع الى ذلك بصيرة بالماء وعلاماته وتاثل لها بطريقتها صيت شيده الامراء فطالما كانوا يجيزونها بالهدايا والتحف وغيرها لاجل ما خبروه من حرفتها وكانت لها رباع تغتلها ولم تزل سيدة محفوظة المنصب الى ان توفيت بعد ان عهدت بتوقيف رباعها فى وجوه البر وسبيل الخيرات رحمها الله ونفعها

وقد كان بسبتة فى هذه الطبقة جماعة من الاطباء والشجارين سوى من ذكرناه لم يبلغوا فى العلم والمكانة مبلغ هؤلاء تركت ذكرهم لما اعلمه واتيقنه وقدر كل امرىء ما كان يحسنه

انتهى القصد فى هذا المختصر بفضل الله ومنه وتوفيقه وحسن عونه وجملة ما احتوى عليه سبعة واربعون رجلا وامرأة واحدة رحمة الله عليهم اجمعين وكان الفراغ من تاليفه فى اليوم السادس والعشرين لصفر من عام عشرين وثمانمائة وله جل وعلا الحمد اولا وءاخرا على ما منح من النعم واجزل من القسم والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله سيد العرب والعجم وعلى ءاله وصحابته وسلم كثيرا (43) .

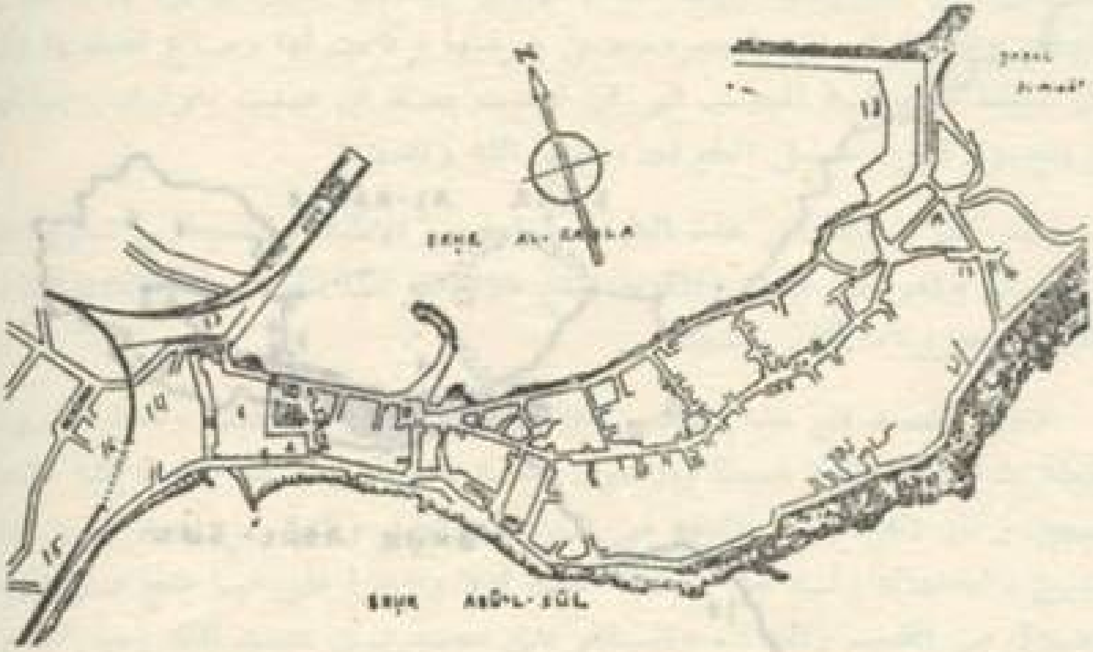
وجد بالاصل المقيد بهذه الورقات ما نصه كمل المختصر الموسوم ببلغة الامنية فى يوم الخميس الحادي والعشرين لشعبان المكرم من عام اربعة وعشرين وثماني ماية والحمد لله حق حمده وصلى الله على سيدنا محمد رسوله وعبده وعلى ءاله وصحبه المومنين بعهده ه‍ ما وجد كما وجد .



1. al-Nāẓūr o Mirador.
2. Alcazaba.
3. Atarazanas.
4. Ribāṭ Abi-l-'Abbās.
5. Muṣallà.
6. Maqbara.
7. Ḥufrat Mujtār.
8. 'Arqūb.
9. Maḍrib al-Šabika.
10. Maḍrib Āwiyāt.
11. Āfrāg.
12. Bāb Fās.

1 الناظور – 2 القصبة – 3 دار الصنعة – 4 رباط ابى العباس – 5 المصلى – 6 المقبرة – 7 حفرة المختار – 8 عرقوب – 9 مضرب الشبكة – 10 مضرب اويات – 11 افراك – 12 باب فاس بحر الرملة (في الشاطىء الشمالي) بحر ابى السول (في الشاطىء الجنوبى)

نقلا عن مجلة الاندلس المجلد 27 القسم 2 – سنة 1962



1. Alcázar.
2. Aljama.
3. al-Madrasa al-Ŷadīda.
4. Sūq al-ʻAṭṭārīn.
5. Masŷid.
6. Simāṭ al-ʻUdūl.
7. Alcaicería.
8. al-Bāb al-Aʻẓam.
9. Bāb Zallāqa.
10. Puerta de Albacar.
11. Burŷ al-Mā'.
12. Ḥafīr Suhāŷ.
13. Kassābun o Albacar.
14. al-Rabaḍ al Barrānī.
15. Ḥāfat al-Guddār.
16. Ḥafīr.
17. Masŷid y Maqbara.
18. Puerto o al-Mīnā'.
19. Bāb al-Mīnā'.
20. Calle Ibn ʻĪsà.

1 القصر – 2 الجامع – 3 المدرسة الجديدة – 4 سوق العطارين –
5 المسجد – 6 سماط العدول – 7 القيسرية – 8 الباب الاعظم –
9 باب الزلاقة – 10 باب القصابين – 11 برج الماء – 12 حفير السهاج –
13 القصابون – 14 الربض البرانى – 15 حافة الكدار – 16 حفير –
17 مسجد المقبرة – 18 الميناء – 19 باب الميناء – 20 زقاق ابن عيسى –

نقلا عن مجلة الاندلس المجلد 27 القسم 2 – سنة 1962

(1) فقد ورد النقل عن البلغــة في الجذوة ص 201 م 26 كما ورد عنها في الاستقصا في حوادث ثمان وسبعـين وسبع مـائة وهي سنة وفاة ابي عبد الله الفنزار قال :

«قـال صـاحـب بلغـة الامنيـة ومقصـد اللبيـب فيمـن كـان بسبتـة في الدولة المرينية من مدرس واستاذ وطبيب» ثم ساق النص الـذي ورد فـي تـرجمـة الفنـزاري

لمـا اطلع الصديق الاستاذ محمد المنوني ـ الـذي قابل معي تجارب هـذا الكتاب ـ على ما كتبته في المقدمـة ، علق عليها التعليقين الواردين فيما يلي :

(2) الا يكون الاعـلام اسما للبلغة ، وقد يؤكد هـذا تكريـر الاحالة على الكـواكب التي لخص منها الاعـلام .

(3) اذا كـان الاعلام اسما ثانيا للبلغـة ينتفي هـذا الاشكـال

ونحن اذ نشكر الاستاذ المنوني على هذا ، ما زلنا في حاجة من المعرفة التي نطمئن بها الى ان البلغـة لخصت من الكواكب والى ان الاعلام يتايد في كـونـه اسما ثانيـا للبلغـة بذلك ، ومـا نطمئن اليـه هـو ان صاحب البلغة رجـع الى كواكبـه التي ردد اسمها بضع عشرة مرة وان صاحب اختصار الاخبار ذكـر الاعـلام ، والكواكب من مـؤلفاته فـالاعلام اذن ليس ملخصا من الكواكب على حـين ان هذا ذكـر الاعلام لابن خميس والاشكـال مازال قائما ، ويذكـر ليفي ان صاحب الكواكب هـو الحضرمي مؤلف السلسـل العـذب وفي النبـوغ ان الحضرمي مؤلف البلغـة . والحضرمي هذا كما في فهرس الفهارس ـ ابو عبد الله محمـد بـن بـراهيـم

(4) كذا بالاصل ولعلـه بعـد يسـير ، او بيسـير

(5) بالاصل المتمركل ، وهو تصحيف ، وهـذه القصـة ذكـرت لابن ابي عامر مـع صاعـد ، فـربمـا تكـررت

(6) بالاصل الـزمنـا

(7) في مخطـوطـة ابن صالح ، فيه

(8) ابـن صالح ، بـن

(9) وكـان

(10) الكلمـة ساقطـة في الربـاط

(11) في الاصل ، بن

(12) كذا في الرباط ، وهي بالمهملة في ابن صالح ، فلعلها النادرات

(13) في ابن صالح شكل بفتح الزاى وسكون الجيم وضم اللام

(14) في الرباط ، بدل هذه الكلمة ، لله ما قيد ، وهو تصحيف كما يبدو

(15) كتب بالطرة ، هو ابو على وكان اعرف اهل زمانه بالفرائض والحساب والهندسة وعلم النجوم ، زادت نسخة ابن صالح ، ه من الاصل

(16) في ابن صالح كتبب هذه الطرة ، عرف به صاحب المقصد الشريف في التعريف بصلحاء الريف

(17) السين مشكولة بالضم في ابن صالح

(18) الرباط ، الشاوى ، وهو خطا

(19) كتب بالطرة انها ، اول خزانة حبست بالمغرب على طلبة العلم

(20) في ابن صالح ابى ، وهو خطا

(21) هو على بن عبد الله بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامى

(23) في الرباط كلمات غامضة مكان وما هو عليه من المجاهدة

(24) ضبط الزكندرى في ابن صالح بضم الزاى والكاف وفتح الدال وترجم له في النفاضة ، نشر العبادى

(25) كذا في الرباط ، وفي ابن صالح : شانة ، ولعل الاصل كان ، يكثر من تنائه ، او يذكى من شانه او يعلي من شانه ، فهذه كلها قريبة التصحيف مما هو موجود

(26) كذا في الرباط ، وفي ابن صالح ، يدعينه

واذا عد ابن مدعينة ، ابن النكى ، وابن القاسم النحوى ، وابن نبيل الحسابى ، واخو ابى عبد الله الزرعى ، من بين المترجم لهم ، فان عددهم بذلك يتم ، وان كانت كناهم في الاصل ، بكلتا النسختين لم تكتب بالقلم الغليظ ، كما فعل في بقية المترجمين .

(27) في الرباط ، بن ، وكتبت طرة في ابن صالح هكذا ، هو احد اشياخ القاضى ابى الفضل عياض رحمه الله

(28) في الرباط بدل الطبقة الثانية ، المدرسة القديمة مدرسة ، وهو اصلاح من كاتب جاهل لما محي من كلمة الثانية

(29) في الرباط كلمات غامضة مكان بيش العبدرى كتبها الجاهل اصلاحا لما محي من الكلمتين

(30) وسبع مائة ، ممزقة بالرباط

(31) في طرة بابن صالح انه الشيخ ابو عبد الله البيار

(32) في طرة بالرباط ، هو القاضي ابو محمد عبد الله بن مسلم

(33) في الرباط ، البرزعي ، وهو تصحيف ظاهر

(34) نسبة الى فنزارة قرب سلا كما قال لى الاستاذ المنونى

(35) الكلمة غير واضحة في الرباط

(36) ساقطة في ابن صالح

(37) الرباط ، مشيخها ، وهو تصحيف ، وكان الاصل : ابى عثمان فاستظهرنا كونه مصحفا عن ابن عثمان

(38) كذا بالاصل ، ولعله : سيرة

(39) من هنا يبتدىء بترفى مخطوطة الرباط الى ترجمة ابى يحيى ابى بكر الشريف الحسنى

(40) بالاصل بالاصل «الحصار» بدل «رفع الحجاب» فلعله الصواب

(41) دياسقوريدوس Pedanios Dioscorides أو Πεδάνιος Διοσκορίδης كان قسطنطين السابع امبراطور بيزنطة ارسل الى عبد الرحمن الثالث نسخة من كتاب ديوسقوريدوس ولما يكن فى قرطبة من يحسن الاغريقية فقد طلب عبد الرحمن من الامبراطور ان يبعث اليه من يترجم من الاغريقية فبعث هذا لذلك الراهب نيقولا ليجدد انواع النبات التى ذكرها ديوسقوريدوس حيث كانت تختلف هذه فى الشرق عنها فى الغرب تاريخ الفكر الاندلسى لبلنسيا (ترجمة مونس) وكتاب « Introduction to the History of Science » by George Sarton, vol. I : « La « Materia Medica » de Dioscorides, transmisión medieval y renacentista » والجزء الاول من كتاب سيزر ودبرلر

(42) بالاصل «يحسن» ولعل الصواب ما أثبتناه

(43) فى الرباط : انتهى هذا التاليف فى مهل ذى القعدة عام ذ ه ك ضى ه

«ملخص»

لأهم المقالات المنشورة في المجلد الأول من مجلة « Hespéris-Tamuda »

في سنة 1960 اصدرت كلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط السلسلة الجديدة من مجلة « Hespéris-Tamuda » بعد ان ادمجت كلا من مجلة « Hespéris » التي كانت تصدر بالرباط مع مجلة « Tamuda » التي كانت تصدر بتطوان.

وقد كانت الاولى تصدر بالفرنسية عن معهد الدراسات المغربية العليا من سنة 1921 وصدر منها الى غاية 1959 ــ 46 مجلدا بينما كانت تصدر الثانية بالاسبانية عن معهد الابحاث المغربية بتطوان منذ سنة 1953 وصدر منها الى غاية 1959 ــ 7 مجلدات.

وتصدر من هذه السلسلة الجديدة ثلاث اعداد في السنة تضم ابحاثا مختلفة تتعلق بالمغرب مكتوبة بالفرنسية والانجليزية والاسبانية.

وفيما يلي نظرة على الاجزاء الصادرة

المجلد الاول (1960)

رسالتان في الحسبة

قامت السيدة راشيل ارى بترجمة رسالتين في الحسبة الاولى لابن عبد الرؤوف والثانية لعمر الجرسيفي وصدرت هذه الترجمة بمقدمة فذكرت انها ترجمة للرسالتين اللتين نشرهما من قبل الاستاذ ليفي برفنصال في القاهرة سنة 1955 بعد الترجمة الفرنسية التي قام بها المستشرق المذكور لرسالة ابن عبدون في الحسبة الصادرة في سنة 1934.

وعن المؤلفين ذكرت ان ترجمتهما غير معروفتين وكل ما يعلم عنهما ان الاول اندلسي من عصر متقدم نسبيا وان الثاني ينتسب الى اهل جرسيف استقر خلال العصر الوسيط بالاندلس.

وتقع رسالة ابن عبد الرؤوف في 37 فصلا وهي رسالة في المذهب المالكي لان مؤلفها يعتمد على اقوال الامام مالك وعلى تلامذته ثم يذكر بتطويل ماورد في تغيير المنكر ويحدد وظيفة المحتسب في مهمته الدينية .

وفي القسم الثاني من هذه الرسالة يتعرض المؤلف الى الصناعات التي يجب على المحتسب مراقبتها والاشراف عليها وفي هذا القسم معلومات قيمة تساعد على معرفة الحياة الحضرية للاندلس في العصر الوسيط . فنحن نرى مثلا نشاط المحتسب في مراقبته للاسواق وللتجار وللمواد الغذائية في سوق الحنطة وعند الخبازين واصحاب الافران وباعة الحليب والجزارين وباعة الفواكه وباعة السمك والاسفنج والجبن والهريسة وتجار الزيت والسمن والعسل كما نشاهد من خلال هذا القسم من الرسائل تدخلات المحتسب لدى اصحاب الحرف اليدوية كالخرازين والحصارين والحواكين والنساجين وغيرهم .

ويتجلى نشاط المحتسب ايضا في مراقبة الموازين والمكاييل زيادة على ما يقوم به من مهام كرئيس للشرطة المدنية وكمحافظ على سلامتها ونظافتها .

اما رسالة الجرسيفي فهي تختلف عن الاولى في كونها تعتمد على اقوال الائمة عدا الامام مالك وبالاخص الشافعي ، كما انها تبرز نشاط المحتسب من الناحية الادارية كمنعه رفع اسعار بعض المواد ومعاقبة الغشاشين من التجار باخراجهم من الاسواق ومنعهم من تعاطي التجارة وجلدهم بالسياط . ومنع العرافين والكهنة والمشعوذين من الوقوف بباب الدور حرصا على سلامة الاخلاق .

ويورد الجرسيفي في رسالته نصا طويلا يتعلق بظروف معيشة اهل الذمة ـ اليهود والنصارى ـ وهو فصل لم يتعرض اليه ابن عبد الرؤوف المتقدم .

وعلى كل حال فان الرسالتين تعتبران وثيقة هامة لدراسة جانب من جوانب الحضارة الاسلامية بالاندلس لا من الناحية الوقائعية ولكن من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية .

وفي اخر الترجمة معجم عربي فرنسي للكلمات والاصطلاحات الاندلسية الواردة في الرسالتين .

سفارات وبعثات مغربية الى فرنسا .

نشرت الترجمة العربية لهذا البحث في مجلة تطوان في المجلد السادس سنة 1961، وهو بحث قيم للاستاذ جاك كايبي .

صناعة التروس والدرق .

يعالج الاستاذ فرانسوبيتان في هذا البحث جانبا من احدى الصناعات التقليدية التي كانت مزدهرة بالمغرب وبالاخص في فاس ، الا وهي صناعة التروس والدوق . ولم تزدهر هذه الصناعة في شمال افريقيا فحسب ، بل بفرنسا واسبانيا وايطاليا حيث ظلت حية خلال بضعة قرون ، ويستعرض الكاتب النصوص العربية التي اشارت الى هذه الصناعة الاسلامية فيورد مقتطفات من كتاب ابن هذيل الاندلسي «حلية الفرسان وشعار الشجعان» كما يشير الى ماكتبه الشريف الادريسي قبل ذلك عندما وصف مدينة نول واورد وصف اللمط فيما كتبه البكري وليون الافريقي وقال ان هذه الدرق اللمطية كانت معروفة في تونس وحتى عند مماليك مصر . وكانت هذه التروس والدرق مستعملة في عهد المرابطين . فقد ورد ذكرها في معركة الزلاقة وقبل ذلك كانت من بين هدايا زيري بن عطية للمنصور بن ابي عامر كما كانت بعد ذلك ضمن هدايا ابي الحسن المريني الى السلطان قلاوون بمصر .

وكانت التروس والدروع تصنع بفاس من جلود لمطة المجلوبة من اقصى الجنوب كما كانت تباع بها تروس ودرق مصنوعة في غيرها من المدن ولشدة الاتصال بين شمال المغرب وبلاد الاسبان كانت اسبانيا هي أولى الدول الاوربية التي قدرت قيمة التروس المصنوعة بفاس ، ومن اسبانيا انتقلت الى فرنسا والبرتغال واحتفظ هذا السلاح في بلاد الفرنج باسمه العربي كما احتفظت بعض المتاحف الوطنية باوربا ببعض النماذج الاصلية .
ويسهب الكاتب بعد ذلك في وصف تطور هذه الصناعات بمختلف البلاد

الاوربية ومقارنة اساليب صناعتها وما تميزت به في كل بلد من انواع التحسينات وما كتبه الاوربيون عنها .

رايات الدول الاسلامية

يقول كاتب المقال السيد دوبروى ان اتخاذ علم وطني كرمز لوطن خاص لم يعرف في العالم الاسلامي الا في القرن الاخير ، بينما اتخذت بعض الدول الاوربية كالدانمارك والنمسا علما خاصا بها يرمز الى بلادها في القرن الثامن عشر والسبب في ذلك ان الدول الاسلامية كانت خلال القرون الاخيرة واقعة تحت الاستعمار وما ان اخذت هذه الدول تمارس استقلالها حتى اتخذت كل واحدة علما جديدا يرمز اليها .

وقبل ذلك كانت الاعلام تنحصر في أربعة انواع :

اعلام المملكة او العائلة المالكة ، اعلام المدن البحرية ، أعلام القراصنة . اعلام تابعة للعلم التركي او مقتبسة منه .

فعند ظهور الاسلام عرفت الاعلام الاولى فكان للامويين علم ابيض وللعباسيين علم اسود ، وللفاطميين علم اخضر ، ولشرفاء مكة علم احمر ، كما ان لبعض الدول الصغرى التي تتمتع بنوع من الاستقلال اعلام مختلفة الالوان مزينة برموز ملكية أو بآيات قرءانية .

وابتداء من القرن السادس عشر صارت تظهر الى جانب ذلك اعلام القراصنة بسلا والجزائر وتطوان كما ظهر الهلال في بعض الرايات التركية .

اما الالوان المستعملة في هذه الروايات فهي الابيض ، وهو الغالب ثم الاحمر فالاخضر فالاصفر فالاسود فالازرق . وتزين هذه الاعلام الاسلامية اما بالهلال أو بالنجوم، وبعضها كان خاليا من كل رمز، كما أن الالوان المختلفة من أحمر واخضر واسود تخط فيها أفقيا .

وفي ءاخر المقال ملحق مصور للرايات الاسلامية المختلفة بالالوان نجد من بينها 17 نوعا من انواع الرايات الغربية 11 نوعا من رايات الجزائر و 7 رايات تونسية و 4 رايات ليبية مع الشروح المتعلقة بكل راية .

وفيما يتعلق بالمغرب على الخصوص نجد ان اقدم راية عرفت للمغرب هي راية حمراء بوسطها دائرة مزينة بمربعات بيضاء وزرقاء يرجع تاريخها الى سنة 1367 كما نجد ان رايات القراصنة بسلا وتطوان يغلب عليها اللون الاحمر والاخضر والاصفر وهي مزينة بالهلال او المقص . ونستفيد

ايضا ان المغـرب استعمل الهـلال الابيض في رايـة خضراء سنة 1870 وظهـرت النجمـة الخماسية الخضراء وسط الرايـة الحمـراء سنـة 1915 كمـا ظهـرت النجمـة السداسية الصفراء وسط الرايـة الخضراء بتطوان سنة 1928 .

العـلاقـات المغـربيـة الفـرنسيـة

في هـذا الموضوع مقـالان الاول للاستاذ جـاك كايبي يتناول حـادثـة من الحـوادث التي اثارتهـا استفحال القرصنة بشواطىء المغـرب سنة 1767 وذلك ان الرئس عمر اعترض سفينة فرنسية فغنمها وساقها الى تطوان وكانت محملة بكميات من الزيت والصابون والكبريت ، وبعد خمسة أيام غنم الرئيس المذكور سفينتـين فـرنسيتـين ساقهمـا الى المعمـورة .

وكانت هـذه الحادثـة سببا في تعكير جـو العلاقات المغـربيـة الفرنسية بمـا اثـارته من احتجاجات من طرف سفير فرنسا وقناصلها . وجـرت عـدة مخابرات ومكاتبات في الموضوع بـين الدولتين انتهت بمعاقبـة الرئيس عمـر ومساعديـه واطـلاق سراح الاسارى الفرنسيـين وتصفية الجـو مـن جديـد بـين الـدولتـين .

والمقال الثاني يتعرض كاتبه مانون هوسطررونو الى بعض الوثائق المودعة بـدار المحفوظـات الوطنيـة بباريس التي تلقى الضوء على بعض النقط الغامضة في تاريخ العلاقـات المغربية الفرنسية .

فمن ذلك ان حـركـة القرصنة المغربية التي استفحلت من قبل اصبحت في تاخر مستمر منذ وفاة المولى محمد بن عبد الله ، بينما كانت السفن الفـرنسية تواصل نشاطها في البحـار بكيفيـة متزايدة وتعـرقـل التجـارة المغـربيـة بل ان بعض التجـار المغـاربة الذين كانوا يتاجرون ببعض الموانىء الخاضعـة للمراقبة الفرنسية مكثوا مـدة طويلـة في انتظار حل لقضاياهم المختلفـة مـن طرف سلطات حكومـة الثورة الفرنسية . وكان قنـاصـل فـرنسا بـالمغـرب يوجهون الى حكـومتهم رسائل احتجـاج المولى سليمـان على هـذه الحـالـة بـدون طـائـل .

وفي سنة 1798 استولى القراصنة الفرنسيون على سفينة مغربية بعـرض طرفـايـة ممـا دعـا السلطان المولى سليمان الى اتخـاذ اجراء غـير مالوف : فقد عهد السلطـان الى الفقيه السيد الحاج عبد الرحمان بـن زاكور من فـاس

والى السيد الحاج محمد بن صالح التاجر باسفي بالسفر الى فرنسا لحمل رسالة شخصية من السلطان الى اعضاء حكومة الادارة التنفيذية بفرنسا . (النص العربي للرسالة مصور) وكان من نتيجة هذا المسعى ان امرت السلطات الفرنسية بحل جميع المشاكل من هذا النوع وحصل التجار المغاربة على حقوقهم وتعويضاتهم الكاملة .

وهناك وثيقة اخرى ، وهي رسالة على باى العباس الى نابليون ، تلقى ضوءا جديدا على حياة هذا المغامر الاسباني ومشاريعه الخيالية :

ويتعرض الكاتب في آخر المقال الى وثيقة هامة وهي رسالة من القنصل الفرنسي بطنجة الى وزارة الخارجية الفرنسية حول العلاقات بين فرنسا واسبانيا والمغرب، وحول المحاولات الفرنسية في عهد نابليون، لاحتلال بعض المناطق الساحلية بالمغرب لمقاومة النفوذ الانجليزي بجبل طارق .

مقالات مختلفة

في ميدان الآثار نجد مقالا عن قصبة بربرية بوسط الاطلس الكبير تدعى قصبة واعراب وسط قبيلة ايمرهان وهي قصبة غريبة الشكل والهندسة يرجع تاريخ بنائها الى سنة 1883 في عهد مولاي الحسن ويصف كاتب المقال بتدقيق هذه القصبة وكيفية بنائها وما تمتاز به عن القصبات البربرية الاخرى.

وفي مقال ثان يستعرض كاتبه مجموعة من الحلى المصنوعة بتازا وهي عبارة عن 57 قطعة مختلفة الاشكال والنقوش غنية بالرسوم الهندسية البديعة جلها مصنوع من الفضة .

وفي مقال لمريانو أربياس بالاسبانية عن بيعة مولاي مسلمة بطنجة بعد وفاة المولى يزيد ، عرض الكاتب النص العربي لبعض الرسائل المتعلقة بهذا العهد ، منها رسالة من المولى مسلمة الى حاكم سبتة في شان ارسال القايد العباس كسفير الى الملك كارلوس عام 1206 هـ. ورسالة اخرى من السيد الطاهر ابن عبد الحق فنيش الى حاكم سبتة . ورسالة من المولى مسلمة الى الملكة مارية ملكة البرتغال ورسالة منه ايضا الى قناصل الدول بطنجة وجواب القناصل عليها .

وللمستشرق الاسباني هويثي ميراندا بحث بالاسبانية يتعلق بتاريخ المرابطين من خلال كتاب روض القرطاس .

محمـــد بـن تاويت

A MOSLEM SAINT OF THE TWENTIETH CENTURY
SHAIKH AHMAD AL-'ALAWI

by Martin Lings

مـؤلف هذا الكتاب «ولى مسلـم من اوليـاء القـرن العشريـن» ، الشيـخ احمد العلوى مـن اساتذتنـا الافاضل ، الذين كانوا يدرسون اللغة الانجليزية وادابهـا ، فى كليـة الاداب ، جـامعة فـؤاد الاول .

وهو الاستاذ مارتين لنكز ، او الحـاج ابو بكـر سراج الدين ، بعد اعتناقه ديـن الاسـلام ، تقـرأ فى وجـه هذا الفاضل مخايل الذكـاء ، ومعالـم الرضى والايمـان ، وبعد ما كنت تجده يؤدى مهمته التعليمية ، بالجامعة ، فى ملابسه الاوربيـة ، تجده خارج الجامعـة ، فى بيوت الله ، مرتديا ملابس شيوخ الازهر او مـا يقـاربهـا ، تـزهـو لحيتـه الحمـراء ، التى يعفيهـا مـن الحلاقـة .

عـرفنا استاذنا هكذا ، وعرفناه من خـلال بعض معارفـه ، وكـان هـذا منتهى المعـرفـة فيه ، وفارقناه سنة نيف واربعين بالقاهرة ، وفى سنة ثمـان وخمسـين ، او اوائـل تسـع وخمسـين ، التقيت بـه صـدفـة ، فـى مبنى School of Oriental and African Studies التابـع لجامعـة لنـدن ، فسالتـه ، غـير متاكد من شخصه : الاستاذ ابو بكـر ؟ اجاب : نعم ، وعلمت منه انه يشغل منصبـا فى المتحف البريطانى ، فزرته بـه مرارا ، فى القسم العـربى ، مـن مكتبة هـذا المتحف ، وفى حديث جـرى بيننا حول المغرب ، الذى كنت اظن ان الاستاذ مسرور من وضعيته ، قال لى : مـع الاسف كنا نظن ان المغرب لن يقع فى الاخطـاء التى وقع فيها غـيره ، من الاقطـار بما فيها انجلتـرا ، فحاولت ان ادرك ما هى الاخطاء التى يعنى ، ففهمت من فحوى كلامه ، انها اخطاء تتصل بالسلوك ، والسلوك الدينى ، بنوع خاص .

وسالنى : هل تعـرف شيئا عـن الشيخ ابن عليوه فاجبته بشىء من عـدم الاكتراث ، فقال لى : ان اسلامى كان على يد ذلك الشيخ ، بعـد هذا الالتقـاء

بأربع سنوات ، وصلني كتاب استاذنا الفاضل ، مقدما لي بهذا التقديم الذى اعتز به «الى اخي فى الدين» السيد الكريم ، محمد بن تاويت

من المؤلف الفقير الى ربه تعالى ، الحاج ابى بكر سراج الدين

الشهير بمرتن لنجز لطف الله به وبكم

فى شهر شعبان ، من شهور سنة 1382 من الهجرة النبوية

صلى الله على صاحبها وسلم .

لنعد الى الكتاب فنجد صاحبه قد قسمه الى قسمين : القسم الاول المخصص للطريقة والتعليم ، يحتوى على أربعة فصول ، الفصل الاول ، الشيخ حسب ما قيل عنه ، الفصل الثانى ، حقيقة التصوف ، الثالث تحدث الشيخ عن نفسه ، المعلم الروحى

اما القسم الثانى ، المخصص للعقيدة ، فقد احتوى على فصول ثمانية ، الاول وحدة الوجود الثانى العوالم الثلاثة ، الثالث رموز الحروف الرابع الامان الاعظم ، الخامس العلم اللدنى ، السادس فريضة الطهارة ، السابع فريضة الصلاة ، الثامن مختارات من اشعار الشيخ (مترجمة)

وفيما قيل عن الشيخ ، روى احاديث جرت بينه ، وبين طبيب افرنسى ، كان يزوره عند انحراف صحته ، وهى احاديث وانطباعات ، قد تفوتنا ولا تسترعى منا انتباها ، ولكن الدكتور مرسى كريت Dr. Marcel Carret تركت فيه آثارا بليغة ، وبعثت فيه تفكيرا وعبرا ، انتهت به الى الايمان والاسلام ، وظل لذلك على صلة بالشيخ طيلة اربع عشرة سنة ، من سنة 20 الى 1934 ، حين توفى رحمه الله

وفى تعرضه للتصوف ، جعل اول من تصوف النبى عليه السلام قبل الرسالة فابو بكر رضى الله عنه ، وحاول ان يثبت مبادئه من الكتاب والسنة ، وما اولئك الذين عرفوا قبل الاسلام بالحنفاء ، الا هؤلاء الذين عرفوا بالمتصوفة فى الاسلام ، وقد بذل فى اثبات ذلك كثيرا من الادلة المقبولة

وفى تناوله لحديث الشيخ عن نفسه ، أتى بفذلكة قيمة لحياة هذا الرجل ، منذ نشأته ، بل منذ حملت به امه الى ان لقى ربه ، ثم رؤى اتباعه فى مناماتهم حوله ، حينما توفى شيخه البوزيدى ، فخلفه هذا فى الطريقة ، التى كانت درقاوية ، ثم تخصصت بالعلوية

وعندما ما تكلم على شيخ الطريق ، او المعلم الروحي ، نقل عـن «بـرك» معلومـات تتصل بالشيخ في تطلعه الى معرفـة الاديـان الاخـرى خصوصـا منها المسيحية ، وشك في انـه كان يحس في نفسه انه مجـدد هـذا القرن ، وان كان ديوانه يشعـر بشيء من ذلك ، ثـم ذكر انه بعد ما كـان عيسويا ثـم درقاويـا ، راى ان يستقـل عـن الزاويـة الدرقاويـة بـالمغـرب ، فسميت طريقته بالجزائر ، الشاذلية وان اهـم الخصائص في ذلك ما كان يحض عليه مـن الخلوة ، وكـان في هذا مقتديا بالنبي عليه السلام ، في تحنثه بغـار حراء وتعـرض الى انالتعاليـم نـوعـان منها ما هو ظـاهر، ومنها ما هو باطـن، وذكـر الحديث الذي روي في البخاري عن ابي هريرة ، في هـذا وفي اثناء هـذا الفصل ، تعـرض للرقص الصوفي ، وحاول ان يجد له اصلا من السنـة ، في اولئك الحبشيين الذين كانوا يرقصون بالمسجد النبوي ، على مراى ومشهد منـه عليه السلام ، وذكـر قصة جـرت له مـع طلبة جامعة فؤاد وفـارق ، الذيـن رافقهم في طريقه الى اداء فريضة الحج ، وان بعضهم كـان ينكر على الصوفيـة رقصهم ، ولكنهم مـا لاحت لهم معالم المدينة حتى اخـذهم جلالهـا فشرعـوا يرقصون ويتمايلون ، لدرجـة ان سائق السيارة ، صار ينذرهم بانهم ان لـم يكفـوا عن رقصهم فان السيارة ستفقد توازنها وتقـع بهم ، ولهـذا فهو لا يرى في هـذا الرقص ، الا انفعـالا ربانيـا يعتـري صاحبه ، فيخـرج عـن معتاده المـالـوف عند الناس جميعـا ، ثـم يفتـر ذلك الـوجـدان ، فيرجـع الانسان الى مالوف هـؤلاء للناس ، وتكلـم عـن الانسان الكامل ، وانه النبي عليه السلام ، كما تعـرض الى ما انتقـد بـه الشيخ ، من قبل علمـاء الديـن بالجزائر ، وعلى راسهـم الشيخ ابن بادس وعـن المعـركـة التي كانت بـين الشهاب لسان حالهم ، والبلاغ الجزائري ، الذي كـان ينشر بـه ابن عليـوه ، ولكن ذلك انتهى اخـيرا الى الوفـاق والوئـام ، في حفلة ، حضرهـا الشيخان ، فتفاهمـا فيها وتصافحا

هذه نظرة سريعـة وجزئية عن الكتاب ، الذي اعجبنا به غايـة الاعجـاب فقـد اخذنا باسلوبـه الشيق المشرق ، وبحـوثه الطريفة الممتعة ، ونظراتـه الواسعـة الافـاق في عالـم الصوفيـة والعقائد ، ومـا كان يدور بخلدنا في يـوم من الايـام اننا سنقـرأ كتابا عـن السيد العلـوي ، في تلك الـرغبـة والاقبال المندفـع ، لولا استاذنا الذي تناول هـذه الشخصية ، تنـاولا افرغ فيه كل ما تحتويه الدراسات الصوفية من معارف ، كما صب فيه كـل مـا في شخصيته هو مـن مزايـا الايمـان والاقتناع ، والايمـان يفضي بصـاحبـه الى عوالـم تنكشف له ، ثـم يكشفها للناس بما يلقي عليها مـن اضواء وانـوار ،

فتهدى النـاس الى سـواء الطريق ، وما كانوا من قبل مهتدين ، ولكنه قبس مـن نور الله ، يهـدى الله لنوره من يشاء .

اقول هـذا والحق انى لا افى بحق الكتاب فيما اقول ، غير انى اعتده همسة مـن نفسى ، وهى منغمـرة ببحوثـه منتشية بما اثاره فيها من مشاعـر لم تكن لهـا من قبل ، وقـد اصبحت تحس بالنقصان الهائل فى المعرفة والادراك ، وان هنـاك اشواطا بعيـدة عنهـا ، لا بد ان تتوطن على قطعهـا ، ولا تقف عند واحة العجـز ، فتردد القـول : «العجـز عـن الادراك ادراك» .

قضايا الشعر المعاصر

من الكتب النادرة التى تطرفنا بها المطبعة العربيـة فى أيامنا هذه ، كتاب «قضايـا الشعـر المعاصر» ، لمـؤلفته نازك الملائكـة ، وهو كتاب في الـواقـع ممتع ممتازو بالنسبة الى مـن اهم ما قـرأتـه لمؤلفـة عـربيـة فبهـرني ، بجمـال نسقـه ، وحسن نظريـاتـه ، وغنى معلـوماتـه ، وقـوة اسـره ، فى عبـاراتـه .

وفيه تعالج قضايا من شعرنا والقائمين عليه من المعاصريـن ، وفي مقدمتهـا ما سمتـه «الشعـر الحـر» وطبقت عليه قوانين العروض العربيـة، فى بعض بحورهـا ، دون التـزام الشطرات ، بل التفاعيل وحدها ، مع اعتبار القافيـة

وقـد مهد للكتاب ، زوج المؤلفة الفاضلة ، صديقنـا وزميلنـا فى الطلب الدكتور عبد الهادى رضا محبوبـة ، فالقى نظرة عامـة على تطور الفنون بمـا فيهـا شعرنا العـربى ، وفى ملابسته لحيـاة الناس ، وما استنتجه من ذلك واستشكله الدارس فى مدلولاته التى يعتوز بعضها الغموض

ثـم رافق نشوء هـذا الشعـر ، من بعيد ، الى ان ترعـرع وانتهى اخيرا الى هـذه المعـركـة التى تخوضها العـربيـة فى مضامينا وما تدافـع به عن كيانهـا الذي تعـرض لهومات شتى ، مشـيرا اثنـاء ذلك الى ما طرأ على شعـرهـا من اعـراض الضعف والتدهـور فى بعض الاحيـان .

واخـيرا ينتهى الى حركـة «الشعـر الحـر» وهو بيت القصيد من كتابنا ، فذكـر انـه نشأ سنة سبـع واربعين وتسع مائـة والف على يد مـؤلفة الكتاب كحـركـة تطوريـة للشعـر العربى ، استجاب لهـا العـروض العـربية ، ثم استعرض فى ايجـاز بعض فصول الكتاب ، ومـا تهـدف اليـه ، وختم ذلك بمعارضتـه لبعض وجهـات النظر فى هـذا الكتاب ، وذلك فى امرين ، اعتبر احدهما مفارقـة فى مصطلح الشعـر الحـر واعتبـر الاخـر ادعـاء المؤلفـة خلـو النثـر من الموسيقى .

والمقـدمـة على قيمتها العلمية والادبية ، نلاحظ عليها هـذه الملاحظـات التى نحصرها فيما يلى :

فقد وردت في صفحة 5 هذه العبارة ، قدمت لها اختها الاصغر
وورد في صفحة 7 هذه العبارة : يتعقد تدريجا بتعقد حياة انسان الظاهرة

ويذكر في صفحة 9 انه لم تمر مائة عام على الشعر ، بعد ما دخلته اغراض جديدة بظهور الاسلام ، حتى بدأ عهد جديد دعاه النقاد بعصر الشعراء المحدثين ، قبال القدامى ، لما دخل على الشعر من اتجاهات جديدة في الصياغة والاساليب والتعبير ، على يد ابى نواس وابى تمام وبشار بن برد ومسلم بن الوليد ، وابن المعتز وابن هرمة والشريف الرضى وسواهم فذكر ابا تمام وابن المعتز والشريف الرضى ، الى جانب ابى نواس وبشار ومسلم بن الوليد وابن هرمة ، مع البون الشاسع بين العصرين .

وفي صفحة 11 يجمع بين اللزوميات ، والفصول والغايات ، في ان حركة التطوير فيها لم تكن تخلصا من قسوة عمود الشعر وصرامته ، وانما كانت بدافع الرغبة الى الجديد ، مع ان الفصول والغايات من نثر المعرى لا من شعره

وبعد فهل الكتاب يعالج ، قضايا الشعر المعاصر ، على الحقيقة ؟ اننا اذا انتهينا من قراءة الباب الثالث وواجهنا الباب الرابع ، بملحق لقضايا الشعر الحر ، قلنا ما احرى هذا الكتاب ، بان يسمى «قضايا الشعر الحر» بدلا من «قضايا الشعر المعاصر» .

والواقع ان الكتاب في بحوثه اعم من ان يعالج قضايا الشعر المعاصر، سواء منه الشعر الحر والشعر الغير الحر، فهو الى جانب هذا وذاك ، يتناول بحوثا اخرى ، منها ما يتصل بالنقد واصوله ومنها ما يتصل بغير ذلك : بل انه عقد فصلا خاصا في الباب الثاني بالشعر والموت ، ولا ندرى لم اهتم بهذه العلاقة بالذات ، سواء فيها الموضوع نفسه ، والمقارنة التي جعلها بين شعراء من العراب وآخرين من الانجليز ، مع انه يهيب في نهاية الكتاب ، بالجيل الناشيء من النقاد ان يتجهوا الى انفسهم، حين يكتبون لينبت الذهن العربي الخصيب أثماره ، وسرعان ما سوف تتكشف الامة المنابع الحقة في كيانها الفكرى ، المنابع العربية التي لن يغتني الاديب العربي بسواها ولا مصلحة له في سواها .

وبالتفصيل فالكتاب جعل قسمين ، مبوبين على ابواب ، وهذه مفصلة الى فصول :

فالباب الاول من الاول يتناول في فصوله ، هذا الشعر من حيث نشأته والعوارض التى تعرض له ، من مزايا قد تغرر بالذين يحاولونه ، وما يترتب على ذلك كله، وخواتم له قد يساء فيها الاستعمال، واتى في ذلك بامثلة .

وفي الفصل الثانى منه تعرض الى الجذور الاجتماعية لحركة هذا الشعر ، وذلك في دراسة ممتعة لحركات التجديد عامة ، ثم الشعر الحر خاصة ، وقد ذكرت المؤلفة الفاضلة من العوامل الاجتماعية على وجود هذا الشعر ، النزوع الى الواقع ، اذ ان الشاعر الحر يستطيع باوزانه ان يهرب من الاجواء الرومنتيكية الى جو الحقيقة الواقعية التى تتخذ العمل والجد غايتها العليا .

وهنا نتساءل هل كانت الاوزان العربية ، كابتة لشعرائها من ان يتنفسوا فى هذا الجو الواقعى ؟ فمن قال اذن فى شعرهم : انه ديوان العرب ، كان على غير هدى وصواب ، ، ثم احقيقة ان هذا الشعر يحقق ذلك ، ويحمينا من هذه الرومنتيكية ؟ اما انا فلا ارى هذا ولا ذاك ، فشعرنا حقق، ما حقق لما كنا اناسى حقيقين ، نتخذ العمل والجد غايتنا القصوى وفى استطاعته ان يعود فيحقق ايضا ، اذا عدنا نحن الى انفسنا فاخذناها بتلك المثل التى اخذها بها اجدادنا الاولون ، عليهم الرحمة وعنهم الرضوان ، اما الشعر الحر ففيه رومنتيكية ، واقول رومنتيكية طافحة عارمة ، اعتمد عليها شعر المهجر أيما اعتماد ثم ماذا نقول فى شعر «شيلي» الذى ضرب الرقم القياسى فى هذه الرومنتيكية ؟ اهو شعر موزون ؟ بل ماذا نجد فى تلك النماذج التى اتت فى الكتاب من هذا الشعر الحر ، اليست ــ اذا استثنينا قصيدة الكوليرا ــ نماذج طيبة لهذه الرومنتيكية ، والا ، فما هى الرومنتيكية ياترى؟

وفى هذا الفصل وللقضية نفسها نجد الكتاب يقول فى النفور من النموذج «من طبيعة الفكر المعاصر عموما انه يجنح الى النفور مما اسميه بالنموذج فى الفن والحياة ،،، وتلاحظ فكرة النموذج فى الفن العربى القديم فيما نرى على جدران المساجد والقصور ، ، ، حيث يقوم التزيين على اساس تكرار وحدة تجريدية ثابتة او مجموعة وحدات منضمة فى وحدة اكبر » .

وهى ملاحظة لها حظها من القيمة والاعتبار ، وكنا نود لو خلت من (وحدة اكبر) .

وفى الفصل الثانى منه ، نجد بحثا قيما عن التدوير ، وما له من فوائد لم يتنبهلهاالاقدمون بالدرس وتنبهت لها المؤلفة الفاضلة فاقامت هذا التدوير على اساس ذوقى مرهف الاحساس فهو (يسبغ على البيت غنائية وليونة لانه يمده ويطيل نغماته) ولعل ابن شهيد تنبه الى موقع هذا التدوير حيث استقبحه فى قول عمر بن ابى ربيعة :

ونفضت عنى العين اقبلت مشية الـــــحباب وركنى خيفة القوم ازور

فقال : اساء قسمة البيت، واراد ان يلطف التوصل، فجاء مقبلا بركن كركنه ازور .

وفى كثير من المناسبات ، نرى المؤلفة تخطىء بعض الاستعمالات ، فى الشعر الحر ، بنحو ان العرب لم يستعملوا ، فهل استعمل هؤلاء العرب ، هذا الشعر الحر ؟ واذا كان الجواب بالنفى ، فالحرية المطلقة حق مشاع بين الجميع .

وفى صفحة 157 ، تقول ان قواعد البلاغة لا تبيح ان نفصل عبارة من اين عن عبارة لا ادرى ، وليس من غرض بيانى يسوغ فصل الفعل (التات) عن الفعل (يوجعنى) وهما فى مرتبة نحوية واحدة وانا لا ادرى ما المانع فى ذلك ، مع ان لا ادرى جواب لسؤال ، وان يوجعنى بدل ، وكلاهما لا يوصل بالواو .

وتعليقا على قول خليل الخورى :

آه متى يشتد عصف الريح .

عصف الريح روح البحر

تقول : واما عبارة عصف الريح روح البحر ، فقد كان حقها ان تفصل فصلا كاملا عن سابقتها ، لانها عبارة خبرية ، وما قبلها استفهام يختلف عنها بلاغيا .

ونحن حتى لو سلمنا بمطلق الفصل بين الجملتين المختلفتى الانشاء والخبر، والحال ان ذلك ليس كذلك ، فان الفصل البلاغى موجود هنا ، اذ ان ذلك الفصل والوصل قائمان على واو العطف عدما ووجودا ، وهى هنا معدومة ، فالفصل متحقق بعدما ، فان وجدت تلك الواو فلا ضير ، لاننا نحيلها

مع هذا التسليم على الحالية ، وتكون العبارة ، متى يشتد عصف الريح ؟ وعصف الريح روح البحر ، جميلة ، او غير قبيحة على الاقل .

وفي صفحة 186 وردت هذه العبارة (لعل عندهم من جواب) .

والفصيح ان من لا تزاد الا (في نفي وشبهه) كما يقول ابن مالك ، وهو الاستفهام ، كما في قوله تعالى (هل عندكم من علم)

واما الاستعمال المذكور ، فلا يجيزه الا بعض الكوفيين ، مثل قد كان من مطر ، وتعداهم الاخفش ، فجعل من ذلك ، قوله تعالى يغفر لكم من ذنوبكم والصواب ان من هنا تبعيضية

وتكررو رود استعمال وبالتالي في الكتاب بعد المقدمة ايضا وهو استعمال شاع عند كتابنا الجدد في المغرب والشرق ، ولكنه مع ذلك استعمال عامي لا ينتمي الى الفصحى في شيء ، كان استعمال العامة ، ثم عدانا هؤلاء ، فعمت بـه‍البلوى

وفي صفحة 191 ، ورد ما يلي ان كل شاعر ناظم بالضرورة ، وليس كل ناظم شاعرا ، وذلك لان الشعر اعم من النظم .

وكان من الحق ، ان يقال ، بناء على ذلك ، لان الشعر اخص من النظم لا اعم منه ، اذ الاعم ما ازداد فردا ، وهو هنا النظم حيث يشمل الشعر وغيره ، والاخص هو ما زداد قيدا ، وهو هنا الشعر ، حيث انه لا بد فيه من المحتوى الجميل الموحي ، المتموج بالظلال الخافتة ، والاشعاع الغامض ، الذي تنتشي له النفس ، دون ان تشخص سر النشوة .

وورد في صفحة 233 هذه العبارة يطاردانني ورد هذا فيما نقلته الشاعرة، من قصيدة بدر شاكر ، ولا ناخذ بذلك بدر شاكر شاكر ، صاحب الشعر المذكور ، لانه بريء من هذا التعبير ، فوزن شعره يشهد له بهذه البراءة ، وانما ناخذ المؤلفة ، لان القاعدة التي بنت عليها ، قد غررت بها ، ولم تهتد بذوقها فيها مع اننا نعلم ان المؤلفة على اطلاع عظيم بقواعد النحو وكتبها ومنظوماتها ، وعلى راس هذه الفية ابن مالك التي استشهدت بها كثيرا ، والتي قرات فيها

واجعل لنحو يفعلان النونا رفعا وتدعين وتسالونا

فكتبت يطاردانني ، باثبات نون الوقاية ، اخذا بقاعدة ابن مالك

وقبل يا النفس مع الفعل التزم نون وقاية وليس قد نظم

ولكنها فاتها ان ذوقها العربي ، وهي تستفتيه كثيرا ، وتدعو الى استفتاء الناس اياه ، لا يبيح لها هذا الاستعمال ، ولا تجد له في طول العربية وعرضها مثالا ، وشراح الالفية قالوا بالاقتصار على احدى النونين في هذا المثال ، بل نجد حتى في غيره هذا الاقتصار ، كما في قوله تعالى (تامروني) و (تحاجوني) في قراءة نافع ، لكراهة اجتماع المثلين ، اما يطاردانني، فيزيد على هذا المكروه ، مكروها اخر وهو توالي الكسرتين الثقيلتين ، ولهذا لا وجود ليطاردانني ، ويوجد تامرونني ، وتحاجونني

وتكرر كثيرا في الكتاب ، اليها ترتكز ولا ترتكز الى اساس وترتكز اليه ويتكيء الى ، ونحوه ، وكان الاحق بمكان الى هذه على ولا اريد ان تعتل المؤلفة بقاعدة حروف الجر ينوب بعضها عن بعض بل اني احاشيها ان تتكيء على هذه القاعدة الغبية

ومن المآخذ على المؤلفة ، ما اخذت هي به الناس ، في مثل هذه الترجمة التي تناولت بها بيتي الشاعر كيتس ، فكتبتها

اواه هل وجد قط ذلك الانسان المنفرد الذي احب ولم تقتله الموسيقى

زيادة على كون (هل وجد قط) من التعابير التي تجانفها لغة الشعر ،

وورد في صفحة 290 هذه العبارة (ولم ترتفع في ردع هذه المدارس ، الا أصوات خافتة خجلة ، ما لبث الصياح حتى اسكتها) فهي عبارة تضطرب بما لبث الصياح حتى اسكتها ، لكون لبث غير مستقرة في مكانها ، الذي كان جديرا به ، هدأ او فتر او انقطع ، مثلا اما ان يراد بها ما يراد في نحو ما لبث ان فعل ، من انه ما ابطأ او تأخر ، فان المعنى لا يستقيم، اذ تقول ما ابطأ الصياح حتى اسكتها

وورد في صفحة 300(مهما سيكون) افلا تشعر معي المؤلفة ، بنشاز في هذه العبارة ، فصواب (سيكون) يكن ، والاستقبال الذي حرصت عليه المؤلفة ، محقق في هذه الشرطية لا محالة

وفي نفس الصفحة ورد وسرعان ما سوف تتكشف وفيه شعور بنفس القلق ، واستغراب من هذه السرعة التي نعرقلها بسوف هذه

هـذه ملاحظات لاحظناهـا على الكتاب ومقدمتـه ، وهي لا تنقض ما قلنـاه فيهما ، من المتعة والطرافـة الادبية والعلميـة ، وكان جديرا بنا ان نغضى عنها، لـولا ما تاخذنا به المـؤلفة العالمـة ، في الفصل الذي ختمت بـه كتابها ، وهو فصل مهـم جـدا وصارم كـل الصرامـة في محاسبة الجيل المعاصر من ادبائنا ونقـادنا ، وقلمـا نظفـر بمثيلـه فيما يؤلف لنا من كتب هذا الجيل «المتحـرر» كمـا يزعمـون .

فالذي يقف على ذلك الفصل ، ويكون حاملا لتلك الروح العربية الغيـور يجده تعبـيرا صادقـا عما تعتلج فيه خـواطره ، ويضيـق به صـدره وربمـا لاينطلق بـه لسانـه .

نعـم : لقد اعجبني من آخر الكتـاب فصله «الناقد العـربي والمسئـوليـة اللغويـة» ففيه نرى المؤلفة الفاضلة تند بهؤلاء الفوضويين الشعراء والكتـاب والصحفيـين وتنعى على اولئك النقاد الذين يتغاضون عنهـم كانهـم بـذلك يفترضون ان من حـق اي انسان ان يخـرق القواعد الراسخـة ، وان يصوغ الكلمات على غـير القياس الوارد وان يبتدع انماطـا من التعابير الركيكة التي تخدش السمـع المرهف ثـم تعقب على هذا بقولها ان الجـذور الرئيسية لهذه الظـاهـرة تختبئ» في شبه عقيدة موهومة وقع فيها الجيل المعاصر مـؤداهـا ان الاهتمـام باللغـة والحـرص على قواعدهـا المختلفـة يـدلان على جمـود فكـرى في الاديب ، ويشـيران الى نقص صريح في ثقفـا فته الحديثة فعليـه ان يحـرص على هـذه الكلمـات الغريبة التي يلوكهـا ولا يعيها ليـدل على حـداثته .

وانـا اقـول ان المسالة ليست «شبه عقيـدة» بـل هي «عقـدة» نفسيـة معتاصة جـدا ، تكونت فينا كما تكونت تلك العقد العديدة ، من جراء الانبهـار بالغـير من السادة المسيطرين المسلطين ، الذين عبثوا بنا فصرنا نبعث بانفسنا ونستهين بكل مقوماتنـا ، لنتجلى قريبين من مسرح هؤلاء السادة الساخـرين منـا واللاعبين بمقدساتنا .

ومـع هذا نقول مـا نقول ، وايـم الله اننا غير صادقين فيما نقول

لقد نجح الغزو الاروبي في مهمته «السامية» ، واصبحنا متجردين مـن كل شيء ، فخلعنا عنا عقولنا «القديمة» ونبذنا تفكيرنا «الرجعي» واستعملنا المنـاهج «الحديثة» حتى في دراستنا للدين ورجاله ، والفنا في الشمـائـل والسـيرة ، فادركنـا الخجـل من ذكـر «النبي» او «الرسول» وقلنـا محمد ، وحياة محمد،

وعبقرية محمد ، الى غير هـذه لان القـوم يقولون هكـذا وهم سادتنـا فلنجتهد ان نتشبه بهم ، نحن العبيد حتى ننفى عنا كل ما لصق بنا من اوضار قـوميتنا ولنقـذف بهـا في جهنم وبئس المصير .

اما اول ما اعجبني منـه ، فمحاولته لـوضع حـد لهـذه الفـوضى ، التي ارتكبهـا اصحـاب الشعـر المنثور ، والتي خـاض فيها جماعـير غفـيرة مـن الادعيـاء في لغـة الضاد وآدابهـا ، يـاتون باشياء يمخـرقون بها ويدلسون حتى على انفسهم ان كانت لهم نفوس واعية حقا ، او يجلبون بـل يغيرون على النتاج غـيرهم ، فيشوهونه مموهـين ، وبالاختصار اصبح التحـرر مـن الاوزان تحـررا من كل شيء تمتلكه العـربيـة ، في نحوهـا وصرفها وبلاغتها ، بـل في بنيـة مفرداتهـا ايضا ، فالفوضى التي استغلها العجز والكسل ، تقنعت بقناع الوقاحـة ، فكان التجديد بالتحـرر وكـانت الغمغمة التي يغمغـم بهـا الثائرون ـ كما يـدعون ـ رمـزا ، وما هي بالرمـز ، وانمـا هي طلسـم مـن الطلاسم المكذوبة التي لا تخفي مغزى ولا معنى ، فكان هـؤلاء بمثـابـة اولئك المـدعين لفن بكاسو في الرسم «فيلخبطون» أو «يخربطون» ثم يقولون هذا يعني كـذا ، في صفاقـة من الوجـه وحماقـة من القـول

«الشابي»
شاعر الحب والحياة

للدكتور عمر فروخ

تناول الدكتور دراسته في كثير من الاتزان والتجرد ، وقسم ذلك على فصول ، وان كان لم يعنونها ، ومن اهم تلك الفصول الفصل الذى خصصه ببيئة الشاعر ، فدراسة البيئة اول ما يجب على الدارسين للشخصيات خصوصا الادبية منها او المفنة عامة : حيث انها تكون منفعلة برواسب شتى من تلك البيئة ، قبل ان تكون فاعلة في تلك البيئة ، وقضية الفعل والانفعال، قضية الصراع بين النقاد في موازينهم ، وان كنا الان لا نتوفر على هذا الميزان الذى تترجح كفتاه بما تترجحان ، او بما نحب أن تترجحا ، ولكن مما لاشك فيه ، ان المفن منفعل ببيئته ، ولولا هذا الانفعال لما كان له فن على الحقيقة ، ولدارسنا وقفات تسترعى الانتباه ، ففى فصله الذى خصصه او عممه بالشعر المعاصر في تونس ، حاول ان يطبق الى حد، قوانين القدامى على هذا الشعر، وجره هذا الى تفصيل ربطه بالمذهب الرومنسى في الغرب . لكنه لاحظ ان الذين تناولوا الرومنسية في الادب ، اختلفوا فيما بينهم على تحديد ما هى الرومنسية فيه ؟ ، وخرج من ذلك بان الرومنسية في اساسها ما هى الا محاولة للانفلات من القيود التى وصل اليها الشعر القديم

وعلى هذا فتكون الرومنسية مرادفة للتجديد المتحرر ، وهو على كل حال اعتبارى بحسب الظروف الزمنية والمكانية ، مع ان الرومنسية مذهب قائم بنفسه ، لا يخضع لهذا الاعتبار ، وقد يوجد هذا المذهب في القديم معربا عن نفسه من خلال تلك القيود ، كما يوجد في الجديد ، سواء بسواء ، وقد حطم هو ـ وغيره ايضا ـ تلك القيود ، ان صح لنا ان نسميها بذلك ، كما قال الدكتور .

وفى الفصل الذى تناول فيه خصائص الشاعر الفنية ، نجده في صفحة 123 يعلق على ابيات اربعة ، لينقض بها حكم التليسى ، بأنها وردت فيها شروط لا أجوبة لها . والواقع ان جوابها كامن فيها ، وهو سر جمالها ، ولذلك نظائر في اساليب البلاغة ، وفى القرءان منها كثيرة اما الوضوح

والاناقة اللذان جرد الشاعر ابياتنا منها فلسنا نوافقه في ذلك التجريد وها نحن الان نعرض على القارىء الكريم تلك الابيات ، ليرى رأيه فيها :

وسبيل الحياة رحب وانـ ـن اللواتي تفرشنه بالورود
ان اردتن ان يكون بهيجا رائع السحر ذا جمال فريد
او بشوك يدمي الفضيلة والحـ ـب ويقضي على بهاء الوجود
او اردتن ان يكون شنيعا مظلم الافق ميت التغريد

فالجواب لا يكلفنا الا كان والسلام ، اما الاناقة فانها موجودة، وهي مع ذلك تتمتع باعتبارها الخاص الخاضع للزمان ايضا ، فقد يكون تعبير انيقا اليوم وغدا لن يكون كذلك ، فلا بد من وزن الزمان في ميزاننا ، واما الوضوح فهو غني عن التوضيح .

ومن مواقف الدكتور فروخ العظيمة ، تفسيره لعوامل التجديد الادبي في العصر الراهن ، بانها تهدف الى قطع الصلة بين الادب المعاصر والادب العربي ، الذي يتغنى بالامجاد الماضية ، وبين الصياغة القديمة والصياغة الحاضرة ، وان ذلك مما يستغله التبشير المسيحي كما يسغله الاستعمار ايضا .

وهي لفتة عظيمة تستحق العناية بشانها، وان كنا لا نستثني كثيرا من تلك الدواعي التي كانت في العصر العباسي ، يوم كانت الشعوبية والزندقة ، تكمنان من ورائها : نعم ان العربية تفتخر وحدها بان ابناءها يفهمون عنها في يسر مافاهت بها منذ خمس عشرة سنة

ويرى الاستاذ ان الوصف الشعري في العصر الاموي اقل منه في كل عصر آخر

ونحن لا نوافق الاستاذ في هذا الحكم خصوصا وصف الطبيعة ومحتوياتها ويكفي مثالا على هذا شعر ذي الرمة الذي قل نظيره في وصف المشاهد، والصحراء منها بالخصوص .

واخيرا فان الشابي ـ كما يبدو من شعره ـ لم يكن شاعر الحب والحياة ، بل كان شاعر الحيرة والاستسلام وبهذا يختلف عن عمر الخيام كما يختلف كثيرا عن المعري ، فقد كان عمر الخيام شاكيا باكيا عنيدا في شكه، مستريحا الى الخمر وحدها ، ولا يستسلم الا بقدر ما يبعث في صاحبه بواعث هذا الشك او الالحاد ، ثم يعود الى الخمر لينسى الوف الحسرات كما يقول ، وكان المعري ، شاكيا عنيدا في شكواه صلبا في اعتراضه

ولكنه لا يطلب لـذة يتنفس بها عـن آلامـه ، ولا يحتسى خمـرا يتخـدر فيهـا بـاوهامـه ، ولـم يكـن حريصا كـل الحـرص ان يبعث فى صاحبه بواعث الشك والالحـاد ، بل كانت منه نفثات يكتمهـا عـن الناس بقـدر ما وسعـه الكتمـان ، حتى شكك الناس فيه ، أو جعلهم يختلفون اختلافا بينا فى الحكم عليه

اما الشابي فاذا ثار فسرعان ما تهدأ ثورته بالرضى المفتعل او الاستسلام الخائف ، واذا شكى وبكى فسرعان ما يخفت صورته بهذه الشكـوى ثـم يعقب ذلك الصمت الرهيب ، واذا بتلك الدموع تجف فى لمحة او تمسحهـا اصـابـع تمتد اليها فى رعشة وسرعةمعـا

ومن ثـم قلنا انه شاعـر الحيرة والاستسلام ، ولـم نقل شاعـر الثـورة والاستسلام ، لان مـن شان الثورة صمـود اصحابها ولو الى حين ، وهـو مالـم نـره فى موقف شاعـرنا ، الذى قيـدتـه عـوامل الوراثـة والبيئـة والمـرض الفتاك بـه وحـداثـة السن التى لـم تسمح لـه بهـذا التصلب الـذى انتهى اليـه الخيـام فالمعـرى .

جولة في الشعر العربي

وهذا كتاب لصديقنا الاديب الكبير والشاعر الموهوب ، الاستاذ ابراهيم العريض .

وهو في الواقع ، مجموعة دراسات ، تطبيقية ، على نماذج شعرية ، لادباء معاصرين ، كان الاستاذ قد اتحف بها قراء مجلة صوت البحرين تحت عنوان نفح الطيب .

نعم ، انها دراسات تطبيقية تحليلية ، لمجموعة من الشعر ، اغلبها في قوالب الوزن والقافية ، واقلها في غير تلك القوالب ، ولم يشأ ابراهيم العريض ، الا ان يتناول من هذا الشعر المعاصر الصفحة البيضاء الناصعة منه ، فيختار منه ما وقع عليه اختياره ويجري عليه تلك الاحكام ، التي ينطق بها في بسمته الوادعة ولطفه الشفيق ، تاركا وراء ظهره ، مالم يستسغه من اشعار هؤلاء المعاصرين ، في اهمال صامت قلما تحس له ركزا

وابراهيم في دراساته النقدية وغير النقدية ، يسبغ عليها نوعا من سحر الشعراء ، وهو الشاعر الموهوب كما قلنا ، فسرعان ما تاخذ قارىء كتبه سورة تستولي عليه ، فيسترسل في القراءة ولا يرسل الكتاب من يديه ، الا حين ما تودعه الصفحة الاخيرة منه ، فيشيعه ، وكانما يشيع حبيبا هام بحبه ، وعز عليه فراقه

وهذا ما جعل دار العلم للملايين ، تحرص على جمع تلك الدراسات ، ونشرها في هذا الكتاب ، الذي اراد لعنوانه صاحبه ان يكون تحت جولة في الشعر المعاصر بعد ان كانت هذه الدراسات ، تنشر تباعا تحت «نفح الطيب» .

واري ان هذا العنوان «نفح الطيب» كان اخلق بهذا الكتاب ، المختار من شعر المعاصرين ، منه وهو بعنوان «جولة في الشعر المعاصر» اذ ان الجائل لا بد ان يلاقي ما يحبه ومالا يحبه ، فلا يختار هذا ، وعلى كل حال فالاسماء قد يتفاءل فيها ، وصديقنا متفائل في كل ما يرى ، ولهذا فانه في جولته ، لم ير الا ما وقع عليه الاختيار ، فكان نفحا او نفحة من نفحات الطيب .

وملاحظتنا على ما ورد في هذا الكتاب ان قطعة فؤاد الدين الخطيب قطعة خيامية ، تكاد تكون ترجمة لرباعيتين او ثلاث ، والا تكن كذلك فان صاحبها مشبع بروح الخيام الى اقصى حد ، بحيث انه يسهل على من قرأ تلك الرعايات ، ان يجد التشابه قويا بينها وبين هذه القطعة .

قطعة انا وابناى لمحمود غنيم قطعة رائعة على بساطتها ، او هي رائعة لتلك البساطة ، ولا ينقص منها الا كون مسرحها حول المدفأة وهي بمصر ، اما ان كانت في بيئة تختلف عن مصر ، فانها ستكون لها اهمية كبرى ، وعلى هذا فالبيت :

وأغزو الشتاء بموقد فحم وابسط من فوقه راحتيا

لا ادرك له هذه الاهمية في مصر، مهما كان البرد فيها ، وادرك له الاهمية العظمى ، لو كان قد قيل في بيئة اخرى مثل تلك البيء التي قال فيها الحريري مثل هذا الكلام في احدى مقاماته .

ومن النماذج التي اختارها العريض هذه القطعة الصادقة في تصويرها «للزعماء»، ولجمال بساطتها اعرضها على القارىء كما هي :

انتم المخلصون للوطنية انتم الحاملون عبء القضية
انتم العاملون من غير قول بارك الله في الزنود القوية
و «بيان» منكم يعادل جيشا بمعدات زحفه الحربية
و «اجتماع» منكم يرد علينا غابر المجد في فتوح امية
وخلاص البلاد صار على البا ب وجاءت اعيادنا القومية
ما جحدنا افضالكم ، غير انا لم تزل في نفوسنا أمنية
في يدينا بقية من بلاد فاستريحوا كي لا تطير البقية

هذه قطعة لشاعر فلسطيني معروف ، في اسرة شاعرة نابغة ، هي لابراهيم طوقان ، وهي على بساطتها طافحة بالنقد اللاذع ، ولا نعلق بشيء فوق هذا ، لانها لا تحتاج الى تعليق ، ولله الامر من قبل ومن بعد ، وعسى الله ان ياتي بالفتح، فيصبحوا على ما اسروا في انفسهم نادمين .

فهرست

مطبعة اكدال زنقة بيارن رقم 22 - الرباط